سلسلة التاريخ الإسلامي

مصارع النبلاء

أحداث الفتنة

تأليف

محمد سمير محمد

دراسة تاريخية كاملة لأحداث الفتنة؛

بدءًا من استشهاد الفاروق ومرورًا باستشهاد عثمان بن عفان،

ثم ما كان من أمر علي بن أبي طالب واستشهاده،

ثم استشهاد الحسين، ثم استشهاد عبد الله بن الزبير

اسم الكتـــــاب:	**مصارع النبلاء**
اسم المؤلـــــف:	**محمد سمير**
تنسيق الكتـــاب:	**محمد سعيد** ٠١١١٥٧٤٢٣٠٣
تدقيق لغوي وإملائي:	**احمد عبد المجيد**
تصميم الغــلاف:	**إسلام مجاهد**
يصـدر عـــــن:	**دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع**
رقم الإيـــــداع:	
الترقيـم الدولـي:	
مديـر التوزيـــع:	**عمر عبـــــاس**
إشـــراف عــام:	**محمد المصـري**

هذا العمل مصنف مصري مائة بالمائة لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أي قصص محلية أو عالمية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

لدار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر أي جزء من هذا العمل بشكل اليكتروني أو فوتوغرافى أو أي شكل آخر دون تصريح كتابي من الدار يعرض المرتكب للمساءلة القانوينة.

دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

دار الرسم بالكلمات
للنشر والتوزيع

٥٠ ش عثمان محرم – الطالبية – هرم.
ت – ٠١١٥٣٣٣٩٣٩٠/ ٠١١١١٥٢٩٠٢٩

https://www. facebook. com/Dar. Elrsm. Blklemat

لطلب الكتاب

الاتصال على ٠١١٥٩٤٧٠٧٧٧

إهداء

أهدى هذا العمل المتواضع الى والدى ووالدتى الذين ما تركا فى وسعهما جهد إلا بذلاه حتى أكون كما أنا عليه الان فما أنا إلا صنيعتهم فما بى من خير فما هو إلا من الله ثم من غرسهم وما بى من غير ذلك فمن نفسى وما صاحبنى توفيق ربى إلا من دعائهم فأقول لهم شكر الله لكم وجزاكم عنى خير الجزاء.

محمد سمير

إهداء خاص

وأهدى هذا العمل الى زوجتى ورفيقتى فى حياتى تلك التى اختارها ربنا لى فأنعم بإختيار ربى فصبرت معى على العمل الدأوب لأخرج لكم هذا الكتاب واسأل الله ان يأجرها خيرا وان يجعله فى ميزان حسناتها يوم ان نلقاه

محمد سمير

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عزيزي القارئ عزيزتي القارئة، يا من تبحثون عن الحقيقة في كل مكان، أقدم لكم هذا الكتاب وهو بعنوان «مصارع النبلاء»، والذي أحاول فيه أن أرصد الفتنة التي ألمت بأمة المسلمين منذ نشأتها وحتى قيام دولة بني أمية واستتباب الحكم لها، فأنا أضع بين يدي القارئ الكريم بحثًا كاملاً لكل تفاصيل الفتنة والمؤامرة التي حيكت ضد أمة المسلمين، بدءًا من التخطيط لقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وانتهاءً بمقتل عبد الله بن الزبير، حيث يتناول الكتاب في خمسة فصول كل أحداث الفتنة بكل تفاصيلها، بعرض شيق ومكثف بلا إطالة أو ملل أو إسهاب لا طائل منه.

الفصل الأول: حياة الفاروق عمر ونشأته وإسلامه وهجرته وجهاده، ثم توليه الخلافة والفتوحات التي تمت في عهده في المشرق والمغرب ونماذج من عدله، ثم نعود إلى المؤامرة التي حيكت للتخلص منه، وكيف أنها كانت مؤامرة رباعية اشترك فيها يهودي ومجوسي ونصراني وفارسي، ونحاول في هذا المبحث إماطة اللثام عن هذا المخطط الشيطاني، الذي ما كان يهدف إلا إلى زعزعة الأمة الاسلامية والإطاحة بالخلافة والخليفة وإدخال الأمة في أتون معركة طاحنة باقتتال داخلي لا يعلم مداه إلا الله، فكانت أولى خطوات التجهيز لهذه المؤامرة هي بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليكون هذا هو مصرع النبيل الأول معنا في مصارع النبلاء.

الفصل الثاني: حياة ذي النورين وإسلامه وهجرتيه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ومواقفه مع رسول الله في المدينة، وصولاً به إلى اعتلاء كرسي خلافة المسلمين، وبعض من أعماله في خلافته الراشدة، ثم ننتقل لدراسة الفتنة التي حيكت ضده وجهزتها جماعة السبئية، تلك الجماعة السرية التي دبرت بليل لإضاعة هذه الأمة، وماذا

كان من أمر الثائرين عليه، وكيف دارت رحى الفتنة، وكيف دبر لها مشعلوها، وأماكن التحرك، ودراسة تفصيلية لهذه التحركات، ومساعيه هو رضي الله عنه لرأب الصدع وتهدئة الموقف، وصولاً لحصاره في بيته وقتله، وتفاصيل ما جاء في هذا، ليكون بذلك مصرع النبيل الثاني معنا في مصارع النبلاء.

الفصل الثالث: حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وإسلامه وهجرته وجهاده في سبيل الله، ثم مواقفه مع رسول الله في الهجرة وبعد الهجرة، ثم بعض ما كان منه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كواحد من أهم أصحاب المشورة على أمير المؤمنين، ثم وصولاً إلى توليه أمر الخلافة والمسلمين، فنستل من مقتل عثمان بداية جديدة لتتبع الفتنة التي أطاحت بالمسلمين وفرقت شملهم، فندرس معه دراسة تفصيلية أحداث معركة الجمل، ثم صفين، ثم قبوله التحكيم، ثم خروج الفرق عليه، وأهمها فرقة الخوارج، ثم النهروان، وصولاً إلى استشهاده رضي الله عنه، بمبحث في غاية الدقة والتحري للروايات الصحيحة، والبعد التام عن كل الروايات الضعيفة أو الموضوعة التي لا تصح، وهي كثيرة

جدًا في كتب التاريخ الإسلامي، لذلك كان الأمر في غاية المشقة والصعوبة أن تمشي على أشواك الفتن متحريًا الصحيح والدقيق، لأنك تتكلم عن خير خلق الله بعد أنبيائه ورسله وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمصرع الإمام علي رضي الله عنه يكون هذا هو النبيل الثالث معنا في مصارع النبلاء.

الفصل الرابع: دراسة لحياة الحسين بن علي وإطلالة سريعة على خلافة الحسن، ثم نذهب إلى موقف الحسين من خلافة بني أمية وصراعه معهم، ودراسة تفصيلية لأحداث وملابسات مصرعه وهو يدافع عن الحق، رافعًا رايته في وجه الظلم والجور وتولية الأمر من ليس أهله، ثم ننتهي بقصة استشهاده كاملة، ونحن في كل ذلك نتعقب خيوط الفتنة ونتتبعها ونتلمسها حتى يكون عندنا الأمر واضحًا جليًا بلا لبس ولا تحريف، وبمقتل الحسين واستشهاده يكون هذا هو مصرع النبيل الرابع معنا في مصارع النبلاء.

الفصل الخامس: حياة عبد الله بن الزبير ومواقفه في الإسلام وجهاده ثم وقوفه ضد دولة بني أمية، ثم خلافته وبيعته أميرًا للمؤمنين، ودراسة لأحوال الأمة في ذلك الوقت، مرورًا بتولي

يزيد بن معاوية ثم معاوية بن يزيد بن معاوية، ثم تولي مروان بن الحكم، ثم ما كان من صراع بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وظهور الحجاج وما كان منه من محاصرة الكعبة ورميها بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير وصلبه شهيدًا لربه، وبمصرعه يكون مصرع النبيل الخامس معنا في مصارع النبلاء.

إننا ونحن نجهز لهذا الأمر عانينا معاناة كبيرة، إذ من الواجب تحري الدقة والنظر في الروايات الصحيحة والبعد عن كل رواية موضوعة أو ضعيفة أو باطلة، ولا يخفى عليكم كم ما دُس على الأمة الإسلامية في تاريخها، لذلك كنا نتحرى الدقة سائلين الله جل وعلا التوفيق والسداد، وأن نضع بين يدي القارئ الكريم ملامح هذه الفترة العصيبة في كتاب واحد وبعرض مكثف، وفيه القصة كاملة كأنك تشاهدها أمامك بكل تفاصيلها، وحاولنا أن نضع الحقيقة أمام عين القارئ الكريم، فالله أسأل أن ينفع به ويجعله عدة لكل من يريد أن يعرف الحق ويتعلم أقدار أصحاب رسول الله دون الوقوع في أحد منهم، ودون الوقوع في شرك

المرويات الباطلة التي وقع فيها أساتذتنا الكبار.

أما وقد أنهيت هذا الكتاب فإني أتوجه إلى الله جل وعلا بالشكر الوافر والحمد البالغ والثناء عليه جل وعلا، فما بنا من نعمة إلا من الله عز وجل، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله جل وعلا أن يكتب لهذا العمل القبول في الدنيا وأن تتلقاه الأمة بالترحيب والاستحسان، وأن يكتب له القبول في الآخرة فيجعله في ميزان حسناتنا وميزان حسنات كل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى الناس.

فسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

المصنف

الفقير إلى مغفرة ربه وعفوه

محمد سمير محمد صابر

الثاني من ربيع الثاني لعام ١٤٣٥

الموافق الثاني من فبراير لعام ٢٠١٤

الفاروق طعينـًا

إنه أمير المؤمنين وفاروق الأمة الأول، يقف في محراب رسول الله رافعًا يديه إلى السماء جاعلاً بصره حيث يسجد لربه، قائلاً الله أكبر، وقد كانت تخلع القلوب التي طالما عمُرت بالصلاة خلف رسول الله، حتى إنهم صاروا يصطفون كأنهم الملائكة وقد جاءت صفًا صفًا، وهو يقف كالأسد المغوار في محراب رسول الله، يبدأ في صلاة الفجر بأصحاب محمد، أصحاب الرعيل الأول، فما هي إلا لحظات حتى سمعوه يصرخ قتلني الصنع.

لعلك أخي القارئ تعجب من هذه البداية الصادمة التي استهللت بها الحديث عن مصارع النبلاء، ولعلك أيضًا تسأل نفسك، ولماذا حدث كل هذا، وما هي الأحداث التي سبقت هذه الصرخة المدوية التي ارتفعت في السماء قبل أن يسمعها أهل الأرض، فكأني برسول الله يقف بجواره وهو يُطعن ويسقط

على أرض مسجد النبي، وكأني بيديه الشريفتين قد سبقت كل يد لترفع حبيبه ورفيقه وفاروق أمته، ذلك العبقري الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق.

حتى نستطيع أن نفهم ما حدث فيجب أولاً أن نعرف من هو الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله في نبذة مختصرة عن حياته.

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرُط بن رَزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، بن غالب القرشي العدوي، يجتمع نسبه مع رسول الله في كعب بن لؤي بن غالب، ويكنى أبا حفص، ولُقّب بالفاروق، لأنه أظهر الإسلام بمكة ففرّق الله به بين الكفر والإيمان.

ثانيًا: مولده وصفته الخَلْقية

وُلد عمر رضي الله عنه بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، كما ذكر الإمام السيوطى في تاريخ الخلفاء، وأما صفته الخَلْقية، فقد ذكر لنا العاني في كتابه الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب أنه كان

رضي الله عنه أبيض، أمهق، تعلوه حمرة، حسن الخدين والأنف والعينين، غليظ القدمين والكفين، مجدول اللحم، وكان طويلاً جسيماً أصلع، قد فرع الناس (كان طويلاً جدًا)، كأنه راكب على دابة، وكان قويًا شديدًا، لا واهنًا ولا ضعيفًا، وكان يخضب بالحناء (يعني لحيته)، وكان طويل السَّبلة (طرف الشارب، وكان إذا غضب أو أحزنه أمر يمسك بها ويفتلها)، وكان إذا مشي أسرعٍ وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًا.

ثالثًا: حياته في الجاهلية

كانت حياته وبيئته فظة غليظة، ونشأته تنشئة تُميت القلوب وتُقسي الأفئدة، ولا تجعل للرحمة فيها نصيب، وخاصة حينما تعلم كيف أثّرت هذه النشأة في حياته وتركت فيها عمقًا كبيرًا وأثرًا بالغًا، وخاصة طريقة تعامل والده معه، والتي كانت شديدة القسوة، وكيف أنه لما صار أميرًا للمؤمنين كان يذكر هذه الأيام بمرارة كالحة، فقد أخرج ابن عساكر في تاريخه أن عبد الرحمن بن حاطب يحدثنا عن ذلك فيقول: «كنت مع عمر

بن الخطاب بضجنان (جبل على بعد ٢٥ كيلومتر من الكعبة)، فقال: كنت أرعى للخطاب بهذا المكان، فكان فظًا غليظًا، فكنت أرعى أحيانًا وأحتطب أحيانًا»، والناظر لهذا السياق يرى كيف كان يتألم الصبي في ذلك الوقت، وكيف كانت خشونة العيش شيئًا مقيتًا له، وتأمل أخي كيف تذكّر هذا وهو أمير المؤمنين وسلطان الدنيا، من تدين له الأمصار وتخضع له جباه الملوك، وحينها ستعرف كيف أن هذه التنشئة قد خطت خطًا عظيمًا في حياة هذا العبقري الفذ الذي ندرت الأيام أن تجود بمثله.

ويذكر لنا دكتور عاطف لماضة في كتابه الماتع "الفاروق مع النبي"، والذي نقل فيه رواية عن ابن عساكر أنه روى أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه كان يقول "حجّ عمر، فلما كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العلي العظيم، المعطي ما شاء، لمن شاء. كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي، في مدرعة صوف (يلبس الصوف من الثياب في الحر الشديد)، وكان فظًا، يُتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين

الله أحد، ثم تمثل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويُردى المال والولد
لم تُغن عن هرمز يومًا خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها بردُ
أين الملوك التي كانت نواهلها ... من كل أوب إليها راكب يفد
حوضًا هنالك، مورود بلا كذب ... لابد من ورده يومًا كما وردوا

ولم يكن ابن الخطاب رضي الله عنه يرعى لأبيه وحده، بل كان يرعى لخالات له من بني مخزوم، وذكر لنا ذلك هو عن نفسه حين حدثته نفسه يومًا وهو أمير المؤمنين أنه أصبح أميرًا للمؤمنين، فمن ذا أفضل منه.. ولكي يُعرِّف نفسه قدرها – كما ظن – يروي لنا ابن سعد في الطبقات أنه وقف يومًا بين المسلمين يعلن أنه لم يكن إلا راعي غنم، يرعى لخالات له من بني مخزوم، يقول محمد بن عمر المخزومي عن أبيه: نادى عمر بن الخطاب بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس، وكبروا، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم قال:

أيها الناس.. لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي قبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي وأي يوم (كانت أجرة اليوم قبضة من تمر أو من زبيب)!!

ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن قمّأت نفسك - عبْتَ - فقال: ويحك يا ابن عوف!! إني خلوت فحدثتني نفسي، قالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك؟! فأردت أن أعرفها نفسها. وفي رواية: إني وجدت في نفسي شيئًا، فأردت أن أُطأطئ منها.

هذه الرواية تُظهر لنا بعدًا شديد الأهمية في النظر إلى أفعال الفاروق وتفسير كثير منها، وكيف أن نشأته هذه كانت علامة فارقة في طباعه، التي ربما احتاجت الأمة في مهد نشأتها لرجل يجمع في طيات نفسه بين طبيعة غليظة كهذه وديانة وعبودية لله وعدل متجسد في الأرض من غرس رسول الله في صاحبه.

ونحن هنا لسنا بصدد التأريخ لحياة الفاروق عمر رضي الله عنه، وإنما نعرض لبعض المقتطفات من حياته، حتى أجعلك أخي

القارئ على دراية كاملة بطبيعة شخصية هذا الفذ العملاق، ولذلك لن أطيل النفس كثيرًا في ذكر أيام جاهليته، ولكني أريد أن أضع يدك أخي القارئ على مفاتيح شخصية الفاروق رضي الله عنه.

رابعـًا: إسلامه وهجرته

إننا نتكلم اليوم عن رجل من أشد من عادى الإسلام ورفع عقريته ضد هذا الدين الجديد، بل وناصب أتباعه العداء، حتى كان يتطوع هو بعذاب من يُسلم لله جل وعلا من الإماء والعبيد، فهو مشرب بجاهليته لا يرى سواها، ولا يعلم حقًا غير الذي علمه عند آلهته، ولما ظهر أمر رسول الله كان من أكثر من عادى النبي صلى الله عليه وسلم، بل ولا أكذبك لو قلت لك إنه الوحيد من بين كل شباب مكة من فكر وقرر بل وشرع ينفذ في قتل رسول الله، وهنا يجب أن نقف موقفًا هامًا لفهم هذه الشخصية العجيبة، فحينما تعلم أن كل سادة قريش لم يجرأ واحد منهم على قتل رسول الله خشية من بني هاشم، وهم من أكبر

وأعرق بطون العرب، حتى إنهم لما فكروا في قتله قبيل هجرته صلى الله عليه وسلم جمعوا من كل قبيلة فتى جلدًا وقرروا أن يقتلوه جماعة ليفرقوا دمه بين القبائل، فما بالك برجل قرر مبكرًا جدًا أن يضحى بنفسه ولا يأبه ببني هاشم وإن قتلوه، ولكنه يجب أن يئد هذا الدين في مهده بقتل صاحب الدعوة نفسه، بحسم عجيب وعزم لا يلين ومضاء إرادة دانت لها الدنيا فيما بعد.

أي رجل هذا الذي يهتم رسول الله لدخوله الإسلام حتى يدعو له باسمه ويرجو من ربه أن يُسلم وأن يُعز الله الإسلام به، فقد روى الترمذي بإسناد صححه الألباني أن رسول الله كان قد دعا له بقوله: اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر.

وقصة إسلامه يرويها لنا ابن هشام في السيرة، ويروها ابن سعد في الطبقات، كما يلي: "كانت قريش قد اجتمعت فتشاورت في أمر النبي، فقالوا: أي رجل يقتل محمدًا؟ فقال عمر بن الخطاب: أنا لها، فقالوا: أنت لها يا عمر، فخرج في الهاجرة، في يوم شديد الحر،

متوشحًا سيفه يريد رسول الله ورهطًا من أصحابه، فيهم أبو بكر وعلي وحمزة رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، وقد ذكروا له أنهم اجتمعوا في دار الأرقم في أسفل الصفا. فلقيه نُعَيم بن عبد الله النّحّام. فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله. قال له نُعَيم: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرّتك نفسك من نفسك، ففرّطت وأردت هلكة بني عديّ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ فتحاورا حتى علت أصواتهما، فقال عمر: إني لأظنك قد صبوت، ولو أعلم ذلك لبدأت بك. فلما رأى النَّحَّام أنه غير مُنْتَه قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختَنك (يعنى زوج أخته) قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك. فلما سمع مقالته قال: وأيهم؟ قال: خَتَنك وابن عمك (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من العشرة المبشرين بالجنة) وأختك.

لما سمع عمر أن أخته وزوجها قد أسلما احتمله الغضب، وذهب إليهما، فلما قرع الباب قالوا: من هذا؟ قال: ابن الخطاب. وكانوا يقرؤون كتابًا في أيديهم، فلما سمعوا حس عمر قاموا مبادرين فاختبأوا ونسوا الصحيفة على حالها، فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر في وجهه، فخبأت الصحيفة تحت فخذها. قال: ما هذه الهَيْنَمَة والصوت الخفي الذي سمعته عندكم؟ (وكانوا يقرأون طه) فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه سعيد وبطش بلحيته، فتواثبا (تصاراعا)، وكان عمر قويًا شديدًا، فضرب بسعيد الأرض ووطئه وطأً، ثم جلس على صدره، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عدو الله، أتضربني على أن أوحّد الله؟ قال: نعم. قالت: ما كنت فاعلاً فأفعل، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك. فلما سمعها عمر ندم وقام عن صدر زوجها، فقعد، ثم قال: أعطوني

هذه الصحيفة التي عندكم فأقرأها، فقالت أخته: لا أفعل. قال: ويحك، قد وقع في قلبي ما قلت، فأعطينيها أنظر إليها، وأعطيك من المواثيق ألا أخونك حتى تحرزيها حيث شئت. فقالت: أنت مشرك نجس، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ. فخرج عمر ليغتسل ورجع إلى أخته، فدفعت إليه الصحيفة وكان فيها طه وسور أخرى، فرأى فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

فلما مرّ بالرحمن الرحيم ذُعر، فألقى الصحيفة من يده، ثم رجع إلى نفسه فأخذها فإذا فيها: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١ - ٨].

فعظمت في صدره. فقال: مِن هذا فرّت قريش؟ ثم قرأ. فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ

﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٤-١٦].

قال: ينبغي لمن يقول هذا أن لا يُعبد معه غيره، دلوني على محمد. وهنا يجب أن نتأمل ونقف مع هذا الرجل الفذ، كيف أن له قلبًا حيًا لم تُمته قسوة الجاهلية ولم تعبث بفطرته عبادة الأوثان، إنما بقي قلبه غضًا طريًا كما خلقه ربه، لا يدافع عن باطل أو هوى، بل ينافح فقط عما يراه حقًا، فهو جبار في جاهليته لما كانت هي الحق عنده وجبار في إسلامه لما استبان سبيل الرشاد وعرف الطريق إلى الله جل وعلا، وكيف أن كلام ربنا لما مس قلبه وحرك شغاف نفسه علم أنه الحق، وأن هذا النور المنبعث من مشكاة الألوهية إنما يتسرب فقط للقلوب التي لا أقفال عليها، والتي لم يعمَ أصحابها أو يصُمّوا عن سماع الحق ونداء الصدق من رب البرية وواجد الخلق، فأنت أخي الكريم أمام نموذج حي للنبل والمروءة، إنك أمام عمر رضي الله عنه.

فلما سمع خبّاب رضي الله عنه ذلك خرج من البيت، وكان

مختفيًا، وقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون قد سبقت فيك دعوة رسول الله:

(اللهم أعِزّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب).

قال: دلوني على مكان رسول الله، فلما عرفوا منه الصدق قالوا: هو في أسفل الصفا. فأخذ عمر سيفه فتوشّحه ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته وَجِلوا (خافوا) ولم يجترئ أحد منهم أن يفتح له، لما قد علموا من شدته على رسول الله، فلما رأى حمزة رضي الله عنه وجَلَ القوم قال: مالكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب. قال: عمر بن الخطاب؟ افتحوا له، فإن يُرد الله به خيرًا يُسلم، وإن يُرد غير ذلك يكن قتله علينًا هينًا. ففتحوا، وأخذ حمزة ورجل آخر بعضديه حتى أدخلاه على رسول الله، فقال: أرسلوه. ونهض إليه رسول الله وأخذ بحجزته، وبجمع ردائه، ثم جبذه جَبْذَة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل

الله بك قارعة. فقال له عمر: يا رسول الله، جئتك أؤمن بالله وبرسوله وبما جئت به من عند الله. قال: فكبّر رسول الله، فعرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله من مكانهم وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله، وينتصفون بهما من عدوهم». والسياق الذي ذكرنا آنفا هو للإمام أحمد في فضائل الصحابة.

وهنا يجب أن نفهم أن دخول عمر رضي الله عنه الإسلام كان بمثابة فتح كبير للإسلام والمسلمين، لأنك لست فقط أمام دخول رجل عادي للإسلام، ولكنك أمام رجل عنده همم الملوك ومضاء الأبطال وعزم الأشداء المغاوير، لست أمام إسلام رجل ضعيف، بل أنت أمام رجل قوي حين يدخل دينًا فإن الله عز وجل يُعز به هذا الدين، ولنتأمل أخي القارئ؛ هل نحن ممن يُعز الله بهم هذا الدين؟ ماذا يمكن أن نضيف لأمتنا ولديننا؟ بماذا يمكن أن نُعز هذا الدين، وبماذا يمكن أن يسطر التاريخ

أسماءنا بحروف من نور؟ كن أخي الكريم المؤمن القوي الذي هو أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، واحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، واجعل همك أن تُضيف إلى هذه الأمة وأن تبتكر وأن تُبدع، وألا تعيش عالة على الإنسانية، بل نعيش ونحن سادة الأمم، بالعلم والاجتهاد واستحضار سير الأولين وتدبرها وتفهم لماذا وصلوا إلى ما وصلوا له من رفعة لهذا الدين وإعلاء لشأنه بين الأمم.

وها هو عمر رضي الله عنه يطلب من رسول الله فور إسلامه أن يخرج للكعبة جاهرًا بدعوته معليًا إياها خفاقة في الدنيا، واستجاب له النبي، فخرج في صفين على أولهما الحمزة وعلى الثاني عمر، وصلوا جميعًا في صحن الكعبة، وليس هذا فحسب، بل جهر بإسلامه بين جميع قريش، لا يخفيه أبدًا ولا يعبأ بهم ولا يهتم لهم، إنه يمشي مع ما يراه حقًا، حتى إنه ذهب إلى أبي جهل في بيته وأخبره أنه أسلم، فأغلق الباب في وجهه غضبًا وحنقًا عليه. وتستمر حياته حتى كان يوم هجرته.

خامسًا: الفاروق مهاجرًا

وهنا يعلنها مدوية في الدنيا رافعًا بها عقيرته أمام الناس جميعًا، مذلاً بها مشركي قريش، جاهرًا بها في وضح النهار، فقد شق عنان السماء بكلمات حُفرت في التاريخ ونُقشت على ظهر الزمان، ونحتها الفاروق على صخر الأيام، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر عنزته (العنزة عصا في قدر نصف الرمح، وهي أطول من العصا وأقوى من الرمح)، ومضى قِبل الكعبة (جهة الكعبة)، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام، فصلى متمكنًا، ثم وقف على الحلق واحدة، واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس (يعني الأنوف تكون راغمة ذليلة)، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، أو يرمل زوجه؛ فليلقني وراء هذا الوادي. قال عليٌّ رضي الله

عنه: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم، وأرشدهم ومضى لوجهه.

ها هو العملاق يصدع ليس فقط بالحق، بل يرهب هؤلاء الحفنة العفنة من المشركين الذي آذوا الله ورسوله، يعلنها صريحة في وجه الدنيا جميعها، بقوة غير مسبوقة وشجاعة نادرة الحصول وهمة تهيل الجبال، إنه يعلم أنه على الحق، وهذا هو الإيمان أخي الكريم، إذا ما تمكن من قلب العبد وخالج نفسه وخالط شغاف قلبه فإنه يجعل له قوة عجيبة تنبع من صفاء معنى التوحيد وجلاء اتباع الحق المبين، إنك تملك قوة هائلة بين جنبيك وجذوة نار متقدة، أنت فقط من يمكنه إيقاظها وإخراج هذا المارد الكامن بين مجامع صدرك، ولا يكون هذا إلا حين تجعل لك هدفًا تحيا من أجله، فالنجاح قرار والفشل أيضًا قرار، ولا ثمة فرق بينهما إلا الإرادة.

ثم يكون عمر في المدينة المنورة مع رسول الله ومع أصحابة الكرام، أصحاب الرعيل الأول، أنبل من خلق ربنا بعد أنبيائه ورسله،

إنهم أصحاب محمد المختارين لصحبته، وها هو الفاروق بيهم شاهرًا سيفه يدافع عن الله ورسوله ويُعلي كلمة الحق والتوحيد في كل ربوع الدنيا، فقد شهد مع رسول الله كل مشاهده وغزواته صلى الله عليه وسلم، بل كان يتعهد هو بقيادة حراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت بدر وكان مع رسول الله، وكانت أحد وكان جنبًا لجنب مع حبيبه، ثم تتوالى أيام رسول الله ومغازيه وهو بين يدي حبيبه ومن ملك عليه قلبه، وكيف وقد صافحت عيناه وجه المصطفى، فنعم العين طالعت الحبيب ونهلت من نهال نوره وفيض كراماته وجميل خلقه وعذب قوله ورقة طابعه وحسن معاشرته وطيب أنفاسه وجمال ريحه، إنك تقف بين يدي محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنا لست هنا بصدد ذكر كل ما جاء عن الفاروق عمر، وإنما أضع فقط بين يديك أخي الحبيب إلمامة عامة عن حياة الفاروق دون الدخول في التفاصيل، فالتفاصيل لها وقت آخر نعرض فيه حياة الفاروق كاملة في مجلد كامل إن شاء الله، إنما هنا نطير بين أزهار

سيرته العطرة ونرشق من رحيق أيامه الخالدة، ولذلك فلن أطيل النفس في ذكر ما كان من أمره في غزوات رسول الله، وإنما سوف أعرض كلام النبي عنه، حتى تعرفوا عن أي نبيل نتحدث.

سادسًا: عمر في ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد جاء في منزلة إيمانه رضي الله عنه ما رواه عبد الله بن هشام أنه قال: كنا مع النبي وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليّ من نفسي. فقال النبي: الآن يا عمر (الصحيح المسند في فضائل الصحابة).

وهنا ملمح في غاية الأهمية والخطورة، ليس فقط للفاروق وإنما لنا أيضًا في زماننا هذا وفي كل الأزمان، فهل أنت تحب رسول الله أكثر من نفسك التي بين جنبيك؟ وهنا يأتي سؤال: ما هو الحب إذن الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم؟ الحب هنا هو حب التكلف وإرغام النفس على مضاد رغباتها وحملها على الطاعة

مع كسلها عنها، إنما هو تقديم مراضي الله ورسوله على مراضيك وهوى نفسك، هو حب التضحية والفداء والإيثار وبذل حشاشة النفس في سبيل من تُحب، حتى إنك لتبذل نفسك رخيصة في سبيل محبوبك طواعية، بل وأنت محب لهذا، ولعلك هنا تسأل نفسك: هل حينما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر أنه يجب أن يحبه أكثر من نفسه التي بين جنبيه، فقال في التو الآن أنت أحب إليّ من نفسى التي بين جنبي، فهل هناك زر داخل الفاروق لما ضغط عليه أدرك هذه المحبة؟ إنما كل ما في الأمر أنه فهم ووعى ما يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم من معنى المحبة وحمل النفس على ضد مراضيها، فكان هذا بالطبع حاضرًا في قلب الفاروق وفي نفسه، فلذلك قال الآن يا رسول الله، فكأن لسان حاله يقول: ليس في العمر وقت أضيعه ولم يكتمل إيماني بعد، إنما محبة رسول الله هي لحمي ودمي وحياتي وأنفاسي التي أحيا بها.

وأما علمه فقد قال رسول الله: بينما أنا نائم شربت – يعني اللبن – حتى أنظر أني الرّي يجري في ظفري أو في أظفاري، ثم ناولت عمر.

فقالوا: فما أولته؟ قال: العلم (فتح الباري للحافظ ابن حجر).

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله، فدخل عمر ورسول الله يضحك. فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. قال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله. فقلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله. فقال رسول الله: إيه يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط إلا سلك فجًا آخر.

وهنا يظهر لنا الفاروق قويًا في الحق، لما كبر مقام الله في قلبه صغر فيه مقام كل شيء من الدنيا، ولما ملأ خوف الرحمن مجامع قلبه ملأ الله قلوب أعدائه خوفًا منه، حتى الشيطان صار يخشى

ابن الخطاب وهو يعلم أنه لن يراه، ولكنها الخشية الممنوحة من الله جل وعلا لعباده المحبين الذين امتلأوا خوفًا منه ورجاء له، فاستحقوا مهابة الدنيا ورفعة الآخرة، وكأنما يكره الشيطان أن يرى أمامه رجلاً على هذا الإيمان واليقين بالله، ويكره أن يرى من ولد آدم من له مثل هذا الحزم والعزم ووضوح الرؤية والهدف وصدق الإيمان وصفاء العقيدة، التي جعلته فرقانًا فرّق الله به بين الحق والباطل.

وروى الشيخان أيضًا أن رسول الله قال: لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر.

وفي هذا الحديث يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم قدر الفاروق، وكيف أنه مختار ومجتبى ومصطنع من قبل الله جل وعلا لمهمة فذة ووظيفة يعجز عنها من سواه، إنه رجل ملهم ومحدث من قِبل السماء، يعني أنه يُدرك بحواس ليست كالتي عندنا، إنما عنده الإلهام الإلهي والوحي الخفي من قبل الله عز وجل، ولو لم تكن تلك الكرامات لعمر رضي الله عنه فلمن

تكون إذن؟ ولعل من أبرز ما جاء في هذا الصدد يوم أن نادى الفاروق أيام خلافته في الناس أن الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا في المسجد قام فيهم خطيبًا، ثم سكت فقال: الجبل الجبل يا سارية. وكان بينه وبين قائد جيش المسلمين سارية بن زنيم آلاف الأميال، وكان سارية قد ترك الجبل ونزل للقاء أعدائه، فعلم الفاروق أن أعداءه قد التفوا حوله وكادوا يُحدثوا مجزرة في جيش المسلمين، لولا أن ناداه الفاروق فقال الجبل الجبل يا سارية، وسمع سارية صوت الفاروق ولزم الجبل، ونجّى الله المسلمين من مجزرة حقيقية كادت تفتك بجيش الإسلام، والعجيب هو في تعقيب أمير المؤمنين عمر لما قال: إن لله جنودًا، ولعل بعضها أن يبلغهم. كأنما يعلم هذا الرجل أن الله سخر له ما لم يُسخره لغيره، إنه اليقين في الله وصدق الإيمان، وكأنما كان يُبصر بعين غير التي نبصر بها نحن.

وأيضًا:

قال رسول الله: رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب

(أسحب دلوًا معلقًا على بئر لأرفع به الماء)، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا (رفع دلوًا) أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربًا، فلم أرَ عبقريًا يفري فريه، حتى رُوي الناس وضربوا بعطن (أي فجعل يرفع الماء بسرعة شديدة وقوة هائلة، حتى إن الناس أرووا إبلهم ثم آووا إلى عطنها، وهو الموضع الذي تُساق إليه بعد السقي لتستريح).

انظروا إخوتي إلى التعبير النبوى "فلم أرَ عبقريًا"، إنه العبقري عمر الفاروق رضي الله عنه، كيف يشهد له رسول الله أنه رجل عبقري يحكم الأمة بما لن يكون له مثيل فيها ولا نظير، إنه تلميذ المدرسة المحمدية، وإن شئت فقل تلميذ النهج الرباني الذي من يتخرج في جامعته يكون من الأفذاذ، فما بالك بعمر رضي الله عنه، يُريح الناس ويُهيء لهم معاشهم، ويبسط فيهم العدل ويرفع عنهم الظلم والجور، ومن كانت هذه صفته كان حريًا به أن يشهد له رسول الله بالجنة وهو بين أظهرنا في الدنيا، واسمع معي هذا الحديث الشريف:

قال رسول الله: رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طليحة، وسمعت خشفة فقلت من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر. فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك. فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟ (رواه مسلم). وفي رواية قال رسول الله: بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر. فذكرت غيرته فوليت مدبرًا. فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله (رواه مسلم). وهنا ملمح جميل أن رسول الله أوفى الخُلق لأصحابه حتى في منامه صلى الله عليه وسلم، يخشى غيرتهم ليس فقط في صحوه إنما أيضًا في منامه، فهو منبع الوفاء صلى الله عليه وسلم. وهناك ملمح آخر، أن عمر رجل من أهل الجنة، أعد الله له قصره فيها وهو يمشي بين الناس، لكن هل دفع هذا عمر رضي الله عنه للغرور والأبهة والزهو؟ حاشاه، إنها صفات لا تعرف مثله ويتصف بها غيره، فكيف لرجل يخشاه الشيطان أن يتخلل الكبر

أو العجب أو الغرور إلى نفسه، والأحاديث التي ذكر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مناقب عمر كثيرة جدًا، أكتفي منها بهذا القدر لأذهب إلى عمر رضي الله عنه وأرضاه مع الصديق رضي الله عنه، صديق الأمة الأول أبي بكر.

وقد كان الفاروق في عهد الصديق ذراعه الأيمن، والمشير عليه في أغلب أموره، وكان الصديق لا يقطع أمرًا قط إلا بمشورة عمر رضي الله عنهما، ومن ذلك أنه رفض أن تُعطى أرض لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، مع أن الصديق قد أقطعهما إياها، لكنه قال أشهدوا عليكما عمر، فأبى وامتنع عن هذا، فوافقه الصديق. وهذا ليس بالغريب، فهم أخوة يحمل بعضهم حمل بعض ويسد بعضهم عجز بعض، وقد تولى القضاء فترة من الزمن فما كان يأتيه متخاصمان خوفًا من شدته في الحق ومضائه وبطشه بمن يظلم أخاه، وكان الفاروق شاهدًا على كل خلافة أبي بكر، حتى وافته المنية في العام الثالث عشر من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سابعًا: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

هنا يتولى عمر رضي الله عنه المسئولية كخليفة للمسلمين وحاكم على الأمة الإسلامية التي شارك هو في صناعتها، ويروى لنا ابن كثير في البداية والنهاية ما حدث في توليه أمر المسلمين فيقول:

«لما اشتد المرض بأبي بكر جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنني إلا ميت لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياتي كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي، وتشاور الصحابة رضي الله عنهم، وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك (أي قل لنا أنت رأيك ونحن ننزل عليه) قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده (انظر الأصلح لله ولدينه ولعباده)، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر: وإن.

فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه. ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبر به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله. فقال عثمان: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يسِر خير من الذي يُعلن (سريرته خير من علانيته)، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعددًا من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأي واحد في عمر، إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقال لأبي بكر: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، أبالله تخوفونني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول اللهم استخلفت عليهم خير أهلك. وبين لهم سبب غلظة عمر وشدته، فقال: ذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما عليه. ثم كتب

عهدًا مكتوبًا يُقرأ على الناس في المدينة وفي الأمصار عن طريق أمراء الأجناد، فكان نص العهد: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي، وإياكم خيرًا، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه (يقصد عمر رضي الله عنه)، وإن بدل فلكل امرئ
ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٧].

هنا ينتهي كلام ابن كثير رحمه الله، ونرى في هذا الأمر عدة ملامح اخترت منها.

الملمح الأول: كيف كان الصديق رضي الله عنه مستشيرًا لمن حوله، لا يأبه برأيه ولا يعتد بكلامه فقط، بل يسأل أهل الحل والعقد، ويسألهم فرادى حتى لا يتحرج رجل منهم من ذكر ما في نفسه، إنهم من الصفاء والنقاء بحيث إنهم يتكلمون عن إخوانهم

أفضل مما لو تكلموا على أنفسهم، ربما لو سألت واحدًا فيهم عن نفسه لجلدها جلدًا، فهم يرون الخير في إخوانهم ويدينون أنفسهم، وهذا ما فقدناه في عالم اليوم، أن صرنا لا نبصر فقط فيمن حولنا غير العيوب والآثام، ونذكر في أنفسنا كل ممدح، حتى ولو لم يكن فينا، ونشير لأخطاء غيرنا بإصبع، متناسين أن هناك ثلاثة أصابع أخرى تُشير إلينا ولكن بمثل هؤلاء تُبنى الأمم وتُقام الدول ويسود الناس أهل زمانهم، بل ويسودون عبر التاريخ، ليتنا ننشغل بأنفسنا ونرى الخير في إخواننا، فننشغل بمحاسنهم عن مساوئهم، وسنرى حينها مجتمعًا صحيًا يطمئن فيه كل إنسان على نفسه، لا ضغينة فيه ولا تحاقد ولا تدابر.

الملمح الثاني: أن عمر كان فظًا غليظًا، ولكن في الحق فقط وعلى الباغين، ولكن هينًا لينًا كالنسيم مع الضعفاء وأصحاب الحقوق، ولذلك خشى طلحة بن عبيد الله من أمر تولي عمر كما ذكر لنا ابن الأثير رحمه الله، ولكن أبا بكر أفهمه ما سبب هذه الغلظة، وكيف أنه يصنع توازنًا في الإدارة وسياسة الناس، وهذا التوازن هو ما

تسعى إليه الأمم حاليًا في علوم السياسة والإدارة، كيف فطن هؤلاء لمثل هذا الفن المتقدم جدًا الذي ما وُضعت أصوله إلى منذ قرنين، فنحن أمام أناس على قدر عالٍ جدًا من النقاء والشفافية والعلاقة الربانية، التي تجعلهم على صلة بربهم وتجردهم من الأنا حتى تصير أمامهم مصلحة الأمة فوق كل مصلحة، وحتى يصيروا على بصيرة من ربهم تُنير لهم كل طريق وتُزيل عنهم كل معيق، فقد كان الصديق لينًا هينًا كطبيعته إلا في الحق، فهو مع المرتدين كان كالأسد الهصور والنمر الجسور، قال: «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يأدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، متى استمسك السيف في يدي ولو قاتلتهم وحدي». فهذا هو الصديق فيما يتعلق بدين ربنا، أما فيما بين الناس فقد كان هينًا لينًا سهلاً معهم، ولذلك احتاج الأمر لغلظة كغلظة الفاروق حتى يسير الناس على الطريق المستقيم فإن من أمِن العقوبة أساء الأدب.

الملمح الثالث: في نظرى في منتهى الخطورة والأهمية، ألا وهو أن رسول الله مات ولم يستخلف على المسلمين خليفة من بعده، إنما

ترك الأمر لهم، نعم كل الإشارات كانت تُشير إلى أبي بكر لكنه لم ينطق بلسانه «خليفتكم بعدي أبو بكر"، وإنما تركه لأهل الحل والعقد من أكابر أصحابه، ليقع الاختيار على أبي بكر كما حدث في سقيفة بني ساعدة، ولكن الغريب أن أبا بكر - ذلك الذي كان يلزم غرز رسول الله ولا يترك موضعًا إلا تأسى فيه بالحبيب - إذا به يستخلف على الناس ويفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل ما فعله الصديق كان بدعة أو أنه أحدث في الدين وحاشاه أم ماذا؟!

إن الصديق يعلم أن أمور إدارة الدنيا مآلها إلى الاجتهاد والنظر، وأن سياسة الناس محط اجتهاد، فقد يكون مقتدى الحال اليوم ليس كما كان على عهد رسول الله، فنسوس حياة الناس بما يتناسب مع عصرهم ومقتضيات حالهم، مع الأخذ في الاعتبار بعدم مخالفة نص شرعي، إن ما فعله أبو بكر كان ليقول للأمة كما قال نبيها "أنتم أعلم بشئون دنياكم"، وأنه من الممكن جدًا أن يكون هناك أمر قد كان يصلح قديماً أدت تطورات الحياة

وتحولات العالم إلى ما يحول بيننا وبين أن نفعله، لذلك لزم علينا النظر فيما ينفع الناس وما يستقيم به امرهم، ولو اضطررنا لفعل شيء لم يفعله رسول الله، ولكن أيضًا بضابط شرعي ألا يخالف نصًا. لذلك أرى هذا الملمح من أهم الملامح وأشدها خطورة، وهي دعوة إلى إعمال العقل في نواحي حياتنا فهمًا وتحديثًا وتأصيلاً، وليس الأمر فقط كما جاء ممن قبلنا، بل نجتهد فيها بغية صلاح أمتنا ونهضتها.

ثامنًا: العدل العمري

لقد ظل الفاروق عمر رضي الله عنه وأرضاه ملهم الأمم والشعوب عبر الأزمان وفي شتى الأصقاع إلى العدل والحق والمساواة، فكلما ذُكر الفاروق اشرأبت الأعناق لتسمع مزيدًا من عدل أبي حفص وتعرف غيضًا من فيض الفاروق وعدله، إن كل الأمم التي عانت مرارة الظلم ووحشة الجور وبؤس التهميش لتتوق إلى الفاروق حاكمًا ومعلمًا ومربيًا ومؤدبًا، يحكم بينهم بالعدل والإحسان، ولا فضل عنده لكبير أو صغير أو قوي أو

ضعيف إلا بالتقوى والعمل الصالح، والجميع أمام شرع الله سواء كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بتقوى الله عز وجل، ولذلك حُفر اسم عمر في كل القلوب الباحثة عن الحرية والعدل والمساواة، وإليكم قليل من كثير من عدل الفاروق.

أخرج الإمام مالك من طريق سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختصم إليه مسلم ويهودي، فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق. انظروا إلى الفاروق لا يميز بين مسلم وغير مسلم، إنما الجميع من رعيته وتحت إمرته، وهو مسئول عنهم أمام الله جل وعلا، فحقوق العباد الجميع فيها سواء، أما ما جاء فيه نص فهو ملزم به، وهذا هو الضامن للأمم حتى تستقر في بنيانها، فإن الامم التي تنعم بالمساواة يكون عوامل الاندماج والامتزاج بين أهلها كبيرة جدًا، واللحمة بينهم لا انفصام لها، وبذلك يُبدع الناس في بلادهم ويطورونها ويبذلون في سبيلها الغالي والنفيس، أما الأمم التي فيها الناس

متفاوتون، بل ومنهم من لا حقوق له أصلاً، فهذه الأمم مآلها إلى الزوال، فهي تملك مقومات تفكيكها بين طياتها.

وكان رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه في المواسم، فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس، إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم (يعني يأخذوا من حقوقكم)، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم (يعدلوا بينكم)، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد، قام فقال: يا أمير المؤمنين، إن عاملك ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سُنّة يُأخذ بها من بعدك. فقال: أنا لا أُقيد، وقد رأيت رسول الله يُقيد من نفسه (يعني تطلب مني ألا أقتص لهذا وقد رأيت رسول الله يقتص من نفسه؟). قال عمرو بن العاص: فدعنا فلنرضه. قال: دونكم فأرضوه. فافتدى منه بمائتي دينار، كل سوط بدينارين، ولو لم يُرضوه لأقاده رضي الله عنه.

انظر إلى عمر رضي الله عنه، ذلك النبيل الذي عزّ مثله في التاريخ، فهو لا يرى ميزة لواليه ولا عامله على الناس، إنما العدل والعدل فقط هو ما يُميز بين الناس عنده، فلو لم يسترضِ ذلك الوالي هذا الرجل لأخذ عمر الحق منه واقتاد منه أمام الناس، فهؤلاء لم يكونوا يعرفون كلمة مقيتة تسللت إلى مجتماعتنا العربية في هذه الأيام، وهي كلمة «ألا تدري مع من تتحدث؟»، فلتكن أخي من تكن، ولكن الجميع أمام سلطان الله سواء، فبهذا فقط تكون الأمم في صحة وعافية، لا تمييز بين أفرادها ولا تمييز بين حاكم ومحكوم، تلك والله المدينة الفاضلة. وإليك مثال آخر:

يروي لنا الأستاذ محمد باكريم في كتابه «وسطية أهل السنة بين الفرق» أنه جاء رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً:

يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم. قال عذت معاذًا. قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو رضي الله عنهما

يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه. فقدم عمرو، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه. ثم قال عمر للمصري: اصنع على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني.

انظر أخي يرحمك الله إلى العدل يمشي على قدمين، إلى من تجرد لله جل وعلا. إن فقه القدوم على الله جل وعلا كان بالغ الأثر في حياة عمر، كما قال الدكتور الصلابي، ولكن تأمل معي هذه الأيقونة التي سطرتها الدنيا في مقلات أعينها وحفرتها في قلوبها، تلك التميمة التي ذكرها الفاروق فهو يقول "مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟»، يعلنها الفاروق مدوية في وجه كل ظالم متجبر يبطش بخلق الله ويستعبد الناس، فمنذ متى

تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، ليتنا بقيت فينا هذه الكلمات بعد الفاروق، لما كان ما كان من أمر المسلمين بعده.

وفي عام أصاب الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سنة (جدب) بالمدينة وما حولها، فكانت الريح تأتى بتراب كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة، فآلى (حلف) عمر ألا يذوق سمنًا ولا لبنًا ولا لحمًا حتى يحي الناس من أول الحياء (يعنى يطعم الناس منه أولاً)، فقدمت السوق عُكَّة من سمن، ووطب من لبن، فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن، وعكة من سمن، فابتعناهما (اشتريناها) بأربعين، فقال عمر: أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافًا. وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما مسهم؟

إنه يرفض أن يأكل من السمن ويشرب من اللبن وقد علم أن الناس قد اشتروا منهما، ولكنه رأى أن ثمنهما غالٍ، فهو لا يأكل إسرافًا أبدًا، فأمر غلامه بالتصدق بهما، ولكن السؤال الذي

طرحة عمر على نفسه، ليت كل حكام المسلمين يضعونه نصب أعينهم: «كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما مسهم»، كيف أدرك جوعهم إذا لم أجع مثلهم، كيف أشبع أنا وأعيش في قصور شماء وأترك رعيتي تبحث بين الثرى على طعام تأباه الحيوانات فرارًا من الموت، إن أكثر من يتحدث صدقًا عن الفقراء هو من عاش فقرهم ورأى ما هم عليه، وليس من لبس الحرير وعاش في دعة وخمول، فلذلك تشعر الشعوب بمن يشعر بمعاناتها وتصبر عليه وترى فيه الأمل والهدف المنشود.

وكان هذا موقف أمير المؤمنين عام القحط الذي سُمي عام الرمادة، ولم يختلف موقفه عام الغلاء، فقد أصاب الناس سنة غلاء، فغلا السمن، فكان عمر يأكل الزيت، فتُقرقر بطنه (تُخرج صوتًا)، فيقول: قرقر ما شئت، فوالله لا تأكل السمن حتى يأكله الناس.

إنه يعيش كما يعيش رعيته، لا فرق بينه وبينهم، إن لم يكن منهم من هو أيسر منه وأحسن حالاً، هكذا كانت حياته وهكذا كان نظره نحو الخلافة، تكليفًا وهمًا وغمًا وحملاً، وليس تشريفًا ولا

تكريماً ولا مكانة، إنما هي أمانة ويوم القيامة خزي وندامة، هو يفعل بنفسه ما يفعل بفقراء المسلمين، لا يرى لنفسه عليهم مزية، وإليك مزيدًا من عدله:

ذكر ابن الجوزي في مناقب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عن ابن عباس أنه قال: قدم عمر بن الخطاب حاجًا، فصنع له صفوان بن أمية طعامًا، فجاؤوا بجفنة يحملها أربعة، فوُضعت بين يدي القوم يأكلون، وقام الخُدّام، فقال عمر: أترغبونه عنهم؟ فقال سفيان بن عبد الله: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنا نستأثر عليهم (نأخذه نحن لأنفسنا، فهذا طعام الأمراء)، فغضب عمر غضبًا شديدًا، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خُدّامهم، فعل الله بهم وفعل. ثم قال للخُدّام: اجلسوا فكلوا. فقعد الخُدّام يأكلون، ولم يأكل أمير المؤمنين.

إنه ينظر إلى الخدم وإلى الإماء والعبيد، ويعلم أنه مسئول عنهم أمام الله، لا يقول لنفسه هذا طعام الولاة والأمراء، وإنما كان يرى نفسه خادمًا للناس لا سيدًا عليهم، مؤتمن منهم وأمينًا

عليهم، وهو يعلم أن ذلك لا جزاء له في الدنيا، إنما الجزاء يكون في الآخرة من رب السموات والأرض.

وقد صح عنه أنه رضي الله عنه لم يأكل من الطعام ما لا يتيسر لجميع المسلمين، فقد كان يصوم الدهر، فكان زمن الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثُرّد بالزيت، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا (ناقة)، فأطعمها الناس وغرفوا له طيبها، فأُتي به (أتوا له بأفضل جزء منها)، فإذا قديد من سنام ومن كبد، فقال: أنى هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرناها اليوم. فقال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها، وأطعمت الناس كرادسها (أسوء شيء في الذبيحة)، ارفع هذه الجفنة، هات غير هذا الطعام. فأُتي بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز.

ويروي لنا ابن الجوزى أيضًا في المناقب أنه عندما قدم عتبة بن فرقد أذربيجان أتى بالخبيص، فلما أكله وجد شيئًا حلوًا طيبًا، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا، فجعل له سفطين عظيمين (إنائين كبيرين)، ثم حملهما على بعير مع رجلين، فسرّح

بهما إلى عمر. فلما قدما عليه فتحهما، فقال: أي شيء هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه، فإذا هو شيء حلو. فقال: أكُل المسلمين يشبع من هذا في رحله؟ قال: لا. قال: أما لا، فارددهما. ثم كتب إليه: أما بعد، فإنه ليس من كد أبيك ولا من كد أمك. أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك.

وها هي الدنيا جميعها تُردد مع الفاروق جملته الخالدة: أشبع الناس مما تشبع به في رحلك.

وذات يوم عندما جاءه مال، فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يُزاحم الناس، حتى خلص إليه، فعلاه بالدِّرة وقال إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أُعلمك أن سلطان الله لن يهابك.

ولك أن تتخيل أن سعد بن أبي وقاص هذا خال رسول الله ومن العشرة المبشرين بالجنة، وكان يومًا ربع الإسلام، واعدد في مناقب سعد ما شئت، لكنه أمام أمير المؤمنين مثل باقي الناس، الجميع سواء أمام سلطان الله في الأرض، فهو لا يهاب أحدًا.

ويذكر لنا الأستاذ يحيى اليحيى في كتابه الماتع «الخلافة الراشدة والدولة الأموية»: ويروي

ابن الجوزي أن عمرو بن العاص أقام حد الخمر على عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب، يوم كان عامله على مصر. ومن المألوف أن يقام الحد في الساحة العامة للمدينة، لتتحقق من ذلك العبرة للجمهور، غير أن عمرو بن العاص أقام الحد على ابن الخليفة في البيت، فلما بلغ الخبر عمر، كتب إلى عمرو ابن العاص: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص: عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك عليّ، وخلاف عهدي. أما إني قد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هو خير منك، واخترتك لجدالك عني، وإنفاذ عهدي، فأراك تلوثت بما قد تلوثت، فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك، تضرب عبد الرحمن في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين. ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه،

فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع، وقد تم إحضاره إلى المدينة وضربه الحد جهرًا. روى ذلك ابن سعد وأشار إليه ابن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عمر مطولاً. إنك أمام رجل يعرف العدل الحقيقي ويعرف كيف تقوم الامم، إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ويُهلك الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله.

وعلى هذا فنحن أمام رجل فذ وعبقرية ندر أن تلقاها، فقد عقمت النساء أن يلدن مثله رضي الله عنه.

والحديث عن العدل العمرى يطول بنا، ونحن لسنا كما ذكرنا في معرض لتفاصيل حياته رضي الله عنه، وإلا فلن يتسع المقام للكلام عنه، ولذلك أختم الكلام عن العدل العمري بقصته رضي الله عنه وأرضاه مع جبلة بن الأيهم، وإليكم القصة يرويها لنا ابن خلدون نقلاً عن نظام الحكم للقاسمي أنه قال: «كان جبلة آخر أمراء بني غسان من قبل هرقل، وكان الغساسنة

يعيشون في الشام تحت إمرة دولة الروم، وكان الروم يحرضونهم دائمًا على غزو الجزيرة العربية، وخاصة بعد نزول الإسلام. ولما انتشرت الفتوحات الإسلامية، وتوالت انتصارات المسلمين على الروم، أخذت القبائل العربية في الشام تُعلن إسلامها، وبدا للأمير الغساني أن يدخل الإسلام هو أيضًا، فأسلم وأسلم ذووه معه. وكتب إلى الفاروق يستأذنه في القدوم إلى المدينة، ففرح عمر بإسلامه وقدومه، فجاء إلى المدينة وأقام بها زمنًا والفاروق يرعاه ويرحب به، ثم بدا له أن يخرج إلى الحج، وفي أثناء طوافه بالبيت الحرام وطئ إزاره رجل من بني فزارة فحله (أي حل إزاره)، فغضب الأمير الغساني لذلك - وهو حديث عهد بالإسلام - فلطمه لطمة قاسية هشمت أنفه، وأسرع الفزاري إلى أمير المؤمنين يشكو إليه ما حلّ به، وأرسل الفاروق إلى جبلة يدعوه إليه، ثم سأله فأقر بما حدث، فقال له عمر: ماذا دعاك يا جبلة لأن تظلم أخاك هذا فتُهشم أنفه؟

فأجاب بأنه قد ترفق كثيرًا بهذا البدوي (وأنه لولا حرمة البيت

الحرام لأخذت الذي فيه عيناه).

فقال له عمر: لقد أقررت، فإما أن تُرضي الرجل وإما أن أقتص له منك.

وزادت دهشة جبلة بن الأيهم لكل هذا الذي يجري وقال: وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك؟

فقال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما.

فقال الأمير الغساني: لقد ظننت يا أمير المؤمنين أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية.

فقال الفاروق: دع عنك هذا، فإنك إن لم تُرضِ الرجل اقتصصت له منك.

فقال جبلة: إذن أتنصر.

فقال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك، لأنك أسلمت، فإن ارتددت قتلتك.

وهنا أدرك جبلة أن الجدال لا فائدة منه، وأن المراوغة مع الفاروق لن تُجدي، فطلب من الفاروق أن يُمهله ليفكر في الأمر، فأذن له

عمر بالانصراف، وفكر جبلة بن الأيهم ووصل إلى قرار، وكان غير موفق في قراره، فقد آثر أن يغادر مكة هو وقومه في جنح الظلام وفر إلى القسطنطينية، فوصل إليها متنصرًا، وندم بعد ذلك على هذا القرار أشد الندم».

من هذه الرواية نتلمس طريق العدل والمساواة وإقرار الحق لصاحب الحق، وأنك وإن كنت أميرًا أو ملكًا أو من أهل السبق أو من عامة الناس أو من دهمائهم؛ فأنتم أمام سلطان الله في أرضه سواء بسواء، لا تفريق بينكم ولا تمييز إلا بما لك من حق، فلن يعصمك جاهك ولا ملكك ولا مالك من توقيع العقوبة عليك إذا أصبت هذا الجرم والذنب، وإنما أن تكون مواطنًا صالحًا يعصم مالك ودماءك ويكفل لك كل الحقوق في دولة العدل، دولة عمر.

تاسعًا: الفاروق فاتحًا

وفي هذا الجزء سنتناول جزءًا بسيطًا من فتوحات عمر رضي الله عنه، وها هو الفتى الذي كان يرعى إبل الخطاب إذا به يقف

شامخًا يحكم نصف الدنيا، فلما أذل نفسه لله أذل الله له الجبابرة، فإليكم قليل من كثير من فتوحات الفاروق، ولكن على عجالة:

- وقعة النمارق ١٣هـ/ وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيد الثقفي.

- معركة السّقّاطية بكَسْكَر ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيد الثقفي.

- معركة بارُوسْما سنة ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيد الثقفي.

- وقعة جسْر أبي عبيد ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتصر فيها الفرس بقيادة ذي الحاجب بهمن جاذويه.

- وقعة البُوَيب ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني.

- معركة القادسية ١٥هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص.

- عبور النهر وفتح المدائن ١٦هـ، وكانت بين المسلمين والفرس،

وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص.

- موقعة جلولاء ١٦هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص.

- فتح رامهرمز ١٦هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص.

- فتح مدينة جُنْدَيْ سابو ٢١هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبو سبرة بن أبي رهم.

- معركة ناهاوند (فتح الفتحوح) ٢١هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن واستُشهد فيها رحمه الله.

- فتح همَذَان ثانية ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة نعيم بن مقرن.

- فتح الرَّيّ سنة ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة نعيم بن مقرن.

- فتح قُومِسْى وجُرْجَان سنة ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين

والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سويد بن مقرن.

- فتح أذربيجان سنة ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة بُكير بن عبد الله.

- فتح الباب سنة ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سراقة بن عمرو.

- غزو خُراسان سنة ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة الأحنف بن قيس.

- فتح اصطخر سنة ٢٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة الحكمُ بن أبي العاص.

- فتح فساودار بجرد سنة ٢٣هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة سارية بن زُنَيم.

هذه أخي الكريم هي فتوحات الفاروق في فارس والمشرق فقط، وإليك فتوحات مصر والشام وليبيا، وهي:

- فتح دمشق سنة ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد.

- وقعة فِحْل سنة ١٣هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه شرحبيل بن حسنة.

- فتح الأردن ١٥هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة شرحبيل بن حسنة.

- وقعة حِمْص سنة ١٥هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

- وقعة قنَّسرين سنة ١٥هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة خالد بن الوليد.

- وقعة قِيسارية سنة ١٥هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة معاوية بن أبي سفيان.

- فتح القدس ١٦هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، والفاروق الآن في المسجد الأقصى.

- فتح الجزيرة ١٧هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح والقعقاع بن عمرو التميمي.

- فتح مصر ٢٠هـ، وكانت بين المسلمين والـروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص.

- فتح برقة وطرابلس ٢٢هـ، وكانت بين المسلمين والروم، وانتهت بانتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص.

ولعلك هنا أخي الكريم تنظر إلى هذا الكم المهول من المعارك والفتوحات الإسلامية التي خلدها التاريخ وكتبها بحروف من نور، بل وحُفرت في ذاكرة الأيام بدماء شهداء أبرار قدموا للإنسانية أروع معاني البطولة وأنبل آيات البذل والعمل لله وحده والجهاد في سبيله، فأي فصيلة من البشر هؤلاء العظماء الذين غيروا وجه التاريخ، ليُزيلوا في أقل من ٢٠ سنة إمبراطوريتين من أعتى الإمبراطوريات وأقواها، أمم حكمت العالم آلاف السنين تزول أمام هؤالاء الأشاوس المغاوير، الذين لما أخضعوا جباههم لربهم أخضع الله لهم الأمم وأذل لهم الرقاب، وأهال أمامهم الجبال، وأنت ترى الفاروق وما أحدث في هذه الأمة في فترة عقم الزمان أن يرصد مثلها، ففي عشر سنين يُزيل مملكة

الفرس إلى لا رجعة، ومعها مملكة الروم إلى اندحار وخوار، وها هو يُعلنها مدوية في الدنيا جميعها «الله أكبر»، تلك الكلمة التي عاش من أجلها ونُسجت منها أحلامه وأمانيه، وها هو الفاروق وقد أحدث في الأمة ما لم يُحدثه أحد بعده، فبالله من أنت أيها الرجل العربي القرشي، في أي جامعة تخرجت وعلى يد من تعلمت وكيف صرت هكذا؟ والإجابة أنه الفاروق ملهم الأمة ومحدثها، وتلميذ الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تخرج عمر في مدرسة النبوة بامتياز وجدارة واستحقاق، تعلم من منبع الوحي ورشف من رحيق القرآن والذكر، كان يتناوب على رسول الله يتعلم منه، بل ولا يتركه حتى لو شُغل لأمر دنياه، فإنه يجعل صاحبه وجاره يتعلم من رسول الله، ويأتي إليه يحدثه بما سمع منه، لم يغب عن الحبيب لحظة واحدة، ولو فارقه بجسده ظلت روحه تحوم حول محمد صلى الله عليه وسلم، تحوم حول معين الوحي ومنهل العلم الرباني، ولعلك أخي الكريم تسأل نفسك: ومع كل هذه الفتوحات والمعارك، فهل الإسلام قد

انتشر بحد السيف؟

والإجابة أخي الكريم بالقطع لا، فإن الإسلام لم يكن أبدًا ليُحارب شعوبًا وأناسًا، إنما كان يحارب أنظمة استبدادية أذاقت العالم ويلات القمع والبطش والترهيب والاعتقال والقتل، بل ولا أُخفيك أن دموية هذه الأمم فاقت تصورات البشر، فكم من إنسان رموه للأسود الجائعة حتى يشاهدوا مصارعة كتلك التي في روما، وكم من أمم أُبيدت بكاملها وما أبقوا منها إنسانًا واحدًا، إنما كان صنيع أصحاب محمد هو أنهم يطلبون أن يُخلى بينهم وبين الناس لنشر دين ربهم، فهم مؤمنون أن الله ابتعثهم ليُخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، هم يؤمنون أنهم يُقاتلون من أجل رسالة سامية ونبيلة خُلق من أجلها البشر، ألا وهي تحقيق العبودية لله وحده، فمن أراد أن يدخل في دينهم فهو منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى تُرك وشأنه وعبادته وأمواله وضياعه، وهو في أمان من حكم المسلمين، إنهم يُعبّدون الناس لربهم، لا يملكون رقاب أحد

ولا يقمعون أحدًا، ولا يُهلكون حرثًا ولا نسلاً، فما أنبل هؤلاء وما أجل صنيعم، وليس أدل من أن أكبر بلاد آسيا الصغرى دخلت الإسلام على يد التجار، لم يذهب إليها مقاتل واحد، إنما لما خالطت تجار المسلمين دخلت في دين الله طواعية مختارة، غير مجبرة ولا مقادة بسيف أو درع.

عاشرًا: المؤامرة الكبرى

وهنا ننتقل إلى مرحلة في غاية الخطورة في تاريخ هذا البطل النبيل، إنها المؤامرة التي حيكت من أجل إيقاف هذا المارد الجبار، الذي خرج من الجزيرة العربية ليهيل الأمم أمامه وكأنها عهن منفوش ويذرها قاعًا صفصفًا فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، إنه عمر وقد دانت له الدنيا ووضع تحت أقدامه خزائن كسرى وممالك هرقل وكنوز المقوقس، صار العالم ينظر إلى هذا الذي أضاع حلم الفرس بل وأفنى إمبراطوريتهم، وهنا بدأت المؤامرة على هذه الأمة الفتية، فصار لزامًا على أعدائها بذل الغالي والنفيس من أجل تفتيت هذه الأمة وإغراقها في فتن لا تنتهي أبدًا، وبدأت

المؤامرة الكبرى على أمتنا منذ التخطيط للتخلص أولاً من الباب الذي بيننا وبين الفتن، ألا وهو عمر رضي الله عنه، كما أخبرنا حذيفة بن اليمان، وها هو الحديث يرويه لنا البخارى رحمه الله، ففي صحيحه قال: «قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كنّا عند بن الخطاب رضي الله عنه. فقال أيكم يحفظ حديث رسول الله في الفتنة؟ فقلت: أنا أحفظه كما قال! قال: هات، لله أبوك، إنك لجريء. قلت: سمعت رسول الله يقول: فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال عمر: ليس هذا أريد. إنما أريد الفتن التي تموج كموج البحر! قلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها بابًا مغلقًا!! قال: فيكسر الباب أو يفتح؟ قلت: لا، بل يُكسر!! قال: ذاك أحرى ألا يغلق أبدًا، حتى قيام الساعة!! قال أبو وائل الراوي عن حذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال حذيفة: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة! إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. قال أبو وائل: فهبنا أن

نسأل حذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سل حذيفة من الباب؟ فقال مسروق لحذيفة: من الباب؟ قال حذيفة: هو عمر».

إنه عمر الباب بيننا وبين الفتن، وحين يموت هذا العملاق فإن باب الفتن يُكسر، أي لا صلاح له ولا إغلاق له أبدًا فأي رجل هذا الذي يُغلق باب الفتنة على أمة بأسرها؟ وهنا كان لزامًا على من يضمرون لهذه الأمة شرًا، ومن علموا أن لا حيلة لهم في مواجهتها بالسيف أن يدبروا لها الحيل والمكيدة والخدع الدنيئة للتخلص من هذا المارد وكسر باب الفتن أمام هذه الأمة، والقصة تبدأ عندما أسر المسلمون الهرمزان، وهو قائد جيوش الفرس، وكان فيهم شريفًا كبير القدر عظيم المهابة، يُرجع إليه بعد يزدجر ملكهم، وقد أسره المسلمون وهو في قلعة عند فتحهم تستر، وقَبِل هو أن يذهب معهم وينزل على حكم عمر بن الخطاب، بعد أن قتل منهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور، ويحكي لنا ابن جرير الطبري رحمه الله هذا الحدث فيقول: «أرسل أبو سَبرة بن أبي رُهم قائد المسلمين في تلك المعارك وفدًا

إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وأرسل معهم الهرمزان، حتى إذا دخلوا المدينة هيئوا الهرمزان في هيئته، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجًا يُدعى الأذين مكللاً بالياقوت وعليه حليته، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه، فسألوا عنه، فقيل لهم: جلس في المسجد لوَفد قدموا عليه من الكوفة. فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروه، فلما انصرفوا مرُّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهم: ما تلدُّدكم (أي لماذا تلتفتون يمينًا ويسارًا)؟ أتريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد، متوسدًا برنسه. وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس. فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام. فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدِّرة في يده معلقة، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا. وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه، وأصغى الهرمزان إلى

الوفد فقال: أين حرسه وحُجَّابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان. قال: فينبغي له أن يكون نبيًا. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسًا، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فتأمله وتأمل ما عليه، وقال: أعوذ بالله من النار. واستعان الله وقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تُبطرنكم الدنيا فإنها غرارة. فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكَّلمه. فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء. فرُمي عنه بكل شيء عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبًا صفيقًا، فقال عمر: هيه يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلَّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا. ثم قال عمر: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال:

أخاف أن تقتلتني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك. واستسقى ماءً (طلب أن يشرب الماء)، فأُتي به في قدح غليظ، فقال: لو متُّ عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا. فأُتي به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجف، وقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه. فأكفأه (قلب الإناء وما فيه)، فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش. فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به. فقال له عمر: إني قاتلك. قال: قد أمنتني. فقال: كذبت. فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد أمنته. قال: ويحك يا أنس، أنا أُؤمِّن قاتل مجزأة والبراء؟ والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك. قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه. وقال له من حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم. فأسلم، ففرض له على ألفين، وأنزله المدينة».

والمتامل إلى هذه الرواية والمدقق فيها يُبصر كيف كان الهرمزان على حيلة ومكر شديدين، فهو يعلم طبائع المسلمين ومروءة

العرب وأن المسلمين عند عقودهم، ولذلك أبي أن يشرب الماء وإنما استخدمه كوسيلة لينجو من القتل، وانظر من الذي جعل له الحق وأقام الحجة على أمير المؤمنين، إنه أنس بن مالك أخو البراء بن مالك الذي قتله هذا المخادع، وإنما نحن أمة العدل والقسط والإحسان ولو على أعدائنا، لكن الحق عندنا أحق أن يُتّبع ولو كان ذا قربى، ولذلك هو وهو أكثر من يريد قتله لأنه قتل أخاه يقول لا يا أمير المؤمنين، فقد أمنته، ويضع الحق على أمير المؤمنين، أي نبل هذا وأي ديانة تلك التي تُحرك هؤلاء الأفذاذ العباقرة؟ كيف لهم كل هذا العدل والقسط حتى مع من أجرم في حقهم، وهنا نلمح أن الهرمزان قد أسلم خوفًا من أن يُقتل، ولذلك ظل في المدينة يدبر المكائد ويضع الخطط ليوم يأتي يتخلص فيه من الفاروق، حتى كان هذا اليوم الذي يقصه علينا البخاري في صحيحه: عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه أنه قال: «إني لقائم (أي أقف في الصف للصلاة)، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس، غداة أصيب، وكان إذا مرّ بين الصفين

قال استووا، فإذا استووا، تقدّم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر، فسمعته يقول: قتلني – أو أكلني – الكلب، حين طعنه، فطار العلج (المقاتل من المشركين) بسكين ذات طرفين، لا يمرُّ على أحد يمينًا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرْنسًا، فلما ظنّ العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدّمه – للصلاة بالناس – فيمن يلي عمر، فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرُون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال عمر: يا ابن عباس، انظر من قتلني، فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَع (وكان يُلقب بهذا لأنه كان يجيد عدة صناعات، وهو أبو لؤلؤة فيروز المجوسي)، قال: نعم. قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدّعي الإسلام،

قد كنت أنت وأبوك - يريد العباس - وابنه عبد الله تحبّان أن تكثر العلوج بالمدينة. وكان العباس أكثرهم رقيقًا، فقال عبد الله: إن شئت فعلت. أي: إن شئت قَتَلنا. قال: كذبت - أي: أخطأت - بعدما تكلموا بلسانكم، وصلّوا قبلتكم، وحجوا حجّكم. فاحتُمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فأُتي بنبيذ (تمرة نُبذت في ماء، أي نُقعت فيه. كانوا يفعلون ذلك لاستعذاب الماء) فشربه، فخرج من جوفه، ثمّ أتي بلبن فشربه فخرج من جُرْحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه.. وقال: يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليّ من الدَّين. فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر، فأدّه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تفِ أموالهم، فسل في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدّ عني هذا المال، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل، يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل يستأذن عمر بن

الخطاب أن يبقى مع صاحبيه.. فسلّم عبد الله بن عمر، واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السَلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّه به اليوم على نفسي. فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني. فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تُحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إليّ من ذلك.. فإذا أنا قضيت فاحملني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين. قال: فلما قُبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلّم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب. قالت عائشة: أدخلوه. فأُدخل، فوُضع هنالك مع صاحبيه». وجاءت روايات أخرى فصلت بعض الأحداث التي لم تذكرها رواية عمرو بن ميمون: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن عمر رضي الله عنه طُعن في السحر، طعنه

أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان مجوسيًا. وقال أبو رافع

رضي الله عنه: كان أبو لؤلؤة عبدًا للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحـاء (جمع رُحـى)، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم (أي يطلب منه كل يوم ٤ دراهم مقابل أن يدعه يعمل)، فلقي أبو لؤلؤة عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة قد أثقل عليَّ غلتي، فكلِّمه أن يخفف عني. فقال عمر: اتق الله، وأحسن إلى مولاك. ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه، فغضب العبد، وقال: وسع كلهم عدله غيري؟! فأضمر على قتله، فاصطنع خنجرًا له رأسان، وشحذه، وسمّه، ثم أتى به الهُرْمُزان، فقال: كيف ترى هذا؟ قال: أرى أنك لا تضرب به أحدًا إلا قتلته. قال: فتحين أبو لؤلؤة عمر، فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر، وكان عمر إذا أُقيمت الصلاة يتكلم يقول: أقيموا صفوفكم، فقال كما كان يقول: فلما كبَّر، وجأه (أي طعنه) أبو لؤلؤة وجأةً في كتفه، ووجأة في خاصرته، فسقط عمر.

قال عمرو بن ميمون رحمه الله: سمعته لما طعن يقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب: ٣٨].

وقد روى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي بإسناده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت على عمر حين طُعن. فقلت: أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله حين خذله الناس، وقُبض رسول الله وهو عنك راض، ولم يختلف في خلافتك اثنان، وقُتلت شهيدًا. فقال: أعد عليَّ. فأعدت عليه، فقال: والله الذي لا إله غيره لو أن لي ما على الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع».

فالناظر إلى هذه الروايات يُخيل إليه أن أبا لؤلؤة فيروز المجوسي قد فعل ما فعل فقط لأنه طلب من عمر أن يسأل المغيرة بن شعبة أن يخفف عنه الأربعة دراهم، ولكنه رفض، فقال وسع عدله كل الناس إلا أنا، فما أراني إلا قاتله. ولكن هذا قطعًا أمر فيه نظر كبير، خاصة إذا قرأت هذه الرواية التي يرويها لنا ابن الاثير في الكامل: «قال المسور بن مخرمة: خرج عمر بن الخطاب يطوف يومًا في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانيًا، فقال: يا أمير المؤمنين، أعدني على المغيرة بن شعبة، فإن

عليّ خراجًا كثيرًا. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان كل يوم. قال: وأيش صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد. قال: فما أرى خراجك كثيرًا على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت! قال: نعم. قال: فاعمل لي رحى. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب! ثم انصرف عنه. فقال عمر: لقد أوعدني العبد الآن.

ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد فإنك ميت في ثلاث ليالٍ. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة. قال عمر: آلله! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد حليتك وصفتك، وأنك قد فني أجلك. قال: وعمر لا يحس وجعًا! فلما كان الغد جاءه كعب فقال: بقي يومان. فلما كان الغد جاءه كعب فقال: مضى يومان وبقي يوم».

هنا ترى كيف أن أبا لؤلؤة المجوسي قد أعد خطة من قبل للتخلص

من أمير المؤمنين، والعجيب أن كعب الأحبار لم يأتِ لعمر قط بهذه الرواية إلا قبل مقتله بثلاثة أيام، وهذا يثير الشك والريبة، فإذا كان هذا الذي قال في التوراة، أي يعلمه من قبل، فلم لم يخبر به قبلها بأسبوع أو شهر أو سنة؟ ولماذا في هذا التوقيت؟ إنك أمام مجوسي محترق وهو أبو لؤلؤة، كان كلما رأى نساء الفرس في المدينة يقول أكل عمر كبدي، وأمام ملك مخادع، فقد ملكه وصار يُضمر للمسلمين كل العداء ويتحين الفرصة للتخلص من هذه الخلافة برمتها، لأنه يعلم كما ذكر عمر له أن الفرس انتصروا على العرب بتفرق العرب وتشرذمهم، فلذلك أراد أن يفرط عقد الخلافة وينهي هذا الحلم الوليد لدولة الإسلام، وأمام حبر يهودي أعلن إسلامه لكنه كان يُحدث بكلام غريب، حتى إن أغلب روايات الإسرائيليات في تاريخنا الإسلامي إنما هي من طريق كعب الأحبار، أضف إلى هذا جفينة مولى سعد بن أبي وقاص، ذلك النصراني الذي شُوهد كما ذكرت مراجع التاريخ أكثر من مرة مع الهرمزان وأبي لؤلؤة فيروز المجوسي،

وهناك رواية تنص على شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو رجل صالح ثقة، فشهد أنه رأى الهرمزان وفيروز وجفينة النصراني ليلة الحادث يتشاورون، فلما فوجئوا به اضطربوا وسقط منهم خنجرًا له رأسان، وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر أنه نفس الخنجر الذي طُعن به عمر.

فإننا امام مؤامرة شديدة التعقيد، حيكت ضد أمير المؤمنين رضي الله عنه للتخلص منه، وليس أقل من أن الهرمزان ضالع فيها بشكل أساسي، وإنما كان أداة التنفيذ هو أبو لؤلؤة، وهو من طعن الفاروق بكل خسة ودناءة، إن الأمم التي قضى عليها الفاروق سعت بكل ما تملك من عدة وعتاد خسيس إلى إجهاض هذه الأمة والقضاء عليها، وكان أول أجزاء المخطط الذي حيك بنجاح باهر هو قتل أمير المؤمنين عمر، ولكن هنا سؤال يطرح نفسه، أما وقد علمنا أن مقتل أمير المؤمنين جاء من مؤامرة رباعية الأطراف، فيها مجوسي وملك فارسي وحبر يهودي وعبد نصراني، اجتمعوا جميعًا على قتل عمر وتفكيك شمل هذه الأمة

وإدخالها في أتون معارك وتطاحن لا يعلم مداه إلا الله، فقد عمدوا إلى كسر الباب الذي بين هذه الأمة وبين الفتن، وقد كان لهم ما أرادوا، فمنذ موت الفاروق رضي الله عنه دخلت الأمة في معمعة من الفتن والاقتتال الداخلي، أفنى منها خلقًا كثيرًا، وتعطلت مع هذه الفتن حركة الفتوحات فترة كبيرة، وانشغل المسلمون بأنفسهم، ولكن ما هي حقيقة أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة المجوسي؟

فيما جاء في قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان وجفينة؛ قال الإمام مالك: قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان وجفينة قبل أن يستقيم الناس على أحد (قبل أن يختاروا خليفة)، فكان قد تكلم الناس في ذلك، فكان عثمان يقول: لا يُقتل أبوه اليوم ويُقتل هذا غدًا (يعني يُقتل أبوه اليوم ونقتل ولده غدًا)، فتكلم في أمره، فأرسل (أي عفا عنه عثمان بعد دفع دية القتلى)، فقيل لمالك: فعثمان أرسله؟ فقال: لا، أرسل قبل أن يلي.

هذه الرواية توضح لنا أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان وجفينة

وابنة أبي لؤلؤة المجوسي، ولكن عثمان أبى أن يقيم عليه الحد، إنما قبل منه الدية في القتلى، والاختلاف هنا هل فعل عثمان ذلك قبل تولي الأمر أم بعده، وهنا نسأل أنفسنا: هل لو كان هذا قبل تولي عثمان الأمر، هل كان له أن يقبل دية أو يرفضها؟ والإجابة لا، فلا يستقيم هذا الكلام إلا لو كان عثمان هو ولي الأمر وصار أمير المؤمنين، حتى يكون له قبول الدية أو عدمها، ويعضد ذلك الرأي الروايات المقبلة.

قال محمد بن رشد: حكى ابن عبد البر في كتاب الصحابة عن الحسن أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان بعد أن أسلم وعفا عنه عثمان، فلما ولي علي (صار علي أمير المؤمنين) خشيه على نفسه، فهرب إلى معاوية، فقُتل بصفين. قال ابن عبد البر: وقصته في قتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة فيها اضطراب. وهذا الذي قاله ابن عبد البر من أن عثمان عفا عنه هو الذي يدل عليه قوله في الرواية: فكان عثمان يقول: لا يُقتل أبوه اليوم ويُقتل هذا غدًا. ومعنى عفوه عنه أنه جعل ذلك دية.

هذه الرواية لابن عبد البر تُبين أن عثمان قبل الدية من عبيد الله، وذلك بعد توليه الخلافة، ولكنه لما جاء علي بن أبي طالب للخلافة خشى عبيد الله على نفسه من أن يقتص منه علي، فهرب إلى معاوية وقاتل معه في صفين، وهذا ما سنعرض إليه في الفصول القادمة إن شاء الله.

كذلك وقع في مصنف عبد الرزاق من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب، أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال حين قُتل عمر: انتهيت إلى الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة وهم بحي فبغتهم، فثاروا وسقط من بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه. فقال عبد الرحمن: فانظروا بما قُتل به عمر. فنظروا فوجدوه خنجرًا على النعت الذي نعت عبد الرحمن. قال: فخرج عبيد الله بن عمر مشتملاً على السيف، حتى أتى الهرمزان فقال: اصحبني ننظر إلى فرس. وكان الهرمزان بصيرًا بالخيل، فخرج يمشي بين يديه، فعلاه عبيد الله بالسيف، فلما وجد حر السيف قال: لا إله إلا الله. فقتله. ثم أتى جفينة، وكان نصرانيًا، فدعاه، فلما أشرف له علاه بالسيف

فصلّب بين عينيه، ثم أتى ابنة أبي لؤلؤة، جارية صغيرة تدّعي الإسلام، فقتلها، فأظلمت المدينة على أهلها.

ثم أقبل بالسيف صلتًا في يده وهو يقول: والله لا أترك في المدينة شيئًا إلا قتلته وغيرهم. كأنه يعرض بناس من المهاجرين، فجعلوا يقولون له: ألقِ السيف ويأبى، ويهابونه أن يقربوا منه، حتى أتاه عمرو بن العاص فقال: أعطني السيف يا ابن أخي. فأعطاه إياه. ثم ثار إليه عثمان، فأخذ برأسه فتناصبا حتى حجز الناس بينهما (أي تعاركا)، ثم ثار إليه سعد بن أبي وقاص، فتناصبا حتى حجز الناس بينهما. فلما ولي عثمان قال: أشيروا عليّ في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق. يعني عبيد الله بن عمر، فأشار إليه المهاجرون أن يقتله (ومن بين هؤلاء علي بن أبي طالب)، وقال جماعة من الناس: أقُتل عمر أمس، وتريدون أن تُتبعوا به ابنه اليوم؟ أبعد الله الهرمزان وجفينة. قال: فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الأمر لك ولك على الناس من سلطان، إنما كان هذا الأمر ولا

سلطان لك، فاصفح عنه يا أمير المؤمنين. قال: فتفرق الناس على خطبة عمرو، وودى عثمان الرجلين والجارية (دفع الدية).

هذه الرواية توضح لنا سياقًا مشبعًا لما حدث من أن عبد الرحمن بن أبي بكر شهد عليهم أنهم أضلاع في هذه المؤامرة الخسيسة، وأنه قابلهم في حي من الأحياء والثلاثة مجتمعون، ولما رأوه اضطربوا وسقط منهم خنجر له نصلان، وهو نفس الخنجر الذي قُتل به عمر، ولما لم يصبر عبيدالله على قتل أبيه خرج إليهم فقتلهم، ولم يكن للمسلمين أمير، فبعد أن قتل الثلاثة أشهر سيفه في المدينة، وتحاجز عنه الناس ولم يستطع أن يأخذ منه السيف إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، ونرى هنا أن صنيعه أغضب سعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وجماعة من المهاجرين، لذلك لما ولي الأمر عثمان قال له المهاجرون أن يقتله ويقتص منه، ولكن عمرو بن العاص قال إن هذا حدث وأنت لست الخليفة، فاقبل الدية واعف عنه، وتفرق الناس على ذلك.

وقال معمر عن الزهري: لما ولي (يقصد عثمان بن عفان) وبايعه

أهل الشورى، خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ فخطب، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ الناس بكلام بليغ، ثم قال لهم: قولوا فيما أحدث عبيد الله بن عمر. فقالوا: القود (أي القصاص)، ونادى جمهور الناس من وراء ذلك: لعلكم تريدون أن تُتبعوا عمر ابنه، الله الله، أبعد الله الهرمزان وجفينة. فلم يقل عثمان لهؤلاء ولا لهؤلاء شيئًا، وتمثل ببيتين فهم الناس عنه أنه سيقيد منه، فانصرفوا وهم مؤمنون بذلك.

هذه الرواية تُوضح المأزق الذي وقع فيه عثمان، وأنه بحث عن حل لهذا الأمر بشتى الوسائل والطرق، وكان الاقرب إليه هو الدية.

ورُوي عن سيف عن أبي منصور قال: سمعت القناديان يُحدث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة سرح بعضها إلى بعض، فمر فيروز بأبي ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنس به. فرآه رجل. فلما أصيب عمر قال قد رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما وُلي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني هذا

قاتل أبيك فأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله. قال: فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إليّ فيه، فقلت لهم إلى قتله. قالوا: نعم وسوءًا لعبيد الله. فقلت لهم: أولكم أن تمنعوه؟ فقالوا: لا وسبوه. فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم».

وبالجمع بين كل الروايات السابقة والترجيح بينها، فإن الروايات جميعها تفيد أن عبيد الله بن عمر قتل الثلاثة أضلاع التي حاكت المؤامرة، والتي كانت هي وسيلة التنفيذ في قتل أمير المؤمنين عمر، فإن عثمان رضي الله عنه قد دفع دية القتلى فيمن لا ولي لهم كجفينة وابنة أبي لؤلؤة، ودفع بعبيد الله إلى ابن الهرمزان فعفا عنه، وهذا كله مآله إلى الله، لكن ثبت أيضًا أن عبيد الله بن عمر قُتل في يوم صفين بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه.

والآن أخي الكريم، أرى أني قد وضعت يدك على بوادر المؤامرة وبدايات الخيانة التي حيكت لهذه الأمة منذ بواكيرها، ووضعت أمامك أغلب الروايات التي جاءت في هذا الصدد، موضحًا

ملابسات مصرع عملاق من عمالقة الدنيا ونبيل من نبلاء الأرض، وها هو الفاروق طريحًا على فراشه، وكأني برسول الله بجواره، وكأنه يقول له اشتقنا إليك، أما اشتقت لصاحبيك؟ أما اشتقت لخليليك؟ وكأني برسول الله يمسح جبينه برفق كما عوده، وبحب كما كان دائمًا بينهما، وإذا بالبطل المغوار وهو الآن صريع وكأنه الأسد في عرينه، وروحه تفارق جسده الطاهر ذاهبة لربه مودعة هذا البدن الزكي، تاركة عالم الدنيا المليء بالمؤامرات والدسائس، إلى رحابة الآخرة وسعة الجنة إن شاء الله، وها هو يرقد بجوار حبيبيه بعد أن أذنت له السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي تبكى عليه بكاءً مريرًا، فعلى مثل عمر تبكي البواكي، وبهذا نكون الآن أمام مصرع النبيل الأول من مصارع النبلاء.

ذو النورين شهيدًا

هاجم المتمردون الدار، فتصدى لهم الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، فنشب القتال، فناداهم عثمان: الله الله، أنتم في حلّ من نصرتي. فأبوا، ودخل غلمان عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا؛ بل إنه أعلن أنه من كف يده منهم فهو حر. وقال عثمان في وضوح وإصرار وحسم، وهو الخليفة الذي تجب طاعته: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كف يده وسلاحه.

فأقدم المتمردون على حرق الباب والسقيفة، فثار أهل الدار -وعثمان يصلي- حتى منعوهم،

واستطاع عثمان أن يُقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخلى بينه وبين المحاصرين، فلم يبقَ في الدار إلا عثمان

وآله، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع ولا حام من الناس، وفُتح باب الدار، وبعد أن خرج من في الدار ممن كان يريد الدفاع عنه، نشر المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه، وكان إذ ذاك صائماً، ثم دخل رجل من بني سدوس، يقال له: الموت الأسود، فخنقه وخنقه قبل أن يضربه بالسيف، فقال: والله ما رأيت شيئًا ألين من خنقه، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان تردد في جسده. ثم أهوى إليه بالسيف، فاتقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها لأول كف خطت المفصَّل (يعني القران)؛ وذلك أنه كان من كتبة الوحي، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله، فقُتل والمصحف بين يديه، وعلى أثر قطع اليد انتضح الدم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧].

إنها الدماء الزكية للحيي، لمن تستحي منه الملائكة، لحبيب رسول الله عثمان بن عفان، تسيل على المصحف وتُعلن للأمة أنها ستدفع ثمن هذه الدماء الغالية إلى قيام الساعة، فمازلنا نحن إلى الآن

ندفع ثمن دم عثمان، وسنظل إلى قيام الساعة ندفع ذلك الثمن من الفرقة والاختلاف والتشرذم.

ولكي نعرف ما الذي أدى بنا إلى كل هذا، فيجب أن نرجع قليلاً لنتعرف عمن نتحدث، ولماذا كان مصرع أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيدًا لربه بهذه الصورة، فهو من أنبل النبلاء، وهو نبيلنا الثاني في مصارع النبلاء.

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، ويلتقي نسبه بنسب رسول الله في عبد مناف. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي شقيقة عبد الله والد النبي، ويقال: إنهما ولدا توأمًا (حكاه الزبير بن بكار)، فكان ابن بنت عمة النبي، وكان النبي ابن خال والدته. وقد أسلمت أم عثمان وماتت في خلافة ابنها عثمان، وكان ممن حملها إلى قبرها، وأما أبوه فهلك في الجاهلية، كناه المسلمون أبا عبد الله، ويُلقب بذي النورين.

ثانيًا: ولادته

وُلد في مكة بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، وقيل: وُلد في الطائف، فهو
أصغر من رسول الله بنحو خمس سنين.

ثالثًا: صفته الخَلْقيَّة

كان رجلاً ليس بالقصير ولا بالطويل، رقيق البشرة، كث اللحية عظيمها، عظيم الكراديس (جمع كردوس، وهو كل عظمين التقيا في مفصل)، عظيم ما بين المنكبين، كثير شعر الرأس، يصفِّر لحيته. وقال الزهري: كان عثمان رجلاً مربوعًا، حسن الشعر، حسن الوجه، أروح الرجلين (بين رجليه انفراج)، وأقنى (طويل الأنف مع دقة أرنبته، وحدب في وسطه)، خدل الساقين (ضخم الساقين)، طويل الذراعين، قد كسا ذراعيه جعد الشعر، أحسن الناس ثغرًا، جُمَّته (مجتمع شعر الرأس) أسفل من أذنيه، حسن الوجه، والراجح أنه أبيض اللون، وقد قيل:أسمر اللون. حكاه ابن الجوزي في صفة الصفوة.

رابعـًا: مكانته في الجاهلية

كان في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه؛ فهو عريض الجاه ثري، شديد الحياء، عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه. لم يسجد في الجاهلية لصنم قط، ولم يقترف فاحشة قط، فلم يشرب خمرًا قبل الإسلام، وكان يقول: إنها تُذهب العقل، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان.

خامسـًا: إسلامه

فقد ذكر لنا ابن هشام في السيرة النبوية أن عثمان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره حين دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام، ولم يعرف عنه تكلؤًا أو تلعثمًا، بل كان سبّاقًا، أجاب على الفور دعوة الصديق، فكان بذلك من السابقين الأولين، حتى قال أبو إسحاق: كان أول الناس إسلامًا بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة عثمان.فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال، ولعل سبقه هذا إلى الإسلام كان نتيجة لما حدث له عند عودته من الشام، وقد قصه على رسول الله حين دخل عليه هو وطلحة بن عبيد

الله، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن، وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله، فآمنا وصدّقا، ويروي ابن سعد في الطبقات أنه قال عثمان: يا رسول الله، قدمت حديثًا من الشام، فلما كنا بين معان والزرقاء، فنحن كالنيام فإذا منادٍ ينادينا: أيها النيام هبوا، فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك.

وهذه الرواية تُخبرنا بمدى لينه ورقته رضي الله عنه وأرضاه، وأنه كان حييًا لين الطبع هادئ السريرة حسن المعشر شديد الأدب واعي الإدراك، مقبل على فهم كل ما هو جديد، وعلى أتم استعداد إلى تغيير عبادة الأوثان، تلك التي كان لا يرتاح لها، وكأنما صادفت دعوة رسول الله إلى الإسلام هوى في نفسه وبصيرة في قلبة ويقظة في عقله.

سادسًا: زواجه من رقية بنت رسول اللّه

ولذلك قصة عجيبة ذكرها الدكتور محمد رشيد رضا في كتابه «ذو النورين عثمان بن عفان»، قال:

"فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحًا شديدًا، وتوثقت بينه وبينهم

عرى المحبة وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من بنت رسول الله رقية، وقصة ذلك أن رسول الله كان قد زوجها من عتبة بن أبي لهب، وزوج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت سورة المسد"تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب وتب"، قال لهما أبو لهب وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية حَمَّالَةَ الْحَطَبِ: فارقا ابنتي محمد. ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما، كرامة من الله تعالى لهما، وهوانًا لابني أبي لهب، وما كاد عثمان بن عفان يسمع بخبر طلاق رقية حتى استطار فرحًا، وبادر فخطبها من رسول الله، فزوجها الرسول الكريم منه، وزفتها أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وقد كان عثمان من أبهى قريش طلعة، وكانت هي تضاهيه قسامة وصباحة، فكان يقال لها حين زُفت إليه:

أحسن زوجين رآهما إنسان رقية، وزوجها عثمان

سابعًا: هجرته إلى الحبشة

كان عثمان أول من هاجر إلى الحبشة بأهله من هذه الأمة، قال رسول الله: "صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله

بعد لوط".

وفي هذا الحديث إشارة إلى فضل عثمان وسبقه في هذه الأمة المجيدة، وكيف أنه من زمان لوط عليه السلام لم يهاجر رجل بأهله إلى ربه قبل ذي النورين وبنت رسول الله، وهذا أيضًا يوضح لنا مدى الجهد والبلاء والعنت الذي لقياه في طريق إسلامهما وإيمانهما بربهما، ولكن هذا مسلك النفوس الزكية الأبية، التي زكاها ربنا جل وعلا، فلك أن تتخيل، فهو من أشراف مكة وساداتها وأعلاها قدرًا ومنزلة، يترك كل شيء وراءه ليهاجر إلى ربه فارًا بدينه، مضحيًا بحريته، تاركًا وراءه الغالي والنفيس، فقط من أجل هذا الدين، حتى يصل إلينا هذا الدين غضًا طريًا كما نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثامنًا: هجرته إلى المدينة

ففي فضائل الصحابة للإمام أحمد، يتكلم عثمان رضي الله عن نفسه فيقول: إن الله - عز وجل- بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله وآمن، فهاجرت

الهجرتين الأولين، ونلت صهر رسول الله، ورأيت هديه.

وتمر به الأيام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، بجوار حبيبه وصاحبه، يدافع عنه وينافح عنه، ويرعى ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لم يشهد بدر لمرض رقية، وكان أمر رسول الله له أن يمكث عندها، وسنتناول كل ما طُعن على عثمان عند الحديث عن الفتنة التي أودت بحياته الشريفة.

ولكني سأقف عند بعض مواقف ستُخبرنا عن ذي النورين السخي المعطاء، ورجل الاقتصاد الأول، فمعًا نسمع قصة بئر رومة:

عندما قدم النبي المدينة المنورة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما يُستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله: "من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة". (رواه الترمذي)، وقال: "من حفر بئر رومة فله الجنة". (البخاري).

وقد كانت رومة قبل قدوم النبي لا يشرب منه أحد إلا بثمن، فلما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بِمُدّ (ملء الكف

من تمر أو زبيب)، فقال النبي: "تبيعها بعين في الجنة؟"، فقال: يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي فقال: أتجعل لي فيها ما جعلت له؟ قال: "نعم". قال: قد جعلتها للمسلمين. (تحفة الأحوذي في شرح الترمذي). وقيل: كانت رومة ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها، فاشتراها عثمان بن عفان من اليهودي بعشرين ألف درهم، فجعلها للغني والفقير وابن السبيل.

فها هو يسقي المسلمين الماء بغير ثمن فقط حين سمع أن ثمنها عين مثلها في الجنة، أي إيمان هذا، والله إننا لنشعر بعجز رهيب أمام إيمان هؤلاء وصدقهم ومحبتهم لربهم ولنبيهم صلى الله عليه وسلم.

لكني يجب أن أقف هنا عند غزوة تبوك التي بذل هو فيها من البذل والعطاء ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم".

يقول الصلابى فى كتابه "سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره": "في العام التاسع الهجري ولى هرقل وجهه المتآمر صوب الجزيرة

العربية، متلمظًا برغبة شريرة في العدوان عليها والتهامها، وأمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف، وترامت الأنباء إلى الرسول فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد، وكان الصيف حارًا يصهر الجبال، وكانت البلاد تعاني الجدب والعسرة، فإن قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحر القاتل وخرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأججة فمن أين لهم العتاد والنفقات التي يتطلبها الجهاد؟ لقد حض الرسول على التبرع فأعطى كلٌّ قدرَ وسعه، وسارعت النساء بالحُلي يقدمنه إلى رسول الله يستعين به في إعداد الجيش، بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتُغني كثيرًا أمام المتطلبات للجيش الكبير، ونظر الرسول إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال، وقال: "من يجهز هؤلاء ويغفر الله له؟" وما كاد عثمان يسمع نداء الرسول هذا حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان، وهكذا وجدت العسرة الضاغطة (عثمانها المعطاء)، وقام بتجهيز الجيش حتى لم يتركه بحاجة إلى خطام أو عقال."

ويقول ابن شهاب الزهري: قدّم عثمان لجيش العسرة في غزوة

تبوك تسعمائة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا أتم بها الألف، وجاء عثمان إلى رسول الله في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه، فجعل الرسول يقلبها بيده ويقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم" مرتين. لقد كان عثمان صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة، وهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان، حيث قال: شهدت النبي وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ينزل على المنبر وهو يقول: "ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه".

أي كرم وجود وبذل لله ذلك الذي يُحرك ذا النورين أنه يبذل المال لله طواعية بوعد من رسول الله بمغفرة من ربه ورضوان، إنها الدنيا كم هينة عليهم لا قيمة لها، فهم يرنون إلى الجنة، إلى المغفرة والرضوان، إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

تاسعًا: عثمان بن عفان في ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد روى البخاري أنه قال: "عن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع النبي في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي: "افتح له، وبشره بالجنة"، ففتحت له فإذا هو أبو بكر، فبشرته بما قال رسول الله، فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي: "افتح له وبشره بالجنة"، ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي، فحمد الله، ثم استفتح رجل فقال لي: "افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه"، فإذا هو عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان.

فهذا الحديث لا يمثل كرامة فقط لعثمان رضي الله عنه، إنما يخبره بإشارة واضحة أنه سيصيبه بلاء وأنه من أهل الجنة وأنه سيصبر، ونلحظ أيضًا أن هذه الإشارات ستكثر من النبي لعثمان، موضحًا فيها ما سيكون مثبتًا له ومعلمًا له ما يجب عليه فعله.

وروى البخاري من حديث أنس أنه قال: عن أنس رضي الله عنه قال: صعد النبي أحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف،

فقال: "اسكن أحد - أظنه ضربه برجله - فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان".

وهذا الحديث يخبرنا فيه النبي صراحة أن عمر بن الخطاب سيلقى الله شهيدًا وأن عثمان بن عفان سيلقى الله شهيدًا.

وعن يحيى بن سعيد بن العاص أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي وآله وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله وهو مضطجع على فراشه لابسًا مِرْط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: "اجمعي عليك ثيابك"، فقضي إليَّ حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله: "إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته".

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

" كان رسول الله مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُبالِه، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!".

تستحي الملائكة من عثمان رضي الله عنه، وهذا هو الطبيعي أن ترى من يستحي منه هو رسول الله والملائكة والصحابة الكبار الأجلاء، أما العامة والغوغاء والسوقة والدهماء سوف لن يستحيوا منه، فهؤلاء ليس لهم قدم سبق أو شرف في جاهلية أو إسلام، فلا يعرف الفضل إلا أهل الفضل.

وفي فضائل الصحابة للإمام أحمد: "عن ابن عمر قال: ذكر رسول الله فتنة، فمر رجل فقال: "يُقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلومًا"، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان".

وفي سنن ابن ماجة: "عن كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله فتنة فقربها، فمر رجل مقنع رأسه، فقال رسول الله: "هذا يومئذ على الهدى". فوثبت فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله فقلت: هذا؟ قال: هذا".

وفي مسند الإمام أحمد: "عن عبد الله بن عامر، عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت: أرسل رسول الله إلى عثمان بن عفان، فأقبل عليه رسول الله، فلما رأينا رسول الله أقبلت إحدانا على الأخرى، فكان آخر كلام كلَّمه أن ضرب منكبه وقال: "يا عثمان، إن الله - عز وجل - عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني. يا عثمان، إن الله عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني" ثلاثًا. فقلت لها: يا أم المؤمنين، فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله فما ذكرته. قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرضَ بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إليَّ به، فكتبت إليه به كتابًا".

هذا الحديث فيه دلالة على أن رسول الله قد أنبأ عثمان بكل ما هو كائن إلى أن يلقى ربه، وهذا يفسر كثيرًا جدًّا من الأحداث التي ستمر بنا في الفتنة، فتذكر معي أخي الكريم هذا الحديث جيدًا، فقد نحتاجه وقت تعجز العقول عن فهم تصرفات هذا العملاق النبيل ذي النورين، وهنا نكتفي بهذا القدر من الأحاديث الواردة في فضل عثمان، لننتقل سريعًا إليه وهو على كرسي الخلافة أميرًا للمؤمنين.

عاشرًا: أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

صار ذو النورين أميرًا للمؤمنين منذ عام ٢٣ من الهجرة وحتى عام ٣٥ من الهجرة، وذلك هو العام الذي لقى فيه ربه شهيدًا مجاهدًا صابرًا محتسبًا لله، وفي هذه السنوات كانت أعماله أجلّ من أن تُحصى وأعظم من أن نحصرها هنا في هذا السرد المختصر، ولكننا سنختار منها:

١. توسعة المسجد الحرام والإنفاق عليه

يذكر لنا صاحب كتاب السياسة المالية في عهد عثمان "كانت الكعبة أيام الرسول قائمة وليس حولها إلا فناء ضيق يصلي

الناس فيه، وظل المسجد كذلك في خلافة أبي بكر، وفي عهد عمر وسع المسجد فاشترى دورًا حول الكعبة وهدمها وأدخلها في بيت الله الحرام وأحاطها بجدار قصير، وأدخل إنارة المسجد ليلاً؛ وذلك لأن المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج بعد أن امتدت فتوحات الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلما ضاق المسجد ثانية في عهد عثمان احتذى بمثل عمر وأضاف إلى الكعبة دورًا اشتراها وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع إلى قامة الرجل كما فعل عمر من قبل، كما كان الولاة يبنون المساجد في ولاياتهم وينفقون عليها من بيت مال الولاية، كما حدث عند بناء مسجد الرحمة بالإسكندرية، ومسجد في اصطخر في فتوحات المشرق".

٢. الإنفاق على إنشاء أول أسطول بحري.

٣. تمويل حفر الآبار من بيت مال المسلمين.

٤. أول من أنشأ دارًا للقضاء.

وكل ما سبق له تفصيل، ولكن كما نؤكد نحن نمر على تاريخ هذا العملاق في عجالة، وإليكم بعض الفتوحات الإسلامية في عهده:

٥. فتوحاته الإسلامية

أولاً: فتوحات أهل الكوفة: أذربيجان ٢٤ هـ: وكان ذلك بقيادة الوليد بن عقبة، فسار إليهم وأخمد ثورتهم وانتصر عليهم، حتى طلبوا منه الصلح على شروط أمير المؤمنين.

ثانيًا: مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحركات الروم: وذلك كان بأمر من عثمان رضي الله عنه إلى الوليد بن عقبة، ليذهب إلى الشام لنصرة معاوية على جيوش الروم التي تهيأت له وخرجت لغزوه.

ثالثًا: غزوة سعيد بن العاص، طبرستان ٣٠ هـ: وانتصر فيها المسلمون على الفرس، وبذلك اقترب كثيرًا من ملك الفرس الذي فر بعد ذلك إلى أذرابيجان.

رابعًا: مقتل يزدجرد ملك الفرس ٣١ هـ: اختلفت الروايات في طريقة قتله وسببها، ولكن الثابت أن المسلمين لم يقتلوه.

خامسًا: فتوحات عبد الله بن عامر ٣١ هـ: انتصر فيها المسلمون بقيادة عبد الله بن عامر، الذي توجه إلى خراسان ففتح أبرشهر وطوس وبيورد ونسا حتى بلغ سرخس، وصالح فيها أهل مرو.

سادسًا: فتوحات ابن عامر سنة ٣٢ هـ: وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ، والطالقان والفارياب، والجوزجان، وطخارستان.

سابعًا: أول من أجاز الغزو البحري عثمان بن عفان: وهو بذلك قد فعل شيئًا خشى منه الفاروق مع جلالة قدره ورفعة شأنه وعلو همته، إلا أن عثمان رضي الله عنه تجاسر على ذلك وأقدم عليه ليفتح للمسلمين بذلك خيرا كثيرًا، فكان غزو قبرص.

ثامنًا: توالت فتوحاته في الشرق، فقد استطاع فتح النوبة وإفريقية (تونس)، وكان هذا الجيش به العبادلة الأربعة، عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

معركة ذات الصواري:

أصيب الروم بضربة حاسمة في إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط من ردوس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان لصد العدوان، فأرسل

معاوية مراكب الشام بقيادة بسر بن أرطأة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح في مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامي وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في المعارك السابقة، وقد انتصر المسلمون على الروم في هذه المعركة الخالدة التي اعتُبرت بداية عصر جديد لأسطول إسلامي يجوب المشرق والمغرب، وشوكة للمسلمين جديدة لا تُكسر.

ولعلنا رغم كل هذا نعد أعظم مفاخر عثمان على أمة الإسلام هو جمع الأمة على مصحف واحد.

وقصة جمعه يرويها لنا البخاري رحمه الله في صحيحه: «عن أنس بن مالك: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في

المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق».

وهذا يدلنا على مدى حرص هذا العملاق على دين ربنا، وعلى حفظ القرآن الكريم حتى لا يصبه تغيير أو تحريف، إنه أمير المؤمنين، ماضي العزم شديد البأس قوي الشكيمة جسر الحزم، يقدم على خطوة غيرت مجرى تاريخ الأمة الإسلامية، بل وأنقذتها من تفرق وتشرذم لا يعلم مداه إلا الله، فله في أعناقنا جميل ومنّة.

وحتى لا نطيل النفس في ذكر تاريخ عثمان رضي الله عنه، فهو مليء حافل بالأمجاد، وإنما اخترت لكم قليلاً من كثير هنا حتى

نبدأ سويًا في تلمس طريقنا نحو فتنة عاصفة أطاحت بأمتنا وعصفت بها، وكان من أثرها فرقة وخلاف لم يرأب صدعه إلى الآن، ولازلنا قيد هذه المؤامرة إلى زماننا هذا، فترى ما هذه المؤامرة وما حكاية الفتنة؟ وكيف بدأت وإلام آلت؟ هذا ما سنعرفه الآن، فلنحبس الأنفاس استعدادًا لسماع ما لم يتكرر مثله في تاريخنا قط.

الحادي عشر: الفتنة الكبرى

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامي نتيجة عوامل التغير التي ذكرناها، وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور مستغلين عوامل الفتنة ومتظاهرين بالإسلام واستعمال التقية، ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء. وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة، فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة كعامل من عواملها، على أنه أبرزها

وأخطرها؛ إذ إن هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساعدته. يقول الصلابى فى كتابه «سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره»:»أن غاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادعاها واخترعها من قبل نفسه وافتعلها من يهوديته الحاقدة، وجعل يروجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه؛ وهو الدس في المجتمع الإسلامي، بغية النيل من وحدته وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان وتفرق الأمة شيعًا وأحزابًا».

وخلاصة ما جاء به أنه أتى بمقدمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السذَّج والغلاة وأصحاب الأهواء من الناس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على مَنْ حوله حتى اجتمعوا عليه؛ فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفاسد، حيث قال: لَعَجَبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمدًا يرجع، وقد قال تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) "القصص: ٨٥"، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. كما سلك

طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصية لعلي بقوله: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء. وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان، فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله، ووثب على وصيِّ رسول الله (أخذ إمارة المؤمنين عنوة) وتناول أمر الأمة؟ ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. وبث دعاته، وكاتب من كان استفسد من الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في

أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يُظهرون، ويسرون غير ما يُبدون، فيقول أهل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

فمما سبق نستبين أنه شخصية شديدة الذكاء مرتبة جدًا، على علم غزير ووعي كامل بنصوص الشرع وآيات القرآن، بل وعلى خطة واعية وفهم كامل لما يضمره لهذه الأمة، ألا وهو دحر الخلافة وإنهاؤها، ولتذكروا معي قولة عمر للهرمزان: إنكم انتصرتم علينا بتجمعكم وتفرقنا. وهذا هو ما كانوا يبغونه ثانية، دحر الخلافة والقضاء عليها وإن أخذوا في ذلك سنين وقرونًا، فإن هدفهم تحقق بعد قرون طويلة، ولكنهم ما كلوا يومًا وما يئسوا من أن ينفذوا خطتهم في القضاء على الخلافة ووحدة المسلمين.

وللأسف الشديد فإن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ يُنظم حملته ضد عثمان، ويحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير

حق، ووثب على وصيِّ رسول الله (يقصد عليًا). وقد غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة، حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب إلى المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعًا؛ حيث تبرأوا مما نُسب إليهم من رسائل تؤلب الناس على عثمان. ووجدوا عثمان مقدرًا للحقوق بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، ورد عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله، حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النخعي: لعله مُكر به وبكم. ويعتبر الذهبي أن عبد الله بن سبأ المهيج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشقاق والنقمة على الولاة، ثم على الإمام عثمان فيها. ولم يكن ابن سبأ وحده، وإنما كان عماله ضمن شبكة من المتآمرين، وأخطبوط من أساليب الخداع والاحتيال والمكر، وتجنيد الأعراب والقراء وغيرهم. ويروي ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين الناس كلامًا اخترعه من عند نفسه، فافتُتن به بشر كثير من أهل مصر.

نجح الموتورون الحاقدون الكاذبون في إزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة، وعين عثمان سعيد بن العاص واليًا جديدًا على الكوفة، وعندما وصل سعيد إلى ولايته صعد المنبر، وبعدما حمد الله وأثنى عليه قال: والله لقد بُعثت إليكم وإني لكاره، ولكني عندما أمرني عثمان، لم أجد بدًّا من التنفيذ، ألا وإن الفتنة قد أطلت برأسها فيكم، والله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تغلبني، وإني رائد نفسي اليوم. واطلع سعيد على أحوال الكوفة، وعرف توجهات الناس فيها، وأدرك تعمق الفتن فيها، وضلوع مجموعة من الخوارج والموتورين والحاقدين وأعداء الإسلام في التآمر والكيد والفتنة وسيطرة الرعاع والغوغاء والأعراب على الرأي فيها.

إن الفتنة لم تكن وليدة اللحظة أو حتى السنوات الخمس التي استعرت فيها، وإنما هي تحاك وتُدبر لهذه الأمة منذ مقتل عمر رضي الله عنه، وتستشري ويُبذل فيها الغالي والنفيس من هؤلاء الذين يريدون الفتك بهذه الأمة، فهم يعمقون جذور الخلاف

والشقاق باللعب على جهل الناس أحداث الإسلام بدين ربهم، وبعدهم عن المعين الصافي الذي نهل منه أصحاب الرعيل الأول، لذلك استشعر ولاة عثمان بالفتنة لما بدأت في الطفو على السطح، وإلا فهي موجودة منذ بدايات حكم عثمان، تنظر عن كسب وترقب لتُفسر كل صنيع لأمير المؤمنين بالتفسير الذي يخدم هواهم الخبيث ومرادهم الآسن.

وكتب سعيد رسالة إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره فيها بالأوضاع المتردية في الكوفة، ومما قال فيها: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وقد غُلب فيها أهل الشرف والسابقة والقِدمة (يقصد أن الغوغاء والسوقة قد غلبوا أهل السبق والشرق والقدم في الدين، فساروا هم الظاهرون)، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت (أتباع لا قيمة لهم)، وأعراب لَحَتْ حتى ما ينظر فيها إلى ذي شرف وبلاء. فرد عليه عثمان برسالة طلب منه فيها إعادة ترتيب أوضاع أهلها وتصنيفهم على أساس السبق والجهاد، وتقديم أهل العلم والصدق والجهاد على غيرهم، ومما قال له فيها:

فضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله على أيديهم تلك البلاد، واجعل الذين نزلوا البلاد بعد فتحها من الأعراب تبعًا لأولئك السابقين المجاهدين إلا أن يكون السابقون تثاقلوا عن الجهاد والحق، وتركوا القيام به، وقام به من بعدهم. واحفظ لكل إنسان منهم منزلته وأعطهم جميعًا قسطهم بالحق، فإن المعرفة بالناس يتحقق بها العدل بينهم.

في رسالة عثمان هذه يطلب منه تفضيل اهل الفضل وتقديمهم ورفع شأنهم وأن يجعل لهم الكلمة العليا، ويجعل تبعًا لهم من دخل البلاد بعد فتحها من الأعراب والسوقة، وأن يجعل لكل ذي فضل فضله وكل ذي كرم كرمه، ويمعن فيهم العدل ويقسم بينهم بالحق والقسط.

وقام سعيد بتنفيذ توجيهات عثمان وأخبر الخليفة بما فعل، وجمع عثمان أهل الحل والعقد في المدينة، وأبلغهم بأوضاع الكوفة ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءات سعيد بن العاص لمواجهتها، فقالوا: أصبت بما فعلت، ولا تُسعف أهل الفتنة بشيء ولا تُقدمهم على الناس،

ولا تُطعمهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا تولى الأمور من ليس أهلاً لها، لم يقم بها بل يفسدها. فقال عثمان لهم: يا أهل المدينة، إن الناس قد تحركوا للفتنة، فاستعدوا لمواجهتها، واستمسكوا بالحق، وسوف أخبركم بأخبارها وأنقلها لكم أولاً بأول.

هذه الرواية تبين لنا كيف كان عثمان يقظًا من اللحظة الأولى التي بدأت فيها هذه الفتنة تطفو على السطح وتطل برأسها، وتُبين أنه استشار أهل الحل والعقد من أشراف المدينة، فكانوا معه من اللحظة الأولى على علم بما يجري.

وكما يقول الخالدي في كتابه "الخلفاء الراشدون": "تأذى الرعاع وأجلاف الأعراب من تقديم أصحاب السابقة والجهاد والبلاء والعلم والتقوى في المجالس والرئاسة والاستشارة، وصاروا يعيبون على الولاة تقديم هؤلاء عليهم واستشارتهم دونهم ويعتبرونه تمييزًا، وجفوة وإقصاء لهم، واستغل الحاقدون الموتورون هذا الأمر في نفوسهم، وغرسوا فيهم كره الخليفة والدولة ورفض أعمال الوالي سعيد بن العاص، ونشر الإشاعات

ضده بين الناس، ورفض عامة الناس في الكوفة كلام الموتورين الخارجين، فسكت هؤلاء الحاقدون وصاروا يُخفون شبهاتهم ولا يظهرونها؛ لرفض معظم المسلمين لها، ولكنهم كانوا يُسرون بها إلى من يؤيدهم من الأعراب أو الغوغاء أو المعاقبين المغررين".

ويردف أيضًا الخالدي قائلاً:

"وكان أعداء الإسلام الموتورون من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضد الخليفة والولاة، ويستثمرون الأخطاء التي تصدر عن بعضهم في تهييج العامة ضدهم، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات، وهم يهدفون من ذلك إلى نشر الفوضى وتعميق الفرقة بين المسلمين، وذلك لتغذية غيظهم وحقدهم على الإسلام، الذي قضى على أديانهم الباطلة، وهدم نظام الحكم الإسلامي، الذي حطم دولهم وقضى على جيوشهم، وجند هؤلاء الأعداء لتحقيق أهدافهم الموتورين من الرعاع والسذج والبلهاء، والتف حولهم الحاقدون ممن أدَّبهم أو حدَّهم أو عزَّرهم

الخليفة أو أحد ولاته، ونظم هؤلاء الأعداء (جمعية سرية) خبيثة جعلوا أعضاءها هؤلاء الذين استجابوا لهم، وجعلوا لهم أتباعًا في المدن الكبيرة والأقاليم العديدة، وكوّنوا شبكة اتصالات سرية بينهم. وكانت أهم فروع جمعيتهم الخبيثة في: الكوفة، والبصرة، ومصر، ولهم بعض العناصر في المدينة المنورة والشام".

توجه ابن سبأ إلى الشام ليُفسد بعض أهلها ويؤثر فيهم، ولكنه لم ينجح في هدفه الشيطاني، فقد كان له معاوية بالمرصاد. ودخل البصرة ليُجند الأتباع له من المارقين أو الحاقدين أو الرعاع البلهاء، وكان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز، وكان حازمًا عادلاً صالحًا، ولما وصل ابن سبأ البصرة، نزل عند رجل خبيث من أهلها كان لصًا فاتكًا، هو حكيم بن جبلة، وتذكروا معي هذا الاسم جيدًا، فسيلعب معنا دورًا هامًا وبالغًا فيما بعد من تأجيج الفتن، وسيستمر معنا هذا الاسم حتى في خلافة علي رضي الله عنه.

وبلغ عبد الله بن عامر أن رجلاً غريبًا نازل على حكيم بن

جبلة، وكان حكيم بن جبلة لصًا، وعندما كانت تعود جيوش الجهاد إلى البصرة، كان حكيم يتخلف عنها ليسعى في أرض فارس فسادًا، ويُغير على أرض أهل الذمة، ويعتدي على أرض المسلمين، ويأخذ منها ما يشاء، فشكاه أهل الذمة والمسلمون إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر، وقال له: احبس حكيم بن جبلة في البصرة، ولا تتركه يخرج منها حتى تأنس منه رشدًا، فحبسه ابن عامر في بيته، وكان لا يستطيع أن يخرج من البصرة، وبينما كان اللص ابن جبلة تحت الإقامة الجبرية في بيته، نزل عليه اليهودي عبد الله بن سبأ، واستغل ابن سبأ زعارة ابن جبلة وانحرافه وحقده ولؤمه فجنده لصالحه، وصار ابن جبلة رجل ابن سبأ في البصرة، وصار ابن جبلة يُقدم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين والموتورين، فيغرس ابن سبأ في نفوسهم أفكاره، ويجندهم في جمعيته السرية. ولما علم ابن عامر بابن سبأ، استدعاه، وقال له: ما أنت؟ قال ابن سبأ: أنا رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام فأسلم، ورغب في جوارك فأقام عندك. قال ابن

عامر: ما هذا الكلام الذي يبلغني عنك؟ اخرج عني. أخرجه ابن عامر من البصرة، فغادرها ابن سبأ بعد أن ترك فيها رجالاً وأتباعًا له، وجعل فيها فرعًا لحزبه السبئي اليهودي.

وهنا نكون نحن أمام رافدين هامين لجمعية السبئية، الرافد الأول لها في مصر والرافد الثاني لها في البصرة مع حكيم بن جبلة، ذلك اللص المارق، بقي لمثلث الشر ضلعًا ثالثًا وجب أن يكتمل ألا وهو الكوفة.

فذهب ابن سبأ إلى الكوفة فوجد فيها رجالاً من المنحرفين جاهزين لاستقباله، فجندهم لجماعته وحزبه، ولما علم به سعيد بن العاص أخرجه من الكوفة، فتوجه إلى مصر، فأقام فيها وعشش فيها وباض، وفرخ فيها وأفسد، واستمال أناسًا هناك من الرعاع والبلهاء، ومن الحاقدين والموتورين، ومن العصاة والمذنبين. وكان ابن سبأ يُرتب الاتصالات السرية بين مقره في مصر، وبين أتباعه في المدينة والبصرة والكوفة، ويتحرك رجاله بين هذه البلدان. واستمرت جهود ابن سبأ وأعوانه حوالي ست سنوات،

حيث بدأوا أعمالهم الشيطانية سنة ثلاثين، ونجحوا في آخر سنة خمس وثلاثين في قتل الخليفة عثمان، واستمر إفسادهم طيلة خلافة علي، وقرر (السبئيون) أن تكون بداية الفتنة في الكوفة.

في يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس سعيد بن العاص في مجلسه العام وحوله عامة الناس، وكانوا يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلل هؤلاء الخوارج من السبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة.

وجرى كلام وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص وبين أحد الحضور، وهو (خنيس ابن حُبيش الأسدي)، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج أصحاب الفتنة جالسين: منهم جندب الأزدي، الذي عوقب ولده بالقتل بسبب تورطه في قضية قتل، ومنهم الأشتر النخعي، وابن الكواء، وصعصعة بن صوحان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خنيس الأسدي في المجلس، ولما قام أبوه يساعده وينقذه ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضرب فلم يمتنعوا، وأغمى على الرجل وابنه من

شدة الضرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيدًا تمكن من إصلاح الأمر، ولما علم عثمان بالحادثة طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع.

بيد أن هذا الظهور والطفو على ساحة الاحداث كان مدبرًا ومجهزًا له حتى تبدو الفتنة وليس فقط أن تطل برأسها، لا بل تخرج بجسدها كاملاً إلى ديار المسلمين، لذلك هذه الفوضى كانت مصطنعة مخطط لها لإرباك المشهد، وحتى تبدو الأمور قد بدأت في الخروج عن السيطرة، وكما لاحظنا في النص الماضي؛ فان اغلب السبئيين إنما هم موتورون أو مجرمون أو مرتزقة.

ذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم وصاروا ينشرون الإشاعات ويذيعون الافتراءات والأكاذيب ضد سعيد وضد عثمان، وضد أهل الكوفة ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال لهم سعيد: إن عثمان قد نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة

وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخربون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء فقال له: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خُلقوا للفتنة، فَرُعْهم وأخفهم وأدبهم وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا فاقبل منهم ومن الذين تم نفيهم إلى الشام: الأشتر النخعي، وجندب الأزدي، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوا.

فقرار أمير المؤمنين أن يرسل هؤلاء إلى معاوية لما يعلم عنده من الدهاء وحسن السياسة والقوة والحزم ما ليس عند غيره، وهذا أيضًا تدرج من الخليفة في التعامل معهم، فهو اختار لهم في أول الأمر رجل سياسة ليتعامل معهم بالكلام والمفاوضات واللين، ولم يعمد بهم من أول الأمر إلى رجل كعبد الرحمن بن خالد، الذي سوف يلجأ إليه فيما بعد، ولكن تلك طبيعة عثمان رضي

الله عنه، أميل للرفق واللين منه إلى الشدة والقسوة، خاصة مع المسلمين، وإليكم ما صار بينهم وبين معاوية حين قدموا عليه:

لما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم، فقال لهم يومًا: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وأن قريشًا لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم.

كان عثمان يدرك أن معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه وصبره، وله من ذكائه ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها، وفعلاً بذل معاوية ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النفر؛ أكرمهم أولاً، وخالطهم وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالس، قبل أن يحكم عليهم بما نقلوا عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أن

النعرة القبلية هي التي تحركهم.

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة (حصن ومنعة) فلا تشذوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة (يقصد أن أئمتهم يصبرون عليهم ويتحملون منهم الظلم والتجاوز)، والله لتنتهين أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر (يقصد أن يبتليهم الله برجل يبطش بهم)، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم. فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا (يقول لمعاوية إنه لم يعد هناك إمام يمنعنا ونتحصن به)، فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً، أعظم عليك أمر الإسلام، وأذكِّرك به، وتذكرني الجاهلية؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنِك أنه يخترق، ولا ينسب

ما يخترق إلى الجنة، أخزى الله أقوامًا أعظموا أمركم ورفعوا إلى خليفتكم (أخزى الله أقوامًا أقاموا لكم وزنًا أصلاً واهتموا بكلامكم). ويتابع معاوية كلامه قائلاً لهم: افقهوا ولا أظنكم تفقهون؛ إن قريش لم تعز في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله عز وجل، لم تكن أكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمهم أخطارًا، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضًا إلا بالله الذي لا يُسْتذل من أعز، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا أو عجمًا أو سودًا أو حمرًا إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش؛ فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن ينتقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابًا فكان خيارهم قريشًا، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهلية

من الملوك الذين كانوا يدينونكم، أفٍّ لك ولأصحابك، ولو أن متكلمًا غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت، فأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر قرى عربية، أنتنها نبتًا، وأعمقها واديًا، وأعرفها بالشر، وألأمها جيرانًا، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقابًا وألأمهم أصهارًا، نزَّاع الأمم، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ونكبتكم دعوته، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجًا، وتنزع إلى اللآمة والذلة (تميل إلى الخزي والذلة) ولا يضع ذلك قريشًا (لا ينقص ذلك من قدر قريش)، ولن يضرهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أمتكم، فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء الله، ولا أمرًا أراده الله، ولا تدركون بالشر أمرًا إلا فتح الله عليكم شرًا منه وأخزى، ثم قام وتركهم فتذامروا،

فتقاصرت إليهم أنفسهم.

من الرواية السابقة التي يرويها لنا ابن جرير الطبرى في تاريخه ندرك مدى الحنق والحقد والجهل والغيرة والعصبية وقلة الدين وضعف الإيمان الذي يُحرك هؤلاء، فهم لم يستقيموا لفهم ما يكلمهم فيه معاوية إنما هم كالأنعام، بل هم أضل، وكم في نفوسهم من حقد على قريش، وكانت بداخلهم نعرة قبلية وحقد على أهل هذه البلاد، ونلحظ أن معاوية فهم كلامهم مبكرًا جدًا وأدرك طبيعة القوم، وأغلظ عليهم الكلام لعل القوم يفهمون أو يرتجعون، ولكن هيهات هذا لأناس ضاقت آفاقهم وحملوا الشر في داخلهم جنينًا حتى يضعوه وليد سفاح في ديار الخلافة.

ويُكمل لنا ابن جرير رحمه الله القصة قائلاً:

ثم أتاهم معاوية مرة أخرى فتحدث عندهم طويلا، ثم قال: أيها القوم، ردوا عليَّ خيرًا، أو اسكتوا وتفكروا، وانظروا فيم ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم. قال صعصعة: لست

بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله. قال معاوية: أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه، وأن تعتصموا بحبله جميعًا ولا تفرقوا؟! قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي. قال: إني آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه، ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم. قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك، فإن من المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قدمًا من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدمًا منك في الإسلام. قال معاوية: والله إن لي في الإسلام قدمًا، ولغيري كان أحسن قدمًا مني، ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة

المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت ألا يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلا فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إن لله سطوات ونقمات، وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تُحلَّكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر والخزي الدائم في الآجل (يقصد الآخرة)، فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه. فقال: مه، إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا. ثم قام من عندهم فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت.

وهنا يظهر أمامنا كيف أن هؤلاء ضعاف الأحلام أشبه بالرعاع

السوقة والغوغاء، وليس مثل كلام معاوية ما يصلح معهم، إنما يصلح معهم ما سيفعله بهم عبد الرحمن بن خالد، ونلحظ أيضًا من رواية ابن جرير أنهم يميلون إلى افتعال الأزمات وكأنهم يريدون أن يجعلوا وجودهم على الساحة الإسلامية أمرًا واقعًا وفتنة متقدة.

ولننظر ماذا يروي لنا ابن جرير رحمه الله: كتب معاوية إلى عثمان يطلب ردهم إلى بلادهم، ولما أتوا سعيد بن العاص ضاق بهم وأرسل إلى عثمان يشتكي منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - وكان أميرًا على حمص - فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد استدعاهم، وكلمهم كلامًا شديدًا، وكان مما قاله لهم: يا آلة الشيطان، لا مرحبًا بكم ولا أهلاً، لقد رجع الشيطان محسورًا خائبًا، وأنتم ما زلتم نشيطين في الباطل!! خسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم ويخزكم، يا معشر من لا أدري من أنتم: أعرب أم عجم، لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته

العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة، والله لأذلنّكم. وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم والشدة، ولم يلن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم (صعصة بن صوحان) يقول له: يا ابن الخطيئة، هل تعلم أن من لم يُصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يُصلحه اللين أصلحته الشدة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردون عليَّ كما كنتم تردون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوني كما كنتم تخاطبونهما؟

ومن هذه الرواية يتضح لنا قوة عبد الرحمن بن خالد وكيف أن أسلوبه معهم كان خشنًا، حتى إنه ينادى كبيرهم بابن الخطيئة إذلالاً وإمعانًا في مذلته، ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه وشدته وقسوته، وأظهروا له التوبة والندم، وقالوا له: نتوب إلى الله ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله. وبقى القوم في الجزيرة عند عبد الرحمن

بن خالد، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم - وهو الأشتر النخعي - إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحهم، وتراجعهم عما كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احلل أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذكر له من فضل عبد الرحمن وحزمه، فأقاموا عند عبد الرحمن في الجزيرة مدة أظهروا فيها التوبة والاستقامة والصلاح، وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حين، وكان هذا في شهور سنة ثلاث وثلاثين، بعدما تم نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشام، ثم عبد الرحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أن المصلحة تقتضي أن يسكنوا إلى حين.

وهنا نذهب إلى مشهد الفتنة في البصرة:

أما أهل الفتنة بالبصرة بزعامة حكيم بن جبلة فقد كانوا ضد أهل الفضل فيها، وتآمروا وكذبوا عليهم، وكان من أفضل وأتقى أهل البصرة (أشج عبد القيس)، واسمه عامر بن عبد القيس،

وكان زعيماً لقومه، وقد وفد على رسول الله وتعلم منه، ومدحه رسول الله بقوله: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة". وكان عامر بن عبد القيس من قادة الجهاد في القادسية وغيرها، وكان مقيماً في البصرة، وكان على قسط كبير من الصلاح والتقوى، فكذب الخارجون عليه، واتهموه بالباطل، فسيَّره عثمان إلى معاوية بالشام، ولما كلمه معاوية وعامله، وعرف براءته وصدقه، وكذب الخوارج وافترائهم عليه، وكان الذي تولى الكذب على عامر بن عبد القيس هو (حمران بن أبان)، وهو رجل عاصٍ بدون دين؛ حيث تزوج امرأة في أثناء عدتها، ولما علم عثمان بذلك فرق بينهما، وضربه ونكل به لمعصيته، ونفاه إلى البصرة، وهناك التقى مع زعيم السبئيين فيها؛ اللص حكيم بن جبلة. وفي سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان - أحكم عبد الله بن سبأ اليهودي خطته، ورسم مؤامراته، ورتب مع جماعته السبئيين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتصل ابن سبأ اليهودي من وكر مؤامراته في مصر بالشياطين

من حزبه في البصرة والكوفة والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه، وكان ممن كاتبهم وراسلهم، السبئيون في الكوفة، وقد كان بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشام، ثم في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبعد نفي أولئك الخارجين كان زعيم السبئيين الحاقدين في الكوفة يزيد بن قيس، وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها وأشرافها، لأنهم توجهوا للجهاد في سبيل الله، ولم يبقَ إلا الرعاع والغوغاء، الذين أثّر فيهم السبئيون والمنحرفون وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضد والي عثمان على الكوفة سعيد بن العاص.

وهنا يبدأ أول تصعيد عسكري واضح الملامح ضد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، في محاولة بائسة يرويها لنا ابن جرير فيقول: "خرج يزيد بن قيس في الكوفة، وهو يريد خلع عثمان، فدخل المسجد وجلس فيه، وتجمع عليه في المسجد السبئيون، الذين كان ابن السوداء يكاتبهم من مصر، ولما تجمع الخارجون في

المسجد، علم بأمرهم القعقاع بن عمرو أمير الحرب، فألقى القبض عليهم، وأخذ زعيمهم يزيد بن قيس معه، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته وبصيرته لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة لما سمع كلام يزيد، ثم قال ليزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد ولا يجتمع عليك أحد واجلس في بيتك، واطلب ما تريد من الخليفة وسيحقق لك ذلك".

هنا ندرك أن الحزم والحسم واليقظة كانوا الدواء الناجع لمثل هؤلاء الذين لا يعرفون لأهل الفضل فضلهم ولا لأهل السبق سبقهم، بل هم من الرعاع السوقة الغوغاء، ونرى كيف أن القعقاع كان شديد البأس مرابطًا ينظر ماذا يصنع هؤلاء ويبادرهم بالحسم والحزم، وهنا بدأو في تغيير ملامح الخطة على النحو التالي:

فقد جلس يزيد بن قيس في بيته، واضطر إلى تعديل خطته في الخروج والفتنة، واستأجر هذا السبئي (يزيد بن قيس) رجلاً وأعطاه دراهم وبغلاً، وأمره أن يذهب بسرعة وكتمان إلى السبئيين من أهل الكوفة الذين نفاهم عثمان بن عفان إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، وهم مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد هناك، وقد أظهروا له التوبة والندم، وقال يزيد لإخوانه الشياطين في كتابه: إذا وصلكم كتابي فلا تضعوه من أيديكم حتى تأتوا إليَّ، فقد راسلنا إخواننا في مصر - وهم السبئيون هناك - واتفقنا معهم على الخروج. ولما قرأ الأشتر كتاب يزيد خرج فورًا للكوفة، ولحق به إخوانه الخارجون، وفقدهم عبد الرحمن بن خالد فلم يجدهم، فأرسل جماعة في طلبهم فلم يدركوهم، واتصل يزيد بن قيس بجماعته مرة ثانية، واتصلت جماعته بالرعاع والغوغاء في الكوفة، وتجمعوا في المسجد، ودخل عليهم الأشتر النخعي في المسجد وعمل على إثارتهم وتهييجهم ودفعهم للثورة والخروج، وكان مما قال لهم: لقد جئتكم من عند

الخليفة عثمان، وتركت واليكم سعيد بن العاص عنده، وقد اتفق عثمان وسعيد على إنقاص عطائكم، وخفض أموالكم من مائتي درهم إلى مائة درهم. وقد كذب الأشتر فيما قال، ولم يتحدث عثمان وسعيد بذلك، ولكنه كيد السبئيين في نشر الأكاذيب والافتراءات لتهييج العامة، واستخف الأشتر بكلامه الناس في المسجد، وأثّر في الرعاع والغوغاء وهيجهم، وكانت ضجة كبيرة في المسجد، وصار يكلمه عقلاء المسلمين من وجوههم وأشرافهم وصالحيهم وأتقيائهم؛ كأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن مسعود، والقعقاع بن عمرو، فلم يسمع لهم، ولم يستجب لهم. وصاح يزيد بن قيس في الغوغاء والرعاع داخل المسجد وخارجه، وقال: إني خارج إلى طرق المدينة لأمنع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، ومن شاء أن يخرج معي لمنع سعيد من الدخول والمطالبة بوالٍ مكانه فليفعل، فاستجاب لندائه السبئيون والرعاع، وخرج معه حوالي ألف منهم.

وهنا انظروا يا إخواني كيف أن الكذب ينتشر ويطير في السماء

ولا يجد من يتحقق، وهذه هي صفة الغوغاء والسوقة والدهماء، يحركهم مزمار وتفرقهم عصا، خاصة لو كانت عصا غليظة، وهم الآن يُحركون الناس للخروج على واليهم سعيد بن العاص والمطالبة بوالٍ غيره، وسيقطعوا طريقه ليرجعوه إلى المدينة ويطلبوا أبو موسى الأشعري إمامًا لهم.

ولما خرج السبئيون والغوغاء طلبًا للفتنة والتمرد وإحداث القلاقل، بقي في المسجد وجوه المسلمين وأشرافهم وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حُريث، وطالب المسلمين بالأخوة والوحدة ونهاهم عن التفرق والاختلاف والفتنة والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمردين، فقال القعقاع بن عمرو: أترد السيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تُسَكِّن الغوغاء إلا المشرفية (المشرفية: نوع من السيوف)، ويوشك أن تُنْتَضَى (تمضي وتزول النعم والخيرات) ثم يعجِّون عجيج العتدان (المفرد العتود: الجدي)، ويتمنون ما هم فيه فلا يرده عليهم أبدًا، فاصبر. فقال:

أصبر. وتحول إلى منزله.

يقصد القعقاع أن لا خلاص من هذه الفتنة إلا بالسيف نُعمله في رقاب هؤلاء أصحاب الفتنة ومن يألبون الناس ضد الخليفة، ونظهر لهم الحزم والحسم والغلظة حتى يعودوا وتنطفأ نار الفتنة، ولكنهم قالوا له أن يصبر، فتركهم وانصرف إلى داره. والحق أن كلام القعقاع صحيح جدًا مع هؤلاء، فلا ناجع لهم أبدًا في حوار أو سياسة أو لين، إنهم موتورون يريدونها فتنة تعصف بالأمة كلها، ويزرعون فيها خلافًا وشقاقًا، وليت وجهاء القوم أخذوا بكلام القعقاع، لجنبونا أهوالاً لا يعلم مداها إلا الله.

وسار يزيد بن قيس ومعه الأشتر النخعي بالألف من الخارجين إلى مكان على طريق المدينة يسمى (الجَرَعة)، وبينما كانوا معسكرين في الجرعة، طلع عليهم سعيد بن العاص عائدًا من عند عثمان، فقالوا له: عُد من حيث أتيت ولا حاجة لنا بك، ونحن نمنعك من دخول الكوفة، وأخبر عثمان إننا لا نريدك واليًا علينا، ونريد من عثمان أن يجعل أبا موسى الأشعري واليًا مكانك. قال لهم

سعيد: لماذا خرجتم ألفًا لتقولوا لي هذا الكلام؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم، وأن توقفوا لي رجلاً في الطريق ليخبرني بذلك، وهل يخرج ألف رجل لهم عقول لمواجهة رجل واحد؟

رأى سعيد بن العاص أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وهذا رأي أبي موسى الأشعري، وعمرو بن حريث والقعقاع بن عمرو في الكوفة. وعاد سعيد بن العاص إلى عثمان وأخبره خبر القوم الخوارج، قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعري. قال عثمان: قد عينا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، والله لن نجعل لأحد عذرًا، ولن نترك لأحد حجة، ولنصبرن عليهم كما هو

مطلوب منا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون. وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًا على الكوفة.

وقبل وصول كتاب عثمان بتعيين أبي موسى واليًا كان في مسجد الكوفة بعض أصحاب رسول الله، وقد حاولوا ضبط الأمور وتهدئة العامة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك؛ لأن السبئيين والحاقدين سيطروا على الرعاع والغوغاء وهيجوهم، فلم يعودوا يسمعون صوت عقل أو منطق. وكان في مسجد الكوفة وقت التمرد والفتنة اثنان من أصحاب رسول الله، هما: حذيفة بن اليمان، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري، وكان أبو مسعود غاضبًا لتمرد وثورة الرعاع وخروجهم إلى الجرعة، وعزلهم الوالي سعيد، وعصيانهم له، وهي أول مرة تحصل، بينما كان حذيفة بعيد النظر، يتعامل مع الحدث بموضوعية وتفكير.

قال أبو مسعود لحذيفة: لن يعودوا من الجرعة سالمين، وسيرسل الخليفة جيشًا لتأديبهم، وستُسفك فيها دماء كثيرة، فرد عليه حذيفة قائلاً: والله سيعودون إلى الكوفة، ولن يكون هناك

اشتباك أو حرب ولن تُسفك هناك دماء، وما أعلم من هذه الفتن شيئًا، إلا وقد علمته من رسول الله وهو حي؛ حيث أخبرنا عن هذه الفتن التي نراها اليوم قبل وفاته، ولقد أخبرنا رسول الله أن الرجل يصبح على الإسلام ثم يُمسي وليس معه من الإسلام شيء، ثم يقاتل المسلمين، فيرتد وينكص قلبه ويقتله الله غداً، وسيكون هذا فيما بعد. لقد كان حذيفة بن اليمان متخصصًا في علم الفتن، وتعامل مع فتن السبئيين في الكوفة وغيرها وفق ما سمعه وعلمه من رسول الله، واستحضر ما حفظه من تلك الأحاديث، ففهم حقيقة ما يجري حوله، ولم يستبعده ولم يستغربه، وحاول الإصلاح ما أمكنه.

قام أبو موسى الأشعري بتهدئة الأمور، ونهى الناس عن العصيان، وقال لهم: أيها الناس، لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير. فقالوا: فصلِّ بنا. قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان. قالوا: على السمع والطاعة لعثمان.

وما كانوا صادقين في ذلك، لكنهم كانوا يُخفون أهدافهم الحقيقية عن الآخرين، وكان أبو موسى يُصلي بالناس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه واليًا على الكوفة، ولما هدأت الأمور في الكوفة إلى حين - في سنة أربع وثلاثين - عاد حذيفة بن اليمان إلى أذربيجان والباب يقود جيوش الجهاد هناك، وعاد العمال والولاة إلى أعمالهم في مناطق فارس.

وهنا نلحظ أنهم كلما أحدثوا تطورًا ملحوظًا سكنوا وهدأو كالحرباء، تلدغ ثم تسكن، هم الآن أحدثوا تطورًا كبيرًا في سياسة الخلافة، فقد صار الآن أهل كل مصر يستطيعون خلع من يريدون بالخروج له في الطريق ومنعه من الدخول إلى ولايته، وهذا تقدم كبير لهم على أرض الواقع تمهيدًا للكارثة الكبرى التي يُجهزون لها.

كتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتابًا يبين فيه الحكمة من استجابته لطلبهم في عزل سعيد وتعيين أبي موسى بدله، وهي رسالة ذات دلالات هامة، وتُبين طريقة عثمان في

مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيل اشتعالها ما استطاع، مع علمه اليقيني أنها قادمة، وأنه عاجز عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله، قال لهم عثمان في رسالته: أما بعد، فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشن لكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، واسألوني كل ما أحببتم مما لا يُعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم عليَّ حجة، وكتب بمثل ذلك في الأمصار. فرضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما أصلحه، وأوسع صدره، وكم ظلمه السبئيون والخارجون والحاقدون وكذبوا وافتروا عليه، وكم في قلبه من لين ومحبة ورقة، وأيضًا نلمح في سلوكه رقيًا كبيرًا ورفعة علو في همته، فهو يريد ألا يجعل لهم عليه حجة أمام الله، وما كان من حقه فهو يسامحهم فيه ويصبر عليهم ويسوسهم بالرحمة والعدل.

وهنا ننتقل إلى المدينة المنورة لننظر ماذا كان من أمر أمير المؤمنين

وبماذا شرع في مواجة هذه الفتنة.

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله وغيرهما لما سمعوا من الإشاعات التي بثها عبد الله بن سبأ في الأمصار، فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل وقالوا: يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا والله، ما جاءني إلا السلامة. قالوا: فإنا قد أتانا. وأخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة التي تموج بها الأمصار الإسلامية، وعن الهجوم الشرس على ولاته في كل صقع. فقال: أنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليَّ؟ قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بخبرهم، فقام عثمان بإجراء سديد عظيم، وتخير نفرًا من الصحابة لا يختلف اثنان في صدقهم وتقواهم وورعهم ونصحهم، اختار محمد بن مسلمة الذي كان عمر يأتمنه على محاسبة ولاته والتفتيش عليهم في الأقاليم، وأسامة بن زيد حِبّ رسول الله وابن حِبِّه، وأمير الجيش الذي أوصى النبي بإنفاذه في آخر عهده بالدنيا، فقال: أنفذوا بعث أسامة. وعمار بن

ياسر السبَّاق إلى الإسلام، والمجاهد العظيم، وعبد الله بن عمر، التقي الفقيه الورع. فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة إلى البصرة، وعمار إلى مصر، وابن عمر إلى الشام، وكانوا على رأس جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة، فمضوا جميعًا إلى عملهم الشاق المضني الخطير العظيم، ثم عادوا جميعًا عدا عمار بن ياسر الذي استبطأ في مصر ثم عاد، وقدموا بين يدي أمير المؤمنين ما شاهدوه وسمعوه وسألوا الناس عنه، وكان ما جاء به هؤلاء واحدًا في كل الأمصار، وقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكر المسلمون إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم. وأما ما رُوي من اتهام عمار بن ياسر بالتأليب على عثمان فإن أسانيد الروايات التي تتضمن هذه التهمة ضعيفة، لا تخلو من علة، كما أن في متونها نكارة.

رجع مفتشو الأمصار، واتضح بأنه ليس هناك ما يوجب على الخليفة أن يعزل واحدًا من ولاته، والناس في عافية وعدل وخير ورحمة واطمئنان، وأمير المؤمنين يعدل في القضية، ويقسم

بالسوية، ويرعى حق الله وحق الرعية، وما يثار هو شكوك وأراجيف وأكاذيب يبثها الحاقدون في الظلمات لكي لا يعرف مصدرها، ولكن الخليفة البار الراشد العظيم لم يكتفِ بهذا، بل كتب إلى أهل الأمصار:

ثم كتب عثمان رسالة إلى كل أهل الأمصار تدل على عدل بالغ وتقوى لله ووجل منه، ومحبة للمسلمين واستئثار لهم على نفسه، وهاك نص الرسالة: "أما بعد: فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة منذ وُلِّيت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضُرب سرًا، وشُتم سرًا، من ادعى شيئًا من ذلك فليوافِ الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين، فلما قُرئ في الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان، وقالوا: إن الأمة لتمخَّض بِشَرّ".

بالله هل سمعتم مثل هذا عدلاً وتقى وخشية من الله وحب لرعيته؟ إنه يحثهم على المجيء إليه ليشتكوا إليه ولاتهم إن كان لهم عندهم مظلمة، ويريد أن يعلمهم أن حقوقهم مصونة وأن العدل قائم، وأيضًا أراد بذلك ألا يبقى حجة لمن يخرج ضده بعد اليوم، ولكن هذا الحل كان من الممكن أن يُنهي الأزمة مع أناس أسوياء بالفعل، يشغلهم أمر دينهم وبلدهم ويريدون الإصلاح والعيش الهانئ، ولا يصلح هذا أبدًا مع أهل الفتن من دبروا لهذه الأمة ليقضوا عليها ويفنوها، من يبذلون الغالي والنفيس من أجل إجهاض هذه الدعوة المباركة وحصر هذا الدين حتى لا يعد له قائمة، فهؤلاء ليسوا أصحاب مظالم أو حقوق، ولكنهم أصحاب فتن ومؤامرات.

ثم بعث عثمان إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجل؛ عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص – وهم من الولاة السابقين – وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، جرت

فيها الأبحاث التالية التي تُقرر خطة العمل الجديدة على ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام. قال عثمان: ويحكم ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن يكون مصدوقًا عليكم وما يعصب هذا إلا بي (يقصد أنكم إن ظلمتم قيل إنما ظلم ولاة عثمان)، فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها. قال: فأشيروا عليَّ، فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يُصنع في السر، فيُلقي به غير ذي معرفة، فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم (أي ينشر فيه أكاذيب لأناس يجهلون حقيقتها)، قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم. وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم، فإنه خير من أن تدعهم. قال معاوية: قد وليتني فوليت قومًا لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما. قال:

فما الرأي؟ قال: حسن الأدب. قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراضيت عنهم، وزدتهم عما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرًا، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعًا اللين (فكلام عمرو بن العاص هو الأصوب في هذه المسألة، يرى أن يجمع مع اللين شدة لمن يضمر الشر للناس ويجعل اللين لأهل النصح والخير).

فقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال: كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يُغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، فإن سده شيء فرفق، فذاك والله ليفتحن، وليست لأحد عليّ حجة حق، وقد علم الله أني لم آلِ الناس خيرًا، ولا نفسي، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم،

وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدْهنوا فيها.

كان رأي عثمان في هذه المسالة أن لكل أمر بابًا يُؤتى منه وأن الباب الذي يمكنه تهدئة هذا الأمر ويكفكف منابعه هو اللين والمتابعة والرفق، إلا في حدود الله عز وجل، فهو لا يرى له سدًا إلا بالرفق، فإذا ما أقبلت الفتنة بعد كل هذا فلا يكون لأحد عليه حجة أمام الله، فيكون هو قد أدى ما عليه، وهو مدرك تمام الإدراك أن الفتنة قادمة لا محالة، فلا يريد أن يكون هو من يدير رحاها، ولو جاد في ذلك بنفسه، فلا يكون سببًا فيها أبدًا، وهذا كما يبدو هو ما اتفق عليه عثمان رضي الله عنه مع رسول الله حين أخبره بما هو كائن، فكأنما أعلمه كل شيء، فلذلك ستجد أن عثمان يتكلم بمعطيات ليست مع مستشاريه، فهناك سر كبير وحديث دار بينه وبين رسول الله، أعلمه فيه بكل شيء، لذلك ستجدونه يتصرف بطريقة عجيبة لا تجد لها مثيلاً في التاريخ، كأنما رضي أن تكون نفسه دون أنفس الناس، وروحه دون أرواحهم، فيلقى الله وليس عليه شيء، فكأنما هذا الجواد المعطاء

اختُبر في ماله فما بخل به، والآن يُختبر في نفسه وصبره وسيجود بها صابرًا محتسبًا مقبلاً على ربه.

لقد خالف عثمان رأي أخيه عمرو باتباع الشدة، ولم يخالفه في اتباع سُنّة صاحبيه، فرحى الفتنة دائرة، ولا تُعالج بالعنف؛ لأن العنف هو الذي يدير هذه الرحى، ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها (فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها)، وكان واضحًا صريحًا فيما لا هوادة فيه، وهي حدود الله، فلا مداهنة فيها، وما غير ذلك؛ فالرفق أولى والمغفرة أفضل، ولا بد من تأدية الحقوق كلها.

وقبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشام، أتى إلى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قبل لك بها.

قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي. قال له معاوية: إذن أبعث لك جيشًا من أهل الشام يقيم في المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة ليدافع عنك وعن

أهل المدينة. قال عثمان: لا، حتى لا أقتِّر على جيران رسول الله الأرزاق بجند تساكنهم، ولا أضيق على أهل الهجرة والنصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتالنّ أو لتُغزينّ. قال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

لكأنما معاوية كان يعلم أن وراء تلك الفتن والشائعات يدًا خبيثة تُخطط لهدف مرهوب ليس دونه إلا ضرب الخليفة والخلافة، لكن عثمان الخليفة الراشد كان له رأي آخر، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطريق حتى لا يترك لهم حجة عند الله وعند الناس، فيفضحهم في الدنيا والآخرة، وتلك مصابرة عظيمة من هذا الإمام العادل العظيم، ولعل هذا هو ما اتفق عليه مع رسول الله وما كان بينه وبين حبيبه حين أخبره بما هو كائن، فلعل كل هؤلاء يفكرون بمنطق صحيح دنيوي، ولكنه هو معه من رسول الله العلة ودواؤها، وهذا ما اتفق عليه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يدخل المتمردون إلى المدينة، مدينة رسول الله، ليكونوا

فيها شر جيران لخير خلق الله، وقد دخلوا وهم للفوضى أدعى وللهرج أولى.

و كان أمير المؤمنين عثمان من اليقظة والوعي ما يجعله يحقق بقلم استخباراته مع هؤلاء المتآمرين، حيث بث في صفوفهم رجلين من المسلمين، كانا قد عوقبا من الخليفة، ليطمئن المتآمرون إليهما، فقد أرسل عثمان رجلين، مخزوميًا (من بني مخزوم) وزهريًا (من بنى زهرة)، فقال: انظرا ما يريدون واعلما علمهم. فلما رأوهما تحدثوا إليهما وأخبروهما بما يريدون، فقالا: من معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر، فقالا: هل إلا؟ قالوا: لا، قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ وشرح هؤلاء القوم للرجلين أبعاد المؤامرة كاملة والخطة المقترحة، وقالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه وكانت إياها. فرجعا إلى عثمان فضحك وقال: اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تسلمهم شقوا.

إنه يدعو لهم وهم يضمرون له العداء والمكر والمكيدة، أي نبل هذا وأي شجاعة تلك، وأي صفاء نفس ونقاء سريرة تلك التي ينعم بها عثمان؟ يدعو لمن يدبرون لقتله، فطوبى لك يا ابن عفان.

فأرسل إلى الكوفيين والبصريين ونادى: الصلاة جامعة، وهم عنده في أصل المنبر، فأقبل أصحاب رسول الله حتى أحاطوا بهم، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، وحقيقة ما يريدون من تأكيد الشبهات عليه تمهيدًا للخروج عليه وخلعه أو قتله، وقام الرجلان اللذان حادثا السبئيين، فشهدا بما أخبروهما به، فقال المسلمون جميعًا في داخل المسجد: اقتلهم يا أمير المؤمنين، لأنهم يريدون الخروج على أمير المؤمنين، وتفريق كلمة المسلمين. ورفض عثمان دعوة الصحابة لقتلهم؛ لأنهم مسلمون في الظاهر، من رعيته، ولا يرضى أن يقال: عثمان يقتل مسلمين مخالفين له، ولذلك رد عثمان بن عفان على تلك الدعوة قائلاً: لا نقتلهم، بل نعفو ونصفح، ونبصرهم بجهدنا، ولا نقتل أحدًا من المسلمين، إلا إذا ارتكب حدًّا يوجب القتل، أو أظهر ردة وكفرًا.

ثم كانت المواجهة في المسجد النبوي لكل أهل الفتنة ودعاتها، وحدثت مناظرة سطرها التاريخ وأخبرنا بنا شيخ المؤرخين ابن جرير رحمه الله، فقال:

"فدعا عثمان القوم السبئيين إلى عرض ما عندهم من شبهات وإظهار ما يرونه من أخطاء وتجاوزات ومخالفات وقع هو فيها، وكانت جلسة مصارحة ومكاشفة في المسجد على مرأى ومسمع من الصحابة والمسلمين، فتكلم السبئيون وعرضوا الأخطاء التي ارتكبها عثمان - على حد زعمهم -وقام عثمان بالبيان والإيضاح وقدّم حججه وأدلته فيما فعل، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المصارحة والمحاسبة والمكاشفة، وأورد عثمان ما أخذوه عليه، ثم بيّن حقيقة الأمر، ودافع عن حُسن فعله، وأشهد معه الصحابة الجالسين في المسجد.

١ - قال: قالوا: إني أتممت الصلاة في السفر، وما أتمها قبلي رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر، لقد أتممت الصلاة لما سافرت من المدينة إلى مكة، ومكة بلد فيها أهلي فأنا مقيم بين أهلي، ولست مسافرًا،

أكذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٢- وقالوا: إني حميت حمى، وضيَّقت على المسلمين، وجعلت أرضًا واسعة خاصة لرعي إبلي، ولقد كان الحمى قبلي لإبل الصدقة والجهاد، حيث جعل الحمى كل من رسول الله وأبو بكر وعمر، وأنا زدت فيه لما كثرت إبل الصدقة والجهاد، ثم لم نمنع ماشية فقراء المسلمين من الرعي في ذلك الحمى، وما حميت لماشيتي، ولما وليت الخلافة كنت من أكثر المسلمين إبلاً وغنماً، وقد أنفقتها كلها، ومالي الآن ثاغية ولا راغية، ولم يبقَ لي إلا بعيران، خصصتهما لحجي، أكذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٣- وقالوا: إني أبقيت نسخة واحدة من المصاحف، وحرقت ما سواها، وجمعت الناس على مصحف واحد، إلا أن القرآن كلام الله، من عند الله، وهو واحد، ولم أفعل سوى أن جمعت المسلمين على القرآن، ونهيتهم عن الاختلاف فيه، وأنا في فعلي هذا تابع لما فعله أبو بكر، لما جمع القرآن، أكذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٤- وقالوا: إني رددت الحكم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان

رسول الله نفاه إلى الطائف، إن الحكم بن العاص مكي، وليس مدنيًا، وقد سيره رسول الله من مكة إلى الطائف، وأعاده الرسول إلى مكة بعدما رضي عنه، فالرسول سيّره إلى الطائف، وهو الذي رده وأعاده، أكذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

٥- وقالوا: إني استعملت الأحداث ووليت الشباب صغار السن، ولم أولِّ إلا رجلاً فاضلاً محتملاً مرضيًا، وهؤلاء الناس أهل عملهم فسلوهم عنهم. ولقد ولّى الذين من قبلي من هم أحدث منهم وأصغر منهم سنًا، ولقد ولّى رسول الله أسامة بن زيد وهو أصغر ممن وليته، وقالوا لرسول الله أشد مما قالوا لي، أكذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم، إن هؤلاء الناس يعيبون للناس ما لا يفسرونه ولا يوضحونه.

٦- وقالوا: إني أعطيت عبد الله بن سعد بن أبي السرح ما أفاء الله به، وإنما أعطيته خمس الخمس - و كان مائة ألف - لما فتح إفريقية، جزاء جهده، وقد قلت له: إن فتح الله عليك إفريقية فلك خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، وقد فعلها قبلي أبو بكر وعمر - رضي

الله عنهما - ومع ذلك قال لي الجنود المجاهدون: إنا نكره أن تُعطيه خمس الخمس ولا يحق لهم الاعتراض والرفض، فأخذت خمس الخمس من ابن سعد ورددته على الجنود، وبذلك لم يأخذ ابن سعد شيئًا، أكذلك؟ قال الصحابة: اللهم نعم.

٧- وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي لأهل بيتي فإنه لم يحملني على أن أميل معهم إلى جور وظلم الآخرين، بل أحمل الحقوق عليهم وآخذ الحق منهم، وأما إعطاؤهم فإني أعطيهم من مالي الخاص، وليس من أموال المسلمين، لأني لا أستحل أموال المسلمين، ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفني عمري، وجعلت مالي الذي لي لأهلي وأقاربي، قال الملحدون ما قالوا؟ وإني والله ما أخذت من مصر من أمصار المسلمين مالاً ولا فضلاً، ولقد رددت على تلك الأمصار الأموال، ولم يحضروا إلى المدينة إلا الأخماس من

الغنائم، ولقد تولى المسلمون تقسيم تلك الأخماس، ووضعها في أهلها، ووالله ما أخذت من تلك الأخماس وغيرها فِلْسًا فما فوقه، وإنني لا آكل إلا من مالي، ولا أعطي أهلي إلا من مالي.

٨- وقالوا: إني أعطيت الأرض المفتوحة لرجال معينين، وأن هذه الأرضين المفتوحة قد اشترك في فتحها المهاجرون والأنصار وغيرهم من المجاهدين، ولما قسمت هذه الأراضي على المجاهدين الفاتحين، منهم من أقام بها واستقر فيها، ومنهم من رجع إلى أهله في المدينة أو غيرها، وبقيت تلك الأرض ملكًا له، وقد باع بعضهم تلك الأراضي، وكان ثمنها في أيديهم.

وبذلك أورد عثمان أهم الاعتراضات التي أُثيرت عليه، وتولى توضيحها، وبيان وجه الحق فيها. وترى من ذلك الدفاع المحكم الذي دافع به عثمان بن عفان، وساجل الصحابة فيه وذاكرهم إياه، صورة لما كان يجري من النقد المر العنيف له وما كان يشيعه السبئيون من مقالة السوء، وما يعملون على ترويجه من باطل مزيف، فقد أجمل ذكر الاعتراضات التي كانوا يعترضون بها

عليه، وبيَّن وجه الحق فيما يفعل، وأنه كان على بينة من أمره وعلى حجة من دينه، ولكنهم مغرضون لا يريدون رشادًا، ولا يبغون سدادًا، فمجادلته لهم مجادلة رجل مخلص مع آخر يتربص به الدوائر ويتسقط هفواته لينفذ أغراضًا، ويُلقي في نفوس الناس عنه إعراضًا، ومن كان شأنه كذلك لا تُقنعه الحجة، ولا يهديه الدليل، ومن يضلل الله فلا هادي له.

وقد سمع كلامه وتوضيحه زعماء أهل الفتنة الذين بجانب المنبر، كما سمعه الصحابة الكرام ومن معهم من المسلمين الصالحين، وتأثر المسلمون بكلام عثمان وبيانه وتوضيحه وصدقوه فيما قال، وازدادوا له حبًّا، وأما السبئيون دعاة الفتنة والفرقة، فلم يتأثروا بذلك ولم يتراجعوا؛ لأنهم لم يكونوا باحثين عن حق، ولا راغبين في خير، إنما كان هدفهم الفتنة، والكيد للإسلام والمسلمين.

وقد أشار الصحابة والمسلمون على عثمان بقتل أولئك السبئيين (زعماء الفتنة) بسبب ما ظهر من كذبهم وتزويرهم وحقدهم، بل أصروا عليه في قتلهم، ليتخلص المسلمون من شرهم، وتستقر

بلاد المسلمين ويقضي على الفتنة التي يثيرها هؤلاء وأتباعهم، ولكن عثمان كان له رأي آخر وتحليل مغاير، فآثر أن يتركهم، ورأى عدم قتلهم محاولة منه لتأخير وقوع الفتنة، ولم يتخذ عثمان ضد السبئيين القادمين من مصر والكوفة والبصرة أي إجراء مع علمه بما يخططون ويريدون، وتركهم يغادرون المدينة ويعودون إلى بلادهم.

ثم نأتي لعلامة فارقة لا أقول في تاريخ ذي النورين، بل في تاريخ الأمة كلها، وهي احتلال المدينة المنورة احتلالاً كاملاً، فقد اتفق أهل الفتنة فيما بينهم على القيام بخطوتهم العملية النهائية في مهاجمة عثمان في المدينة، وحمله على التنازل عن الخلافة وإلا يُقتل، وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر والكوفة والبصرة في موسم الحج، وأن يغادروا بلادهم مع الحجاج، وأن يكونوا في صورة الحجاج، وأن يُعلنوا للآخرين أنهم خارجون للحج، فإذا وصلوا المدينة، تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحج، واستغلوا فراغ المدينة من معظم أهلها - المشغولين بالحج

- وقاموا بمحاصرة عثمان تمهيدًا لخلعه أو قتله. وفي شوال سنة خمس وثلاثين كان أهل الفتنة على مشارف المدينة، فقد خرج المتمردون من مصر في أربع فرق لكل فرقة أمير، ولهؤلاء الأمراء أمير، ومعهم شيطانهم عبد الله بن سبأ، وأمراء الفرق الأربعة هم: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشير التجيبي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقي بن حرب العكي، وكان عدد الفرق الأربعة ألف رجل. وخرج المتمردون من الكوفة ألف رجل، في أربع فرق، وأمراء فرقهم هم: زيد بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم، وأمير متمردي الكوفة هو عمرو بن الأصم. وخرج متمردو البصرة ألف رجل، في أربع فرق، وأمراء فرقهم، هم: حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد، وبشر بن شريح القيسي، وابن المحرش بن عبد الحنقي، وأمير متمردي البصرة هو حرقوص بن زهير السعدي. وكان عبد الله بن سبأ يسير مع هؤلاء مزهوًا مسرورًا بنجاح خطته

اليهودية الشيطانية، وكان أهل الفتنة من مصر يريدون علي بن أبي طالب خليفة، وكان أهل الفتنة من الكوفة يريدون الزبير بن العوام خليفة، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله.

وهذا العمل منهم كان بهدف الإيقاع بين الصحابة رضوان الله عليهم، وهو ما ذهب إليه الآجري، حيث قال: وقد برأ الله - عز وجل - علي بن أبي طالب وطلحة والزبير رضي الله عنهم من هذه الفرق، وإنما أظهروا ليموهوا على الناس وليوقعوا بين الصحابة، وقد أعاذ الله الكريم الصحابة من ذلك.

انظر أخي الكريم كيف أنهم مرتبين ترتيبًا ينم عن خطة محكمة، وهم يتحركون في خطة هذا الشيطان الذي جعل كل بلد تطلب خليفة مختلفًا حتى تتفرق الكلمة ويقتتل الناس، بل وتقتتل الصحابة، وهذا هو فكر أعداء هذه الأمة من يريدون تشتيت كلمتها وتمزيق وحدتها حتى تقتتل داخليًا، فهم لم يقدروا على مواجهة أمتنا بالسيف فما كان منهم إلا أن واجهوها بالحيلة والمكيدة والمكر.

وبلغ خبر قدومهم عثمان قبل وصولهم، وكان في قرية خارج المدينة، فلما سمعوا بوجوده فيها اتجهوا إليه فاستقبلهم فيها، ولم تُصرح لنا الروايات باسم هذه القرية، ويحدد المدائني تاريخ قدومهم بليلة الأربعاء هلال ذي القعدة، وكان أول من وصل المصريين، فقالوا لعثمان: ادع بالمصحف، فدعا به، فقالوا: افتح السابعة، وكانوا يسمون سورة يونس بالسابعة، فقرأ حتى أتى هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[يونس: ٥٩]. فقالوا له: قف، أرأيت ما حميت من الحمى؟ الله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: امضه نزلت في كذا وكذا، فأما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة، فلما وُليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة. امضه، قال: فجعلوا يأخذونه بالآية، فيقول: امضه نزلت في كذا فما يزيدون، فأخذوا ميثاقه، وكتبوا عليه شرطًا، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين.

انهم لا يفهمون ولا يعقلون، يلومون عليه ما قد أجابهم فيه قبل ذلك، لكنهم من الجهل والصم والعمى ما لا يمكنهم فهم ولا يسعهم علم، بل تحترق قلوبهم على هذا العملاق ولا يريدون إلا خلعه بل قتله، ومن المفترض أن يكون الأمر قد انتهى، فقد أقام عليهم الحجة جميعًا، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

ونزل القوم من أهل البصرة والكوفة في ذي المروة، قبل مقتله بما يقارب شهرًا ونصف، فأرسل عثمان إليهم عليًا ورجلاً آخر لم تسمه الروايات، والتقى بهم علي فقال لهم: تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم، فوافقوا على ذلك. وفي رواية أنهم شادوه، وشادهم مرتين أو ثلاثًا، ثم قالوا: ابن عم رسول الله ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله فقبلوا، فاصطلحوا على خمس: على أن المنفى يُقلب، والمحروم يُعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويستعمل ذو الأمانة والقوة، وكتبوا ذلك في كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأن يبقى أبو موسى على الكوفة.

وهكذا اصطلح عثمان مع كل وفد على حدة، ثم انصرفت الوفود إلى ديارها، هو قابل أهل مصر وعلى قابل وفدي الكوفة والبصرة، وهنا يتبادر للذهن أن الأمر قد انتهى والفتنة قد أُخمدت وكل قوم عائدين إلى ديارهم، ولكن كانت المفاجأة، فبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعا راضين تبين لمشعلي الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق، لذا خططوا تخطيطًا آخر يُذكي الفتنة ويحييها، يقتضي تدمير ما جرى من صلح بين أهل الأمصار وعثمان، وبرز ذلك فيما يأتي: في أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكبًا على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم - يُظهر أنه هارب منهم - فكأنه يقول: خذوني، فقبضوا عليه، وقالوا له: ما لك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله، ففتحوا الكتاب فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم، فرجعوا إلى المدينة حتى وصلوها. ونفى عثمان أن يكون كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إنهما اثنتان: أن تقيموا

رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت، ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل ويُنقش الخاتم، فلم يصدقوه.

وهذا الكتاب الذي زعم هؤلاء المتمردون البغاة المنحرفون أنه من عثمان، وعليه خاتمه يحمله غلامه على واحدة من إبل الصدقة إلى عامله بمصر ابن أبي السرح، يأمر فيه بقتل هؤلاء الخارجين هو كتاب مزور مكذوب على لسان عثمان، فهناك أمور كثيرة دلت على كذب هذا الادعاء، لكني سوف آخذ منها هذا الدليل لأنه سيُعيننا في فهم كثير من غوامض الأمور.

إن تخلف حُكيم بن جبلة والأشتر النخعي - بعد خروج المتمردين - في المدينة يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذ لم يكن لهما أي عمل بالمدينة ليتخلفا فيها، وما مكثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا المصلحة في ذلك. وربما كان ذلك بتوجيه من عبد الله بن سبأ، ولم يكن لعثمان في ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان بن الحكم أية مصلحة، والذين

يتهمون مروان في هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهامه، وأن في ديوان الخلافة من يُجري الأمور ويقضي بها دون علمه، وبذلك يُبرئون ساحة أولئك المجرمين الناقمين، الغادرين، ثم لو أن مروان زور الكتاب لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يبتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم في الطريق حتى يأخذوه، وإلا لكان متآمرًا معهم على عثمان، وهذا محال.

وهنا بدأ ليس فقط دخول المدينة وإنما حصار بيت أمير المؤمنين، حصار ذي النورين في بيته ومنعه عن الناس، وكان ذلك على النحو التالي:

لم تفصِّل الروايات الصحيحة كيفية بدء الحصار ووقوعه، ولعل الأحداث التي سبقته تُلقي شيئًا من الضوء على كيفية بدئه، فبينما كان عثمان يخطب الناس ذات يوم إذا برجل - يقال له أعين - يقاطعه ويقول له: يا نعثل (تحقيرًا من شأنه)، إنك قد بدلت، فقال عثمان: من هذا؟ فقالوا: أعين، قال عثمان: بل أنت أيها العبد، فوثب الناس إلى أعين، وجعل رجل من بني ليث يزعهم عنه

حتى أدخله الدار، وكان رجوع المتمردين الثاني، وقبل اشتداد الحصار كان عثمان يتمكن من الخروج للصلاة ودخول من شاء إليه، ثم مُنع من الخروج من الدار حتى إلى صلاة الفريضة، فكان يصلي بالناس رجل من المحاصِرين من أئمة الفتنة، حتى إن عبيد الله بن عدي بن الخيار تحرج من الصلاة خلفه، فاستشار عثمان في ذلك، فأشار عليه بأن يصلي خلفه، وقال له: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم. وفي بعض الروايات الضعيفة أن الذي كان يصلي بالناس هو أميرهم الغافقي. ولا صحة لما روى الواقدي من أن عليًّا أمر أبا أيوب الأنصاري أن يصلي بالناس فصلى بهم أول الحصر، ثم صلى علي بهم العيد وما بعده. وإضافة إلى شدة ضعف إسناد هذه الرواية، فلو كان الذي يصلي بالناس هو علي، أو أبو أيوب - رضي الله عنهما - لما تحرج عبيد الله بن عدي بن الخيار من الصلاة خلفهما.

وبعد أن تم الحصار، وأحاط الخارجون على عثمان بالدار؛ طلبوا

منه خلع نفسه أو يقتلوه، فقد رفض عثمان خلع نفسه، وقال: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله (قميصًا ألبسنيه الله). يشير إلى ما أوصاه به رسول الله بينما كان قلة من الصحابة - رضوان الله عليهم - يرون خلاف ما ذهب إليه، وأشار عليه بعضهم بأن يخلع نفسه ليعصم دمه، ومن هؤلاء المغيرة بن الأخنس، لكنه رفض ذلك.

رفض عثمان بثبات عجيب، وكأنما يعلم كل هذا وما سيحدث، وإنما ينتظر قضاء الله الذي أعلمه به حبيبه صلى الله عليه وسلم، وينتظر اليوم الذي يكون فيه مع أصحابه، فغدًا يلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وهنا دخل ابن عمر على عثمان - رضي الله عنهما - أثناء حصاره، فقال له عثمان: انظر إلى ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا؟ فقال عثمان: لا، قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال عثمان: لا، قال: فهل يملكون لك جنة أو

نارًا؟ قال: لا، قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصًا قمَّصكه الله فتكون سُنّة، كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه.

أي فقه هذا الذي كان عند ابن عمر رضي الله عنه، وكأنما يُبصر بنور الله، كأنما امتزج هواه مع كلام نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو يرى أن الدول لا تقوم هكذا إنما يجب أن تقوم على النظم والقوانين واتباع الأعراف السائدة بين الدول، فلذلك قال له لا تفعل فلن يزيدوا شيئًا غير ما قدر لك ربنا.

وبينما كان عثمان في داره، والقوم أمام الدار محاصروها، دخل ذات يوم مدخل الدار، فسمع توعد المحاصرين له بالقتل، فخرج من المدخل ودخل على من معه في الدار ولونه ممتقع، فقال: إنهم ليتوعدونني بالقتل آنفًا، فقالوا له: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين، فقال: ولِمَ يقتلونني وقد سمعت رسول الله يقول: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس؟ فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله،

ولا قتلت نفسًا، ففيم يقتلونني؟!" ثم أشرف على المحاصرين وحاول تهدئة ثورتهم عن خروجهم على إمامهم، مضمنًا كلامه الرد على ما عابوه به، وكشف الحقائق التي لبَّسها القوم، عسى أن يفيق المغرور بهم ويعود إلى رشده، فطلب من المحاصرين أن يُخرجوا له رجلاً يكلمه، فأخرجوا له شابًا يقال له صعصعة بن صوحان، فطلب عثمان أن يبين له ما نقموه عليه.

قال صعصعة: أخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، فقال له عثمان:

اتل - أي استدل بالقرآن - فقرأ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج : ٣٩].

فقال عثمان: ليست لك، ولا لأصحابك، ولكنها لي ولأصحابي، فقرأ عثمان الآية التي استدل بها صعصعة وما بعدها، مما يفسرها ويبين زيف استدلال صعصعة بها فتلا:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج : ٣٩-٤١].

فأفهم عثمان الناس الآيات فهماً صحيحًا كما نزلت، مبينًا سبب نزولها وفيمن نزلت، وعلى ما تدل؛ لئلا يلبس عليهم من قرأ القرآن، وهو لا يعرف معناه ويستدل به على ما يضاد مراده. كما أن نفي عثمان لمن نفاه إنما هو عمل بالآية التي تلي الآية التي استدل بها صعصعة، فإنها تأمر من مكنه الله في الأرض أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وعثمان خليفة، ونفيهم أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لما قاموا به من تعدٍّ على بعض المسلمين، ومن محاولات لإثارة الفتنة.

وبعد أن رد عثمان على هؤلاء ذكّر الناس بمكانته وببعض فضائله، مناشدًا من يعلمها أو سمعها من رسول الله ليبينها للناس، فقد قال: أنشد الله من شهد رسول الله يوم حراء إذ اهتز الجبل فركله بقدمه ثم قال: اسكن حراء، ليس عليك إلا نبي

أو صدِّيق أو شهيد وأنا معه. فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله يوم بيعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين إلى أهل مكة فقال: هذه يدي وهذه يد عثمان، فبايع لي، فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله قال: من يوسع لنا البيت في المسجد ببيت له في الجنة، فابتعته من مالي فوسعت به المسجد، فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد الله من شهد رسول الله يوم جيش العسرة قال: من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالي، فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد الله من شهد رومة يباع ماؤها ابن السبيل فابتعتها من مالي فأبحتها ابن السبيل، قال: فانتشد له رجال.

وعن أبي ثور الفهمي يقول: قدمت على عثمان، فبينما أنا عنده فخرجت فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا، فدخلت على عثمان فأعلمته، قال: فكيف رأيتهم؟ فقلت: رأيت في وجوههم الشر، وعليهم ابن عديس البلوي، فصعد ابن عديس منبر رسول الله فصلى بهم الجمعة، وتنقص عثمان في خطبته، فدخلت على عثمان

فأخبرته بما قال فيهم، فقال: كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكر ما ذكرت، إني رابع أربعة في الإسلام، ولقد أنكحني رسول الله ابنته، ثم تُوفيت، فأنكحني ابنته الأخرى، ولا زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا أتت عليَّ جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة، فأجمعها في الجمعة الثانية).

ولما رأى عثمان إصرار المتمردين على قتله حذرهم من ذلك ومن مغبته، فاطلع عليهم من كوة (فتحة شباك) وقال لهم: أيها الناس، لا تقتلوني واستعتبوني، فوالله لئن قتلتموني لا تُقاتلوا جميعًا أبدًا، ولا تُجاهدوا عدوًا أبدًا، لتختلفن حتى تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه. وفي رواية أنه قال: أيها الناس، لا تقتلوني، فإني والٍ وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت، أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلوني لا تُصلّون جميعًا أبدًا، ولا تغزون

جميعًا أبدًا، ولا يُقسّم فيئكم بينكم. وقال أيضًا: فوالله لئن قتلوني لا يُحابون بعدي أبدًا، ولا يُقاتلون بعدي أبدًا. وقد تحقق ما حذرهم منه؛ فبعد قتله وقع كل ما قاله، وفي ذلك يقول الحسن البصري: فوالله إن صلى القوم جميعًا إن قلوبهم لمختلفة.

وكأنما لا يكلمهم عثمان وحدهم، إنما يكلم الأمة كلها إلى قيام الساعة، فنحن لم ولن نجتمع بعده أبدًا، وكأنما دين دم عثمان علق في رقبة الأمة إلى قيام الساعة، فلن تُصلي خلف إمام واحد أبدًا.

وقد عرض عليه جماعة من الصحابة أن يمنعوه ويقاتلوا المتمردين ويفنوهم عن آخرهم، فمن بين هؤلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير بن العوام والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن الزبير وأبو هريرة وكعب بن مالك وزيد بن ثابت والحسن بن علي وعبد الله بن عمر وسليط بن سليط، ولما رأى بعض الصحابة إصرار عثمان على رفض قتال المحاصرين، وأن المحاصرين مصرون على قتله، لم يجدوا حيلة لحمايته سوى أن يعرضوا عليه مساعدته في الخروج إلى مكة هربًا من المحاصرين، فقد رُوي أن عبد الله بن

الزبير، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، عرضوا عليه ذلك، وكان عرضهم متفرقًا، فقد عرض كل واحد منهم عليه ذلك على حدة، وعثمان يرفض كل هذه العروض.

وكان موقف السيدة أم حبيبة أم المؤمنين من المواقف البالغة الخطر في هذه الأحداث، وهو موقف كان من الخطورة بحيث كادت - رضي الله عنها - أن تُقتل فيه، ذلك أنه لما حُوصر عثمان ومُنع عنه الماء، سرَّح عثمان ابنًا لعمرو بن حزم الأنصاري - من جيران عثمان - إلى علي بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا، وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى عائشة وأزواج النبي، فكان أولهم إنجادًا له علي وأم حبيبة. وكانت أم حبيبة معنية بعثمان، كما قال ابن عساكر، وكان هذا طبيعيًا منها؛ حيث النسب الأموي الواحد، جاءت أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل، قالوا: كاذبة، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندت بأم حبيبة فتلقاها

الناس وقد مالت راحلتها، فتعلقوا بها، وأخذوها وقد كادت تُقتل، فذهبوا بها إلى بيتها. ويبدو أنها - رضي الله عنها - أمرت ابن الجراح مولاها أن يلزم عثمان، فقد حدثت أحداث الدار، وكان ابن الجراح حاضرًا.

انظروا ماذا يفعل هؤلاء بزوجة رسول الله، بأم المؤمنين، فلو كانوا مؤمنين ما أظنهم يفعلون هذا بأمهم، وإن كانوا كافرين فما عهدنا العرب حتى في كفرهم إلا أهل مروءة ونجدة، وليس فيهم من يصنع بصنيع هؤلاء الأغرار السفلة السفهة، وانظروا إلى من سقى المسلمين يوم عطشهم واشترى لهم الماء بماله، يجلس عطشانًا لا يجد شربة ماء، وقد أدخلوا له ماء آسنًا عكرًا وقالوا له اشرب، وهو من سقى المسلمين عذب المياه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا نعرض لآخر خطبة خطبها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ذلك الحيي الذي تستحي منه الملائكة، أما الشياطين فلا يستحون. وكان آخر لقاء عام لعثمان مع المسلمين بعد أسابيع من الحصار؛

حيث دعا الناس، فاجتمعوا له جميعًا، المحارب الطارئ من السبئيين، والمسالم المقيم من أهل المدينة، وكان في مقدمة القادمين: علي وطلحة والزبير، فلما جلسوا أمامه قال لهم: إن الله - عز وجل - إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكم الدنيا لتركنوا إليها، وإن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية (يقصد لا تجعلوا الدنيا تشغلكم عن الآخرة)، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله، واتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جُنَّة ووقاية من بأسه وانتقامه، والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزابًا، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ثم قال للمسلمين: يا أهل المدينة: إني أستودعكم الله، وأسأله أن يُحسن عليكم الخلافة من بعدي، وإني والله لا أدخل على أحد بعد يومي هذا، حتى يقضي الله فيَّ

قضاءه، ولأدعَنَّ هؤلاء الخوارج وراء بابي، ولا أعطيهم شيئًا يتخذونه عليكم دَخَلاً في دين أو دنيا، حتى يكون الله هو الصانع في ذلك ما أحب، وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وابن الزبير وأشباهًا لهم، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناس كثير، ولزم عثمان الدار حتى أتاه أجله.

وعلم المتمردون بتحرك جيوش الأمصار منها لنجدة الخليفة، فقد كانت أيام الحج تنقضي سريعًا وتوشك جماعات من هؤلاء أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة، وبخاصة مع وجود عبد الله بن عباس وعائشة وغيرهما من المدافعين عن عثمان، وقدمت الأخبار إلى المتمردين بأن أهل الموسم يريدون نصرة عثمان، فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار إليهم، أعلقهم الشيطان وقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل، فيشتغل بذلك الناس عنا.

وفي آخر أيام الحصار - وهو اليوم الذي قُتل فيه - نام فأصبح

يحدِّث الناس: ليقتلنّي القوم، ثم قال: رأيت النبي في المنام، ومعه أبو بكر وعمر، فقال النبي: يا عثمان أفطر عندنا، فأصبح صائمًا وقُتل من يومه.

هاجم المتمردون الدار فتصدى لهم الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، فنشب القتال، فناداهم عثمان: الله الله، أنتم في حل من نصرتي، فأبوا، ودخل غلمان عثمان لينصروه، فأمرهم ألا يفعلوا؛ بل إنه أعلن أنه من كف يده منهم فهو حر. وقال عثمان في وضوح وإصرار وحسم، وهو الخليفة الذي تجب طاعته: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كف يده وسلاحه.

فأقدم المتمردون على حرق الباب والسقيفة، فثار أهل الدار - وعثمان يصلي - حتى منعوهم، واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخلى بينه وبين المحاصرين، فلم يبقَ في الدار إلا عثمان وأهله، وليس بينه وبين المحاصرين

مدافع ولا حامٍ من الناس، وفتح باب الدار، وبعد أن خرج من في الدار ممن كان يريد الدفاع عنه، نشر المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه، وكان إذ ذاك صائمًا، ثم دخل رجل من بني سدوس، يقال له: الموت الأسود، فخنقه وخنقه قبل أن يضربه بالسيف، فقال: والله ما رأيت شيئًا ألين من خنقه، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان تردد في جسده، ثم أهوى إليه بالسيف، فاتقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها لأول كف خطت المفصَّل (يعني القران)؛ وذلك أنه كان من كتبة الوحي، وهو أول من كتب المصحف من إملاء رسول الله، فقُتل والمصحف بين يديه، وعلى أثر قطع اليد انتضح الدم على المصحف الذي كان بين يديه يقرأ منه، وسقط على قوله تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧].

إنها الدماء التي طالما جرت في عروق تعرف معنى التوحيد، تسجد بين يدي ربها، إنها العروق الزكية التي نبضت بالصدق والعدل والجود والإحسان والكرم والنجدة والمروءة، إنه حبيب رسول

الله، من زوجه بابنتيه رقية وأم كلثوم، وكان يقول لو أن عندي ألف بنت لزوجتك إياهن واحدة تلو الأخرى، إنه من تستحي منه الملائكة، الآن يُصرع ويسيل دمه ويموت، وقد منعوا عنه الماء وقدموا له ماءً آسنًا، وهو من سقى المسلمين، ويموت صائمًا وليس في بيته طعام يُفطر عليه، وهو من أطعم المسلمين في أشد حاجاتهم، وها هي المؤامرة في ثوبها الجديد تُطل علينا في محاولة للقضاء على الخلافة وكسر شوكة هذا الدين، فها هي المؤامرة تتم على الخليفة الثالث عثمان بن عفان ليكتمل أوج الفتنة، وأعلى درجاتها مع نبيلنا القادم أبى الحسنين، وهنا نودع ذا النورين ليلقى أحبابه، وكان هذا مصرع نبيلنا الثاني من مصارع النبلاء.

الإمام علي أبو السبطين

كنت والله إني لأصلي تلك الليلة التي ضُرب فيها علي في المسجد الأعظم في رجال كثير من أهل المصر (البلد)، يصلون قريبًا من السدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره، إذ خرج علي لصلاة الغداة (الفجر)، فجعل ينادي: أيها الناس الصلاة الصلاة، فما أدري أخرج من السدة، فتكلم بهذه الكلمات أم لا، فنظرت إلى بريق (يقصد لمعة السيف)، وسمعت: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك، فرأيت سيفًا، ثم رأيت ثانيًا، ثم سمعت عليًا يقول: لا يفوتنكم الرجل، وشد الناس عليه من كل جانب، قال: فلم أبرح حتى أُخذ ابن ملجم وأُدخل على علي، فدخلت فيمن دخل من الناس، فسمعت عليًا يقول: النفس بالنفس، أنا إن مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي.

إنه محمد بن الحنفية يروى لنا استشهاد والده البطل المغوار ابن عم رسول الله، حيدرة الإسلام ومحي السنة وقامع البدعة وحامي حمى الإسلام، الأسد الهتور والنمر الجسور يسقط صريعًا في المسجد بضربة من خائن متطرف غبي، لا يعرف لأهل الفضل فضلاً ولا لذوي الكرامات كرامة، ويظن أنه يفعل ما يرضي الله، ولو يرى إذ يرى العذاب فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وحتى نعرف لماذا آلت الأمور إلى ما آلت له من مصارع النبلاء، هلمّ بنا نتعرف على حيدرة الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أولاً: اسمه وكنيته ولقبه

١- اسمه ونسبه: هو علي بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبدالمطلب (ويقال له شيبة الحمد) بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهو ابن عم رسول الله ويلتقي معه في جده الأول عبد

المطلب بن هاشم، ووالده أبو طالب شقيق عبد الله والد النبي، وكان اسم علي عند مولوده أسدًا، سمته بذلك أمه رضي الله عنها باسم والدها، فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويدل على ذلك ارتجازه يوم خيبر حيث يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة

وكان أبو طالب غائبًا، فلما عاد لم يعجبه هذا الاسم وسماه عليًا.

أما عن كنيته: فقد كانت كنيته أبا الحسن، ويكنى أيضًا بأبي تراب.

أما لقبه: أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين.

ثانيًا: مولده

اختلفت الروايات وتعددت في تحديد سنة ولادته، فقد روى الطبراني في المعجم الكبير أن الحسن البصري قال إن ولادته قبل البعثة بخمس عشرة أو ست عشرة سنة.

ثالثًا: إسلامه

كان من نعمة الله عز وجل على علي بن أبي طالب وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو

طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله للعباس عمه – وكان من أيسر بنى هاشم – يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه عياله، آخذ من بيته واحدًا وتأخذ واحدًا، فنكفيهما عنه، فقال العباس: نعم.. فانطلق حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا رضي الله عنه فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع رسول الله حتى بعثه الله نبيًا، فاتبعه علي، فأقر به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وهنا نعلم أن الله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه، فهنا نرى الترتيب الإلهي والتدبير الرباني، حتى تُهيأ فرصة لا تُهيأ لغير علي رضي الله عنه، حتى ينشأ ويتربى في بيت النبوة وينهل من معين أخلاق النبي، ويتعلم منه ما يتعلمه الولد من والده والتلميذ من أستاذه، فأنعم بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رابعًا هجرته

عندما اجتمعت قبيلة قريش في دار الندوة، وأجمعوا على قتل النبي والتخلص منه، أعلم الله نبيه بذلك، وكان النبي أحكم خلق الله، فأراد أن يبقى من أراد قتله ينظر إلى فراشه ينتظرونه يخرج عليهم، فأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام في فراشه تلك الليلة، ومن يجرؤ على البقاء في فراش رسول الله والأعداء أحاطوا بالبيت يتربصون به ليقتلوه؟ من يفعل هذا ويستطيع البقاء في هذا البيت وهو يعلم أن الأعداء لا يفرقون بينه وبين رسول الله في مضجعه؟ إنه لا يفعل ذلك إلا أبطال الرجال وشجعانهم بفضل الله تعالى، وقد أمره النبي أن يقيم بمكة أيامًا حتى يؤدي أمانة الودائع والوصايا التي كانت عنده إلى أصحابها من أعدائه كاملة غير منقوصة، وهذا من أعظم العدل، وأداء الأمانة.

ثم مكث بعد هجرة رسول الله ثلاث ليالٍ أدى فيها الأمانات وأبرأ ذمة رسول الله وانطلق مهاجرًا إلى ربه، وهنا يجب أن نقف

عند أمور شتى؛ منها أن المؤمن لا يغدر ولو مع من ظلموه، فالمسلم ليس بإمعة يُحسن إذا أحسن الناس ويُسيء إذا أساء الناس، لذلك فنظرية العقل الجمعي لا مكان لها مع المسلم الذي يعلم أنه منوط بتكوين قناعاته التي سيلقى بها ربه، ولا يكون إمعة بين الناس، ولكن تعلّم من رسول الله أن يُوطن نفسه ويُعودها أن تُحسن إذا أحسن الناس وأن تتجاوز عن إساءتهم وظلمهم إذا أساءوا وظلموا.

والشيء الآخر الملحوظ من هذه القصة هي شجاعة علي النادرة واستعداده الفطرى للتضحية والفداء، حتى إنه استطاع أن يقف في وجه عتاة قريش، بل وأن ينام مكان رسول الله ومن الممكن أن يدخلوا فيقتلوه دون أن ينظروا أسفل الفراش، ولكن هذا هو علي، إنما اصطُنع لأمر جليل لا يعلمه إلا الله، وستكشف عنه الأيام بعد ذلك.

خامسًا: حيدرة الإسلام مقاتلاً في سبيل الله

شهد مع رسول الله بدرًا وأحدًا وبني النضير وحمراء الأسد التي كانت بين بدر والأحزاب، إلى أن كان يوم الأحزاب حيث

وقعت الحادثة الشهيرة التي نقصها عليكم، ولكن يجب أن نذكر أن عليًا رضي الله عنه قد زوجه رسول الله من السيدة فاطمة ابنته، وذلك بعيد غزوة بدر، أي في السنة الثانية من الهجرة، ثم مرت الأيام وكان يوم الأحزاب.. قال ابن إسحاق: وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين بعد أن اقتحمت خيل المشركين ثغرة في الخندق، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعدوا نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح، فلم يشهد يوم أُحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلمًا ليُرى مكانه (يعني عليه علامة فوق رأسه كريشة أو نحو ذلك)، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النّزال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال

له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقرها، وضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا، وكان عمرو بن عبد ود قد أهوى على علي بضربة كسرت درعه، ونزل بأخرى على خوذته فكسرها وشج رأس علي وصار الدم على وجهه، وهنا أقبل عليه أسد الإسلام علي يقاتل في غير درع ويدور حوله في خفة كالفهد وشراسة كالنمر وشجاعة كالأسد، غير هياب لهذا الصنديد المجرب الذي مكث سنين في حروب العرب، وعلي يقاتله بقوة وشراسة حتى حمى الوطيس، وقال الراوي فما عدنا والله نرى الرجلين من النقع والغبار الذي ثار من قتالهما، والمسلمون قد ألمّ بهم ما ألمّ، فهم يخافون على علي من هذا الصنديد، ورسول الله يصلي ويكبر ويدعو الله لعلي أن ينصره على هذا المشرك العتي، ونزل بالمسلمين ما نزل حينها من هم وغم، حتى سمعوا صوتًا من داخل النقع يقول الله أكبر، فصاح رسول الله الله أكبر، قتله علي، الله أكبر، قتله علي، الله أكبر، قتله علي. ارتفعت أصوات المسلمين مكبرين

ومهللين، وإذا بعدو الله قد لقى حتفه وأتى لحتفه بظلفه، فقتله علي رضي الله عنه، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة. وهنا يظهر ملمح كبير من حياة هذا البطل، الذي كان صغير السن إذ ذاك، ليقف أمام عمرو بن عبد ود من ترتعد منه الأبطال ويهابه الفرسان الأشاوس، ولكن أين هو من علي حيدرة الإسلام وربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتمر الأيام والسنون وعلي مع رسول الله يشهد معه أيامه ومغازيه، حتى كان يوم خيبر، وفي هذه الغزوة تجلت بطولة علي بن أبي طالب، ومكانته عند الله وعند رسوله، وما قدّر الله من فتح هذه المستعمرة اليهودية، ذات الأهمية العسكرية الإستراتيجية على يده في مظهر جلي رائع.

واستعصى حصن القموص على المسلمين، وكان علي بن أبي طالب رمدًا (أصاب عينه الرمد)، فقال رسول الله: "لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله"، فبات الناس يدوكون (متحيرين ومختلفين)

ليلتهم أيهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله كلهم يرجون أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق رسول الله في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم".

فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر.

في النص السابق يبدو لنا رسول الله وهو يقول لعلي أن المقصد هنا هو أن يُسلموا لله وأن يهدي الله بك رجل خير من كل ما في هذه الحصون من نعم وخيرات، فلو أسلموا عصموا أموالهم ودماءهم إلا بحقها وحسابهم على الله، وليس المقصود أبدًا إبادة الأمم وإزهاق الأرواح والاستيلاء على مقدرات الناس، فتلك دعوة الرحمة، وكيف وقد قال الله فيه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

﴾[آل عمران: ١٥٩].

وكان من صور بطولته في هذا اليوم المشهود أن خرج له مرحب ملكهم وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطل مُجرب

إذا الحروب أقبلت تَلَهَّبُ

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة   كليث غابات كريه المنظرة

أُوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

في هذا الحديث يبدو أمامنا عليًا رضي الله عنه وأرضاه ليس فقط مقاتلاً فذًا وبطلاً شجاعًا، إنما أيضًا شاعرًا وأديبًا، وليس هذا فحسب وإنما أيضًا قائدًا للجيش ماهرًا حاذقًا، يعرف كيف تكون فنون القتال، ومجاهدًا كبيرًا، فإن الخطة التي وضعها علي للاستيلاء على الحصن خطة محكمة تنم عن عقلية عبقرية نادرة، فالخطة في عجالة هي أن هذا الحصن كان اليهود يخرجون منه

لمناوشة المسلمين، ثم إذا هجم عليهم المسلمون فإنهم يرجعون ويغلقون عليهم الحصن، ويرمي مجموعة من الرماة من اليهود من داخل الحصن على مسافات بعيدة كل من يقترب من الحصن، وهنا كانت الخطة العبقرية هي أن علي رضي الله عنه عمد إلى كمينين وفرقتين تكون على مقربة من الباب، ولكن بعيدة ومختبئة لا تشعر بها عيون اليهود، ولما خرج اليهود لبداية الهجوم على المسلمين تظاهر علي بالانكسار والهزيمة، وبدأ يفر من اليهود متراجعًا عن الحصن مبتعدًا عنه، كأنما يفر منهزمًا، فطمع هؤلاء اليهود أن يطاردوه ويبتعدوا أكثر عن الحصن، وعلي يتقهقر والمسلمون يتقهقرون خلف راية المسلمين، واليهود يتقدمون في نشوة وزهو وغرور أن قد كسروا شوكة المسلمين، وعند لحظة محددة أمر علي بالهجوم الكاسح على اليهود بعد أن كان قد أصدر الإشارة للكمينين اللذين كانا قريبين من باب الحصن، فهجموا على باب الحصن وبدأ علي بالهجوم الكاسح على جيش اليهود، وبدأوا هم في الفرار إلى الحصن كما قد تعودوا، ولكنهم وجدوا

أنفسهم بعيدين عن الباب، وفرق المسلمين قد سيطرت على باب الحصن، واستعر السباق تجاه ذلك الباب، ودارت المعركة عليه، وانهزم اليهود هزيمة منكرة في هذا اليوم، وفتح الله على يد علي المغوار حصنًا من أصعب حصون اليهود وأمنعها في خيبر، وعلم الناس جميعًا أن عليًا رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

ومواقفه مع رسول الله كثيرة جدًا، وأكثر من أن نحصيها، إنما نحن نرشف فقط من عبير سيرته العطرة حتى نأتي عليه في خلافة عمر، حيث يكون في موضع المشورة والرأي بين يدي الفاروق.

سادسًا: علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عمر:

وإليكم بعضًا من مواقف علي مع عمر في القضاء:

١. أتى عمر رضي الله بامرأة حامل، فسألها عمر فاعترفت بالفجور، فأمر بها عمر أن تُرجم، فلقيها علي فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر بها أمير المؤمنين أن تُرجم، فردها علي فقال: أأمرت بها أن تُرجم؟ قال: نعم، اعترفت عندي بالفجور! قال: هذا سلطانك عليها، فما سلطانك على ما في بطنها؟ قال علي: فلعلك

انتهرتها، أو أخفتها؟ قال: قد كان ذاك، قال: أوما سمعت النبي يقول: "لا حد على معترف بعد بلاء، أنه من قيدت أو حبست أو تهددت فلا إقرار له"، فخلى عمر سبيلها، ثم قال: عجزت النساء أن تلد مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر.

فلتأتِ كل منظمات حقوق الإنسان لتنظر إلى هذا النص الرهيب والدستور المكتمل، فلا حد على معترف بعد ترهيب أو تعذيب أو سجن أو تهديد، فلا إقرار لمعترف بعد بلاء، إنما المعترف يعترف بإرادته وإلا فيكون معك القرائن والأدلة والشهود، أما أن يعترف بعد أن يرى منك ما لا يحتمله إنسان فقد يعترف ليُنجي نفسه من هذا الهلاك، ويعترف أصلاً بما لم يفعل فرارًا منك، إننا أمة الرحمة وأمة العدل، ففداك أبي وأمي يا رسول الله، من أي معين صافٍ ونقي تشرع لنا هذا، إنه من المعين الإلهي والوحي السماوي، صلى الله عليك وسلم.

٢. قال جعفر بن محمد: أتى عمر بن الخطاب بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار وكانت تهواه، فلما لم يساعدها احتالت عليه،

فأخذت بيضة، فألقت صفارها، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذها، ثم جاءت إلى عمر صارخة، فقالت: هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي، وهذا أثر فعاله، فسأل عمر النساء فقلن له: إن ببدنها وثوبها أثر المني، فهم بعقوبة الشاب، فجعل يستغيث ويقول: يا أمير المؤمنين تثبت في أمري، فوالله ما أتيت فاحشة وما هممت بها، فقد راودتني عن نفسي فاعتصمت، فقال عمر: يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما، فنظر علي إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء حار شديد الغليان، فصُب على الثوب، فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه، وذاقه، فعرف طعم البيض، وزجر المرأة فاعترفت.

انظروا إلى الفطر السوية والفطنة عند هؤلاء، والتفرس والتحرز، فكأنما كان كلاهما، الفاروق وعلي، يبصران بنور الله، فإن العاصي يبدو على وجهه من علامات معصيته وآثار جريمته، ولا يُبصر هذا إلا مثل عمر وعلي، وكلاهما يرأب صدع الآخر ويسد عنه، فطوبى لأمة عليها ابن الخطاب وعلي.

٣. عندما احتاج عمر رضي الله عنه أن يضع تاريخًا رسميًا ثابتًا لتنظيم أمور الدولة وضبطها، جمع الناس وسألهم: من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي رضي الله عنه: من يوم هاجر رسول الله. فكان هو من أشار على أمير المؤمنين بالتقييم الهجري.

والكثير والكثير من الروايات التي تُبين قيمة علي رضي الله عنه وقدره عند أمير المؤمنين عمر، وقدر المحبة بينهما في كل الأمور، فقد كان من أهل مشورة أمير المؤمنين ومن أهل الحِل والعقد، وكان من الأسماء التي اقترحها عمر عند استشهاده ليكون منهم خليفته.

وتمر الأيام والسنون حتى يأتي عصر عثمان رضي الله عنه ذي النورين، وقد بينا في الفصل الماضي كيف كانت العلاقة بينهما، ودور علي في الزود وصد الفتنة التي أحاطت بعثمان، ولكن لا مناص من قضاء الله، فكان استشهاد عثمان وتولى عليّ إمارة المؤمنين.

سابعًا: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

تمت بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة بطريقة الاختيار، وذلك بعد أن استُشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، على

أيدي الخارجين المارقين الشذّاذ الذين جاءوا من الآفاق، ومن أمصار مختلفة، وقبائل متباينة لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدنيا، فبعد أن قتلوه رضي الله عنه ظلمًا وزورًا وعدوانًا، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين. قام كل من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدعِ الإمامة لنفسه أحد بعد عثمان، رضي الله عنه، ولم يكن أبو السبطين، رضي الله عنه، حريصًا عليها، ولذلك لم يقبلها إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة.

ولعلي رضي الله عنه مناقب كثيرة فقهًا وعدلاً وديانة وشجاعة وقيادة وعلمًا، وإن شئت فقل عن أبي الحسنين ما شئت، ولكننا هنا في معرض للفتن التي عصفت بها الأمة في ذلك الوقت، لذلك سنستل الحديث من طرف الخيط الذي أنهينا به فصلنا السابق لنكمل ما كان من أمر الفتن التي حيكت على الأمة الاسلامية، بدءًا من اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واستشهاده ومرورًا

باستشهاد عثمان بن عفان، ونحن هنا مع الأحداث الجسام التي مرت على الأمة في عهد علي رضي الله عنه، ولذلك أخي الكريم أعرني قلبك وعقلك، واستحضر معي إيمانك بالله جل وعلا، واستعانتك به على فهم ما نحن مقبلون عليه، فإن الأمة ما مرت في تاريخها قط بما مرت به في عهد علي رضي الله عليه وأرضاه، لذلك هلم بنا نبدأ في المعمعة.

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحًا في خلافة أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه – وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة، وإنما كان في الطريقة التي تُعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين علي موافقًا من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يُرجئ الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة، قال النووي: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا

الطرف، وأن مخالفه باغٍ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغي فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده (يقصد جماعة علي)، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقتال الباغي عليه (يقصد جماعة عائشة والزبير وطلحة)، وقسم ثالث: اشتُبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين، فاعتزلوا الفريقين (يقصد جماعة سعد بن أبي وقاص)، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه.

قدم طلحة والزبير إلى مكة ولقيا عائشة - رضي الله عنهم جميعًا - وكان وصولهما إلى مكة بعد أربعة أشهر من مقتل عثمان تقريبًا، أي في ربيع الآخر من عام ٣٦ هـ، ثم بدأ التفاوض في مكة مع

عائشة، رضي الله عنها، للخروج، وقد كانت هناك ضغوط نفسية كبيرة على أعصاب الذين وجدوا أنفسهم لم يفعلوا شيئًا لإيقاف عملية قتل الخليفة المظلوم، فقد اتهموا أنفسهم بأنهم خذلوا الخليفة وأنه لا تكفير لذنبهم هذا - حسب قولهم - إلا الخروج للمطالبة بدمه، علمًا بأن عثمان هو الذي نهى كل من أراد أن يدافع عنه في حياته تضحية في سبيل الله، فعائشة تقول: إن عثمان قُتل مظلومًا والله لأطالبنّ بدمه، وطلحة يقول: إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يُسفك دمي في طلب دمه، والزبير يقول: نُنهض الناس فيدرك بهذا الدم لئلا يَبْطل، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدًا، إذا لم يُفطم الناس عن أمثالها لم يبقَ إمام إلا قتله هذا الضرب (معنى كلام الزبير إننا لو تركنا الأمر هكذا بغير عقاب القتلة والمفسدين فلن يعش لنا خليفة إلا قتلوه بنفس الطريقة، ويضيع سلطان الله في الأرض بالفوضى والغوغائية وضياع الهيبة).

يقول الدكتور الصلابى فى كتابه "سيرة أمير المؤمنين على بن ابى

طالب": "ولقد توافرت مجموعة من العوامل في مكة جعلتهم يفكرون في طريقة جادة لتحقيق مطلبهم، ومن هذه العوامل: أن بني أمية قد هربوا من المدينة واستقروا في مكة، ومنها: أن عبد الله بن عامر - أمير البصرة في عهد عثمان - كان في مكة وهو يحث على الخروج ويعرض المعونة المادية، ومنها: أن يعلي بن أمية الذي خرج من اليمن لإعانة الخليفة عثمان وصل إلى مكة، وقد قُتل الخليفة ومعه من المال والسلاح والدواب شيء لا بأس به، فعرض كل ذلك للمساعدة في قتل قتلة عثمان، فكان هذا كفيلاً لتشجيع الباحثين عن طريقة لمطاردة قتلة عثمان، وما دامت العوامل قد توافرت لجمع قوة تُطالب بدم عثمان فمن أين يبدأون؟ دار حوار بينهم حول الجهة التي يتوجهون إليها فقال بعضهم (على رأسهم السيدة عائشة): إن المدينة هي وجهتهم، وظهر رأي آخر يطلب التوجه إلى الشام ليتجمعوا معًا ضد قتلة عثمان، وبعد نظر طويل قرَّ رأيهم على البصرة، لأن المدينة فيها كثرة ولا يقدرون على مواجهتهم لقلتهم، ولأن الشام صار

مضمونًا لوجود معاوية، ومن ثم يكون دخولهم البصرة أولى في هذه الخطة لأنها أقل البلدان قوة وسلطة، ويستطيعون من خلالها تحقيق خطتهم، وكانت خطتهم ومهمتهم واضحة سواء قبل خروجهم، أو أثناء طريقهم، أو عند وصولهم إلى البصرة، وهي: المطالبة بدم عثمان، والإصلاح، وإعلام الناس بما فعل الغوغاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن هذا المطلب هو لإقامة حد من حدود الله، وأنه إذا لم يؤخذ على أيدي قتلة عثمان - رضي الله عنه - فسيكون كل إمام معرضًا للقتل من أمثال هؤلاء، وأما الطريقة التي تصوروها فهي الدخول إلى البصرة ثم الكوفة، والاستعانة بأهلها على قتلة عثمان منهم أو من غيرهم، ثم يدعون أهل الأمصار الأخرى لذلك حتى يُضيقوا الخناق على قاتلي عثمان الموجودين في جيش علي فيأخذونهم بأقل قدر ممكن من الضحايا".

لم يكن الخروج إلى البصرة والغضب الذي حرك الصحابة من البساطة التي ظهرت للناس كثأر لعثمان، رضي الله عنه، وكأنه

رجل من عوام الناس قُتل، فخرجت الجيوش في الطلب له بثأره، رغم كونه حدًا من حدود الله يستوجب الغضب ويستدعي حدوث ذلك، ولكن مكانة عثمان وشخصيته ومكانته المعنوية كخليفة، وقتله بالصورة التي تمت، كان فوق ذلك، ومعه اغتيال لصفة شرعية هي "الخلافة" التي يفهمها المسلمون: نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به، فالاعتداء عليها دون وجه حق اعتداء على صاحب الشرع وتوهين لسلطانه، وضياع لنظام المسلمين.

كانت السيدة عائشة والزبير وطلحة ومن معهم يسعون لإيجاد رأى إسلامي عام في مواجهة الطغمة السبئية التي قتلت عثمان، وأصبحت ذات شوكة لا يستهان بها، وذلك من خلال تعريف المسلمين بما أتى هؤلاء السبئيون والغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل، ومن ظاهرهم من الأعراب والعبيد، فلقد بات واضحًا عند الصحابة من الفريق الذي كان يرى رأي عائشة - رضي الله عنها - أن الغوغاء والسبئيين لهم وجود في جيش

علي، وأنه لأجل ذلك فإن عليًا – رضي الله عنه – يصعب عليه مواجهتهم، خشية منه على أهل المدينة، ومن ثم فإنه ينبغي عليهم أن يحاولوا السعي لإفهام المسلمين، وتقوية الجانب المطالب بإقامة الحدود، لتتم إقامتها بأقل الخسائر في دماء الأبرياء، وهو هدف لا نشك أن عليًا كان يسعى إليه، ويحاوله، ولذلك ننظر إلى هذه الرواية التي تحدثت فيها السيدة عائشة – رضي الله عنها – عن أهداف هذا الخروج، فروى الطبري أن عثمان بن حنيف – وهو والي البصرة من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – أرسل إلى عائشة – رضي الله عنها – عند قدومها البصرة يسألها عن سبب قدومها، فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يغطى لبنية الخبر، إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر؛ فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام،

ومزقوا الأعراض والجنود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين، ولا يقدرون على امتناع ولا يأمنون، فخرجت في المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأت: "لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ" (النساء: ١١٤)، فنهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا، إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره. وروى ابن حبان أن عائشة – رضي الله عنها – كتبت إلى أبي موسى الأشعري، والي عليّ على الكوفة: فإنه قد كان من قتل عثمان ما قد علمت، وقد خرجت مصلحة بين الناس، فمُر من قبلك بالقرار في منازلهم، والرضا بالعافية حتى يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين. ولما أرسل علي القعقاع بن عمرو لعائشة ومن كان معها يسألها عن سبب قدومها، دخل عليها القعقاع فسلم عليها، وقال:

أي أُمه، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني، إصلاح بين الناس.

من الرسالتين السابقتين لوالي البصرة والكوفة من أم المؤمنين عائشة يتضح جليًا الهدف المنشود من خروجها هي ومن معها، وهو الثأر من قتلة عثمان وإقرار سلطان الله في الأرض بالأخذ على يد المجرم الذي فرّق جماعة المسلمين وقتل خليفتهم، والأمر بالمعروف وتغيير المنكر والإصلاح بين الناس، حتى تستتب الأمور للمسلمين، ويكونوا على حالهم الأول، فإن إقامة العقوبة على هؤلاء فيه ردع لكل من تسول له نفسه أن يحذوا بحذوهم ويسلك مسلكهم، وهي في ذلك متفقة تمامًا مع علي رضي الله عنه، ولكن الاختلاف بينهما في التوقيت والطريقة، وهذا ما ستُظهره الأحداث بعد قليل.

يقول الدكتور الصلابى فى كتابه "سيرة أمير المؤمنين على بن ابى طالب": "وهناك من الناس من طعن على عائشة أنها خرجت من بيتها وقد أمرها الله بالاستقرار فيه في قوله: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى" (الأحزاب: ٣٣)، فإن سفر الطاعة لا ينافي القرار في البيت وعدم الخروج منه إجماعًا، وهذا ما كانت تراه أم المؤمنين - عائشة - في خروجها للإصلاح للمسلمين، وكان معها محرمها ابن أختها عبد الله بن الزبير".

وهنا يجب أن نؤكد أن عائشة خرجت إلى المطالبة بثأر علي بكامل رغبتها ومحض إرادتها، إنما كانت تنشد الحق وتعلم قدرها في الناس، وأنها لو تكلمت سمع لها الجميع لمنزلتها من رسول الله، فما أخرجها إلا عصمة دماء المسلمين ثم الثأر ممن قتل عثمان دمًا بدم، وإن كان هناك اختلاف بين آراء أزواج النبي في هذه المسألة، فقد كانت معها في الرأي حفص، وإنما خالفتهم أم سلمة، فقد كانت ترى الحق مع علي رضي الله عن الجميع، ولكن يأتي معنا سؤال: هل كانت أم المؤمنين عائشة امرأة متسلطة تبحث على الزعامة وتتحراها، كما ادعى الشيعة الرافضة ونسج على منوالهم كثير من الكتاب المحدثين؟

والإجابة بالقطع لا، فهي حبيبة نبينا وبنت الصديق، وإن شئت

فقل في عائشة ما تقول من الخير والبر والإيمان، وما كان لمثل هذه العظيمة الشريفة أن يكون هذا مسلكها، إنما كانت لها شخصية قوية حادة الذكاء نافذة البصيرة ثاقبة الفهم حازمة الرأي، تسعى للحق وتنشده، وهالها ما رأت من أمر مقتل عثمان رضي الله عنه، فكان هذا من حرصها على الدين وحرصها على دولة الإسلام هو ما حركها، نعم قد تتفق مع خروجها أو تختلف، لكنك لا تختلف على عائشة أبدًا، ولذلك سيحدث حادث هام جدًا الآن وهي في طريقها إلى البصرة، سيبين لك الهدف الذي خرجت من أجله، وهو فقط عصمة دماء المسلمين والصلح بينهم والقصاص من قتلة عثمان، وهي أهداف نبيلة من امرأة هي منبع النبل والشرف، فرضي الله عنك يا بنت الصديق يا حبيبة رسول الله، يا من برأك ربك من فوق سبع سموات، رضي الله عنكِ وأرضاكِ.

ثم كان مرور السيدة عائشة على ماء الحوأب (بئر في الطريق يقال له الحوأب)، وقد ثبت ذلك من طرق صحيحة؛ فعن يحيى بن سعيد بن القطان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن حازم أن رسول

الله قال لأزواجه: "كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب".
ومن طريق شعبة عن إسماعيل ولفظ شعبة: أن عائشة لما أتت على الحوأب سمعت نباح الكلاب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله قال لنا: أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب. فقال لها الزبير: أترجعين؟ عسى الله عز وجل أن يُصلح بكِ بين الناس.
وهذه الرواية تُظهر لنا مدى وقوف السيدة عائشة عند كلام حبيبها رسول الله، ولكنها كانت ترى ومن حولها أنها ستُصلح بين الناس وتعصم الدماء، ولم يكن في نص كلام رسول الله لهن نهي أن تكون إحداهن صاحبة الحوأب، إنما كان كلام رسول الله من جانب الإخبار، لا من جانب النهي والزجر، ولو كان الأمر كذلك لما تأخر رسول الله في بيان الأمر والنهي بلفظ صريح لها ألا تكون هي صاحبة الحوأب، وكل الاحاديث التي فيها هذا الزجر والنهي ضعيفة الأسانيد جميعها، لا تستقيم على قدم أو ساق، فهي من قبيل كسير وعوير وثالث ما فيه خير.
عندما وصل طلحة والزبير وعائشة – رضي الله عنهم – ومن

معهم إلى البصرة نزلوا جانب الخريبة (جانب البصرة)، ومن هناك أرسلوا إلى أعيان وأشراف القبائل يستعينون بهم على قتلة عثمان، كان كثير من المسلمين في البصرة وغيرها، يودون ويرغبون في القود من قتلة عثمان - رضي الله عنه - إلا أن بعض هؤلاء يرون أن هذا من اختصاص الخليفة وحده، وأن الخروج في هذا الأمر بدون أمره وطاعته معصية، ولكن خروج هؤلاء الصحابة المشهود لهم بالجنة، وأعضاء الشورى ومعهم أم المؤمنين عائشة حبيبة رسول الله وأفقه النساء مطلقًا، ومطلبهم الشرعي لا غبار عليه ولا ينكره صحابي واحد، جعل الكثير من البصريين على اختلاف قبائلهم ينضمون إليهم، وأرسل الزبير إلى الأحنف بن قيس السعدي التميمي يستنصره على الطلب بدم عثمان، والأحنف من رؤساء تميم وكلمته مسموعة، يقول الأحنف واصفًا هول الموقف:..فأتاني أفظع أمر أتاني قط، فقلت: إن خذلاني هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواري رسول الله لشديد. إلا أنه اختار الاعتزال، فاعتزل معه ستة آلاف ممن

أطاعه من قومه، وعصاه في هذا الأمر كثير منهم، ودخلوا في طاعة طلحة والزبير وأم المؤمنين. ويذكر الزهري أن عامة أهل البصرة تبعوهم، وهكذا انضم إلى طلحة والزبير وعائشة ومن معهم أنصار جدد لقضيتهم التي خرجوا من أجلها. وقد حاول ابن حنيف تهدئة الأمور والإصلاح قدر المستطاع، إلا أن الأمور خرجت من يده حتى قال أحدهم عن البصرة: قطعة من أهل الشام نزلت بين أظهرنا. وحتى إن معاوية فيما بعد حاول الاستيلاء عليها بمساعدة أهلها.

وعندها أقبل حُكَيم بن جبلة بعدما خطبت عائشة – رضي الله عنها – في أهل البصرة، فأنشب القتال وأشرع أصحاب عائشة وطلحة والزبير – رضي الله عنهم – رماحهم وتجهزوا، فلم ينتهِ حكيم ومن معه، ولم يُثن، وظل يقاتلهم، وطلحة والزبير كافُّون إلا ما دافعوا عن أنفسهم، وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها، وعلى الرغم من ذلك، فإن عائشة – رضي الله عنها – ظلت حريصة على عدم إنشاب القتال، فأمرت أصحابها أن يتيامنوا

بعيدًا عن المقاتلين، وظلوا على ذلك حتى حجز الليل بينهم، حتى إذا كان الصباح جاء حكيم بن جبلة وهو يربرب (يتحرك في همجية ورعونة)، وفي يده الرمح، وفي طريقه إلى حيث عائشة - رضي الله عنها - ومن معها، جعل حكيم لا يمر برجل أو امرأة يُنكر عليه أن يسب عائشة إلا قتله، وعندئذ غضبت قبيلة عبد القيس إلا من كان اغتُمر منهم (أي كان معه في الأمر من أول قتل عثمان)، فقالوا لحكيم: فعلت بالأمس وعدت لمثل ذلك اليوم، والله لا نَدَعُك حتى يقيدك الله (أي يقتص منك)، فرجعوا وتركوه، ومضى حكيم بن جبلة فيمن غزا معه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وحصره من نزاع القبائل كلها، فلقد كانوا قد عرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة، فاجتمعوا إليه، ووافقوا أصحاب عائشة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وظل منادي عائشة - رضي الله عنها - يناديهم ويدعوهم إلى الكفّ فيأبون، وجعلت - رضي الله عنها - تقول: لا تقتلوا إلا من قاتلكم. لكن حكيمًا لم يُرَع (يبالِ) للمنادي، وظل يُسَعَّر القتال، عندئذ وبعدما تبينت للزبير

وطلحة – رضي الله عنهما – طبيعة هؤلاء الذين يقاتلون، وأنهم لا يتورعون ولا ينتهون عن حرمة، وأن لهم هدفًا في إنشاب القتال، قالا: الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة، اللهم لا تبقِ منهم أحدًا، وأقد منهم اليوم، فاقتلهم، فجادُّوهم القتال، ونادوا: من لم يكن من قتلة عثمان – رضي الله عنه – فليكفف عنا، فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان، ولا نبدأ أحدًا، فاقتتلوا أشد القتال، فلم يفلت من قتلة عثمان من أهل البصرة إلا واحد، وكان منادي الزبير وطلحة قد نادى: ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. وكان فريق من هؤلاء الجهال والغوغاء – كما قالت عائشة– قد غادوها (أقبلوا) في بيتها في الغَلَس (قرب الفجر) ليقتلوها، وكانوا قد ذهبوا حتى سُدَّة بيتها، ومعهم الدليل، إلا أن الله دفع عنها بنفر من المسلمين كانوا قد أحاطوا بيتها – رضي الله عنها – فدارت عليهم الرحى وأطاف بهم المسلمون فقتلوهم، واستطاع الزبير وطلحة ومن معهم أن يسيطروا على البصرة، وكانوا بحاجة إلى طعام ومؤنة

غذائية، وقد مرت عليهم أسابيع وهم ليسوا في ضيافة أحد، فتوجه جيش الزبير إلى دار الإمارة، ومن ثم إلى بيت المال ليرزقوا أصحابهم، وأُخلي سبيل عثمان بن حنيف واتجه إلى علي، وبذلك تمت سيطرة طلحة والزبير وأم المؤمنين - رضي الله عنهم - على البصرة، وقتلوا عددًا كبيرًا ممن شارك في الهجوم على المدينة، قُدّر بسبعين رجلاً، من أبرزهم زعيم ثوار البصرة حكيم بن جبلة، والذي كان حريصًا على القتال وإشعال الحرب، وكان الزبير أمير المؤمنين؛ فقد بويع على ذلك.

ومن الرواية السابقة يتضح أن عائشة وجيشها ما كانت أبدًا نيتهم أن يبدأو القتال، إنما أرادوا فقط قتلة عثمان، حتى لقيهم هذا الشقي حكيم بن جبلة الذي سعّر الأمر وجعل الخلاف يحتدم، وبالغ في سبّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بل وبلغ بهم ما بلغ أن خططوا لاغتيالها وهي في خيمتها، إلا أن الله قد رد كيدهم في نحورهم، ودافع عن حبيبة رسول الله برجال أشاوس.

ومن الرواية أيضًا يبدوا لنا مدى الغباء الذي يتمتع به حكيم بن

جبلة، فهو عصبي قبلي غبي، لا يفهم في التكتيك أو المعارك أو السياسة، فهو يُفرّق الناس عنه بجهله وغبائه وقلة عقله، وهذا يبين لك أن هؤلاء لم يكونوا إلا أداة في أيدي أناس تحركهم لغرض معد مسبقًا ومدبر بليل، وهو الإطاحة بدولة الإسلام.

أما عن بيعة الزبير خليفة، فما كان ذلك إلا لما رأوا أن علي لن يأخذ لهم الثأر الآن كما يريدون، والآن قد سُفكت دماء وصارت هناك معارك، فأرادوا أن يجمعوا الكلمة على رجل سيأتي بالثأر ويقتل قتلة عثمان، ولا ينتظر مثلما كان يريد علي حتى تتهيأ له الأمور لفعل ذلك، ولكن الزبير لم ينادي نفسه خليفة، إنما أراد الناس ذلك، وهو لم يدعو نفسه هكذا، كل ما كان يريد هو جمع الناس حتى يتم القصاص لعثمان، أما علي فلم ينازعه في أمر الخلافة أحد قط، ولا حتى معاوية كما سنبين لاحقًا.

و كانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - حريصة على إيضاح وجه الحق فيما حدث من قتال مع أهل البصرة، فكتبت إلى أهل الشام والكوفة واليمامة، وكتبت إلى أهل المدينة أيضًا تخبرهم بما

صنعوا وصاروا إليه، وكان فيما كتبت به لأهل الشام: إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل، هو الذي يردُّنا عن ذلك. فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم، وخالفنا شرارهم ونُزَّاعهم، فردُّونا بالسلاح، وقالوا فيما قالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة، حتى إذا لم يبقَ حجة ولا عذر، استبسل قتلة عثمان أمير المؤمنين، فلم يفلت منهم إلا حُرْقُوص بن زهير والله مقيده. وإنّا نناشدكم الله – سبحانه – في أنفسكم إلا ما نهضتم بمثل ما نهضنا به، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا.

وفي هذه الرسالة توضيح كامل لما حدث وتبرئة للسيدة عائشة، إذ تُبرئ نفسها من أن تكون قد بغت أو بدأت بقتال لهؤلاء الشرذمة القذرة من قتلة عثمان رضي الله عن الجميع، وتُبين أن ما فعلته هذا لله ولله فقط، وأنهم أرادوا أخذ حبيبة رسول الله رهينة عندهم، وهي بذلك تُقيم الحجة على كل من سيصله هذا الكتاب

أن ينهض إليها ليكون معها في حربها ضد قتلة عثمان.

وهنا نذهب لنرصد تحركات جيش علي رضي الله عنه.

لم يكن الصحابة - رضي الله عنهم - في المدينة يؤيدون خروج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من المدينة، فقد تبين ذلك حينما همّ علي بالنهوض إلى الشام، ليزور أهلها وينظر ما هو رأي معاوية وما هو صانع، فقد كان يرى أن المدينة لم تعد تمتلك المقومات التي تملكها بعض الأمصار في تلك المرحلة، فقال: إن الرجال والأموال بالعراق، فلما علم أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - بهذا الميل قال للخليفة: يا أمير المؤمنين، أقمت بهذه البلاد لأنها الدرع الحصينة، ومهاجرة رسول الله، وبها قبره ومنبره ومادة الإسلام، فإن استقامت لك العرب كنت كمن كان، وإن تشغب عليك قوم رميتهم بأعدائهم، وإن أُلجئت حينئذ إلى السير سرت وقد أعذرت.. فأخذ الخليفة بما أشار به أبو أيوب وعزم المقامة بالمدينة وبعث العمال على الأمصار. ولكن حدث كثير من المستجدات السياسية التي أرغمت الخليفة على مغادرة المدينة،

وقرر الخروج للتوجه إلى الكوفة ليكون قريبًا من أهل الشام. وأثناء استعداده للخروج، بلغه خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، فاستنفر أهل المدينة ودعاهم إلى نصرته، وحدث تثاقل من بعض أهل المدينة بسبب وجود الغوغاء في جيش علي، وطريقة التعامل معهم، فكان كثير من أهل المدينة يرون أن الفتنة ما زالت مستمرة، فلابد من التروي حتى تنجلي الأمور أكثر، وهم يقولون: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لمشتبه علينا ونحن مقيمون حتى يُضيء لنا ويُسفر.. وروى الطبري أن عليًا - رضي الله عنه - خرج في تعبئته التي كان تعبى بها إلى الشام، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل، والأدلة على تثاقل كثير من أهل المدينة عن إجابة أمير المؤمنين للخروج كثيرة، منها: خطب الخليفة التي شكا فيها من هذا التثاقل، وظاهرة اعتزال كثير من الصحابة بعد مقتل عثمان كما اتضح ذلك، كما أن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد مقتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم. وقد عبر

أبو حميد الساعدي الأنصاري - وهو بدري - عن ألمه لمقتل الخليفة عثمان، فقال: اللهم إن لك عليّ ألا أضحك حتى ألقاك. فقد كانوا يعدّون الخروج من المدينة في تلك المرحلة يقود إلى الانزلاق في الفتنة التي يخشون عواقبها، على سلامة ما مضى لهم من جهاد مع رسول الله، وما سبق ذكره لا يعني أنه لم يشارك أحد من الصحابة في مسيرة الخليفة، بل شارك البعض، لكنهم كانوا قليلاً، قال الشعبي: لم يشهد موقعة الجمل من أصحاب رسول الله غير علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاءوا بخامس فأنا كذاب، وفي رواية: من حدثك أنه شهد الجمل ممن شهد بدرًا أكثر من أربعة نفر فكذّبه؛ كان علي وعمار في ناحية وطلحة والزبير في ناحية، وفي رواية: لم ينهض مع علي إلى البصرة غير ستة نفر من البدريين ليس لهم سابع.

وكل هذه الروايات تصور الأمر على حقيقته، وليس كما يحاول أن يبين البعض أنها كانت حربًا أهلية بين الصحابة، وفنى فيها عدد كبير من أصحاب رسول الله ومن أهل بدر، وهذا خطأ كبير وغلط

واضح يستنكره المؤرخون المحققون لأحداث الفتنة وأهوالها.

حاول عبد الله بن سلام صاحب رسول الله أن يُثني عزم أمير المؤمنين علي عن الخروج، فأتاه وقد استعد للمسير، وأظهر له خوفه عليه ونهاه أن يقدم على العراق قائلاً: أخشى أن يصيبك ذباب السيف، كما أخبره بأنه لو ترك منبر رسول الله، فلن يراه أبدًا، كان علي يعلم هذه الأشياء من رسول الله، فقال: وايم الله لقد أخبرني به رسول الله، ولكن من مع علي من البصريين والكوفيين بلغت بهم الجرأة أن قالوا لعلي: دعنا فلنقتله! فقد أصبح قتل المسلمين ممن يقف في طريقهم، أو يحسون بخطره على حياتهم بالقول أو العمل أمرًا هينًا لا يرون به بأسًا، وفي قولهم وتهجمهم هذا ما يدل على قلة الورع وعدم إنزال الصحابة الكرام منازلهم التي أمر رسول الله الناس بعده بها، ولكن عليًا – رضي الله عنه – نهاهم قائلاً: إن عبد الله بن سلام رجل صالح.

خرج أمير المؤمنين من المدينة وعندما بلغ الربذة عسكر فيها بمن معه، ووفد عليه عدد من المسلمين بلغوا المائتين، وفي الربذة

قام إليه ابنه الحسن - رضي الله عنهما - وهو باكٍ لا يُخفي حزنه وتأثره على ما أصاب المسلمين من تفرق واختلاف، وقال الحسن لوالده: قد أمرتك فعصيتني، فتُقتل غدًا بمضيعة لا ناصر لك، فقال علي: إنك لا تزال تخن (تبكى) خنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان - رضي الله عنه - أن تخرج من المدينة فيُقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قُتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله. قال: أي بني، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان، فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير، فإن ذلك كان وهنًا على أهل الإسلام، والله ما زلت مقهورًا مذ وليت، منقوصًا لا أصل إلى شيء مما ينبغي، وأما قولك: اجلس في بيتك،

فكيف لي بما قد لزمني، أو من تريدني؟ أتريدني أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها، ويقال: دباب دباب (مثل عند العرب يعبرون به عن كلام الضبع للضبع)، ليست ههنا حتى يحل عرقوباها ثم نُخرج، وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أي بني. كان موقف أمير المؤمنين علي حازمًا في هذه المشكلة وواضحًا ولم يستطع أحد أن يثنيه عن عزمه، فهو يرى أن هذا أمر ابتلي به وقبله، فيجب عليه أن يقف فيه لآخره ويقضي على الفتنة التي أطلت برأسها، فهي عنده مهمة يقوم بها الدين أو يضيع إلى لا رجعة، وهنا نلحظ أن كلا الفريقين يبدو له أنه يدافع عن الحق والدين ويعمل لله وينافح من أجل الإسلام، وأن ليس في تحركاتهم هذه هوى في أنفسهم، إنما هو تجرد لله وبحث عن الحق ورأب صدع أمة الإسلام، وقطعًا ولا شك فإن الحق واحد، وأن إحدى الطائفتين على الحق، وهي طائفة علي وجماعته، ولكن الطائفة الأخرى متأولة تبحث عن الحق وتنشده وتشهد الله على ما في ضمائرها، فهي لا تبغي سلطانًا ولا دنيا، إنما

تبغي الحق الذي تراه حقًا، فكلاهما ماضٍ في عزمه مقبل حيث يرى صنيعه طاعة لله ولرسوله، والرواية السابقة أيضًا تبين لنا طبيعة الحسن بن علي وتفسر لنا ما سيفعله في الفصول المقبلة إن شاء الله، فهو أميل للصلح وجمع الكلمة، وبالفعل سيفعل ذلك إن شاء الله.

وأرسل علي رضي الله عنه من الربذة يستنفر أهل الكوفة ويدعوهم إلى نصرته، وكان الرسولان محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، إذ إن أبا موسى الأشعري والي الكوفة من قبل علي ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال في الفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك في الفتنة، فأرسل علي بعد ذلك هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته، لتأثير أبي موسى عليهم.

تحرك علي بجيشه إلى ذي قار، فعسكر به بعد ثماني ليالٍ من خروجه من المدينة، وهو في تسعمائة رجل تقريبًا، فبعث للكوفة في هذه المرة عبد الله بن عباس، فأبطأوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر

والحسن بن علي، وعزل أبا موسى الأشعري، واستعمل قرظة بن كعب بدلاً منه. وكان للقعقاع دورًا عظيمًا في إقناع أهل الكوفة، فقد قام فيهم وقال: إني لكم ناصح وعليكم شفيق، وأحب أن ترشدوا، ولأقولن لكم قولاً هو الحق.. والقول الذي هو القول أنه لابد من إمارة تُنظم الناس وتنزع الظالم، وتعز المظلوم، وهذا علي يلي ما ولى، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا في هذا الأمر بمرأى ومسمع. وكان للحسن بن علي أثر واضح، فقد قام خطيبًا في الناس وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير من العاقبة (يقصد أن لو خرج معهم أولو الأمر والنهي وأولو العقول النيرة فسيكون ذلك أضمن في حفظ الدماء وأمثل في نهاية الأمر)، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتُلينا به وابتليتم. ولبى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي في سبعة آلاف رجل، ثم انضم إليهم من أهل البصرة ألفان من عبد

القيس، ثم توافدت عليه القبائل إلى أن بلغ جيشه عند حدوث المعركة اثني عشر ألف رجل تقريبًا. وعندما التقى أهل الكوفة بأمير المؤمنين علي بذي قار قال لهم: يا أهل الكوفة، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم، حتى صارت إليكم مواريثهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق، وبايناهم حتى يبدأونا بظلم، ولن ندع أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

في هذه الرواية نلمح شيئًا خفيًا، وهو أن علي ما كان يجمع الناس بغية القتال بهم، وإنما كان كأنما يريد تخويف جيش عائشة والزبير فيكفوا أيديهم ولا يكون هناك قتال، كل ما في الأمر هو إرهابهم حتى يرجعوا عن رأيهم حقنًا للدماء، لذلك ستجد كل كلامه إنما مآله إلى الصلح والجمع بين المسلمين، لا الفرقة والشقاق، وفي كل كلامه يحدثهم عن الميل إلى الرفق واللين والصلح وجمع الكلمة، وهذا ما كاد يحصل حتى كان ما قدّره ربنا.

قبل أن يتحرك علي رضي الله عنه بجيشه نحو البصرة أقام في ذي قار أيامًا، وكان غرضه – رضي الله عنه – القضاء على هذه الفرقة والفتنة بالوسائل السلمية، وتجنيب المسلمين شر القتال والصدام المسلح بكل ما أُوتي من قوة وجهد، وكذلك الحال بالنسبة لطلحة والزبير، وقد اشترك في محاولات الصلح عدد من الصحابة وكبار التابعين ممن اعتزلوا الأمر، من بينهم عمران بن حصين.

فقد أرسل في الناس يخذل الفريقين جميعًا، ثم أرسل إلى بني عدي – وهم جمع كبير انضموا للزبير – فجاء رسوله وقال لهم في مسجدهم: أرسلني إليكم عمران بن حصين صاحب رسول الله ينصحكم ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو لأن يكون عبدًا حبشيًّا مجدعًا يرعى أعنزًا في رأس جبل حتى يدركه الموت، أحب إليه من أن يرمي في أحد من الفريقين بسهم أخطأ أو أصاب، فأمسكوا فدى لكم أبي وأمي. فقال القوم: دعنا منك، فإنا والله لا ندع ثقل رسول الله لشيء أبدًا.

أرسل أمير المؤمنين علي القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله

عنهما في مهمة الصلح إلى طلحة والزبير، وقال: القَ هذين الرجلين، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظّم عليهما الاختلاف والفرقة. وذهب القعقاع إلى البصرة، فبدأ بعائشة – رضي الله عنها – وقال لها: ما أقدمك يا أماه إلى البصرة؟ قالت له: يا بني من أجل الإصلاح بين الناس. فطلب القعقاع منها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا، ويكلمهما في حضرتها وعلى مسمع منها. ولما حضرا سألهما عن سبب حضورهما، فقالا كما قالت عائشة: من أجل الإصلاح بين الناس. فقال لهما: أخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عَرفناه لنصلحنَّ معكم، ولئن أنكرناه لا نصلح، قالا له: قتلة عثمان، رضي الله عنه، ولابد أن يُقتلوا، فإن تُركوا دون قصاص كان هذا تركًا للقرآن، وتعطيلاً لأحكامه، وإن اقتُصَّ منهم كان هذا إحياء للقرآن. قال القعقاع: لقد كان في البصرة ستُّمائة من قتلة عثمان وأنتم قتلتموهم إلا رجلاً واحدًا، وهو حرقوص بن زهير السعدي، فلما هرب منكم احتمى بقومه من بني سعد، ولما أردتم أخذه منهم وقَتله منعكم قومه من

ذلك، وغضب له ستة آلاف رجل اعتزلوكم، ووقفوا أمامكم وقفة رجل واحد، فإن تركتم حرقوصًا ولم تقتلوه، كنتم تاركين لما تقولون وتنادون به وتطالبون عليًا به، وإن قاتلتم بني سعد من أجل حرقوص، وغلبوكم وهزموكم وأديلوا عليكم، فقد وقعتم في المحذور، وقوَّيتموهم، وأصابكم ما تكرهون، وأنتم بمطالبتكم بحرقوص أغضبتم ربيعة ومضر، من هذه البلاد، حيث اجتمعوا على حربكم وخذلانكم، نصرة لبني سعد، وهذا ما حصل مع علي، ووجود قتلة عثمان في جيشه.

وكلام القعقاع سليم جدًا ومنطق مستقيم لا عوج فيه، وهو يتكلم بحق، فيقول أنتم قتلتم ستمائة رجل إلا واحدًا، فهل ستتركون هذا الرجل؟ لو تركتموه تكونون خالفتم ما تدّعون من القصاص لعثمان، ولو قاتلتموه ثار له قومه وكانت حربًا ضروسًا وفنيتم وقويتم شوكتهم وأضعتم الأمة، فهذا ما يكون من أمر علي، إنه يريد أن تكون الدولة والحكم وتقوى شوكة الأمة، ثم يسهل حينها الأخد بالثأر من قتلة عثمان لما يكون هناك

سلطان لله في أرضه.

فالحل عند القعقاع: التأني والتسكين ثم القصاص. تأثرت أمُّ المؤمنين ومن معها بمنطق القعقاع وحجته المقبولة؛ فقالت له: فماذا تقول أنت يا قعقاع؟ قال: أقول: "هذا أمر دواؤه التسكين، ولابد من التأني في الاقتصاص من قتلة عثمان، فإذا انتهت الخلافات، واجتمعت كلمة الأمة على أمير المؤمنين تفرغ لقتلة عثمان، وإن أنتم بايعتم عليًا واتفقتم معه، كان هذا علامة خير، وتباشير رحمة، وقدرة على الأخذ بثأر عثمان، وإن أنتم أبيتم ذلك، وأصررتم على المكابرة والقتال كان هذا علامة شر، وذهابًا لهذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تُعرَّضونا للبلاء، فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتم، حتى يأخذ الله حجته من هذه الأمة التي قلَّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن ما نزل بها أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا قتل النفر الرجل، ولا قتل القبيلة القبيلة". اقتنعوا بكلام

القعقاع المقنع الصادق المخلص، ووافقوا على دعوته إلى الصلح، وقالوا له: قد أحسنت وأصبت المقالة، فارجع، فإن قدم علي، وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر إن شاء الله. عاد القعقاع إلى علي في "ذي قار" وقد نجح في مهمته، وأخبر عليًا بما جرى معه، فأُعجب علي بذلك، وأوشك القوم على الصلح، كرهه من كرهه، ورضيه من رضيه.

انظروا معي إخوتي إلى أهل السبق في تجردهم لله وهم لا يحابون لأنفسهم، إنما يتحركون فقط نصرة لله، فلما كان كلام القعقاع كلام العقل والحلم والمنطق قبلته الأنفس الزكية التي ما دنستها أبدًا أهواء ولا مطامع، فهم والله مفاتيح خير ومقاول حق، لذلك قبلوا المنطق وجنحوا للصلح وهم به راضون، فإن الأمر كله مجرد لله، لا لنوازع نفس هؤلاء منه شيء، إنهم أصحاب محمد، من رباهم على يديه وكلهم أهل خير وبركة ومن المبشرين بالجنة، حاشا لمثل هؤلاء أن يقع فيهم من يقع بجهل أو بخسة، فإن لحوم هؤلاء مسمومة والوقوع فيهم كفر بالله والعياذ بالله،

فهو لا يعدوا أن يكون قدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظر أخي الكريم إلى فقه القعقاع ورؤيته وفصاحته ووضوح الأمر أمام عينيه، وانظر إلى أم المؤمنين عائشة الحانية وكأنها أم تُكلم أبناءها وتحرص عليهم في كل حب وتقدير وإجلال، فنعم أنتِ يا حبيبة رسول الله.

ولما عاد القعقاع وأخبره بما فعل، أرسل علي رضي الله عنه رسولين إلى عائشة والزبير ومن معهما يستوثق مما جاء به القعقاع بن عمرو، فجاءا عليًا، بأنه على ما فارقنا عليه القعقاع فأقدم، فارتحل علي حتى نزل بحيالهم، فنزلت القبائل إلى قبائلهم، مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكّون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لما نوى الرحيل قد أعلن قراره الخطير: ألا وإني راحل غدًا فارتحلوا - يقصد إلى البصرة - ألا ولا يرتحلن غدًا أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس.

وفي هذا الكلام رد على من سأل كيف قبل علي بقتلة عثمان في جيشه، والإجابه أنه قَبِل ذلك مكرهًا، هو يريد التخلص منهم في أقرب وقت، ويرجو أن تسنح له الفرصة لطردهم من جيشه، ولذلك لما بدت معالم الصلح كان أول قرار هو طردهم من جيشه وألا يرجعوا معه مطلقًا إلى البصرة، ولكني لا أرتاح مطلقًا لقرار علي بإبقائهم في جيشه، وكنت أود أن لو طردهم من أول الأمر وأبى خروجهم معه، ولكن الأمر شديد الالتباس والأحداث شديدة التسارع، ولعله قد عنّ لأمير المؤمنين حينها ما لا يعن لنا، فمن نحن ومن هو وهو من هو رضي الله عنه.

وقد كان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يُعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره، وحرص أتباع ابن سبأ على إشعال الفتنة وتأجيج نيرانها حتى يُفلتوا من القصاص. فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا، خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم

يجدوا أمرًا هو أمثل من الصلح وترك الحرب حين رأوا أن الأمر أخذ في الانقشاع، فافترقوا على ذلك، ورجع علي إلى عسكره، ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما، وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، ماعدا أولئك الذين حاصروا عثمان - رضي الله عنه - فبات الناس على نية الصلح والعافية، وهم لا يشكّون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، لا يذكرون ولا ينوون إلا الصّلح. وبات الذين أثاروا الفتنة بشر ليلة باتوها قط؛ إذ أشرفوا على الهلاك وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، وقال قائلهم: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم؛ وذلك حين طلب من الناس أن يرتحلوا في الغد ولا يرتحل معه أحد أعان على عثمان بشيء، ورأى الناس فينا - والله - واحد، وإن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا. وتكلم ابن السوداء عبد الله بن سبأ - وهو المشير فيهم - فقال: يا قوم إن عزّكم في خلطة الناس فصانعوهم (يقصد أن منعتهم ونجاتهم في أن يختلط

الناس بالقتال فكيدوا لهم)، وإذا التقى الناس غدًا فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدًا من أن يمتنع، ويشغل الله عليًا وطلحة والزبير، ومن رأى رأيهم عما تكرهونه، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون. فاجتمعوا على هذا الرأي بإنشاب الحرب في السّر، فغدوا في الغلس قبل الصبح وعليهم ظلمة، وما يشعر بهم جيرانهم، فخرج مضريّهم إلى مضريهم، وربيعيهم إلى ربيعيّهم، ويمانيهم إلى يمانيّهم، فوضعوا فيهم السيوف، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه الذين باغتوهم، وخرج الزبير وطلحة في وجوه الناس من مضر، فبعثا إلى الميمنة، وهم ربيعة يرأسها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والميسرة، يرأسها عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد، وثبتا في القلب، فقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً، فقالا: ما علمنا أن عليًا غير منتهٍ حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة، وإنه لن يطاوعنا، ثم رجعا بأهل البصرة، وقصف أهل البصرة أولئك حتى ردّوهم إلى عسكرهم، فسمع علي وأهل الكوفة الصوت، وقد

وضع السبئية رجلاً قريبًا من علي ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال ذلك الرجل: ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم، وقال علي لصاحب ميمنته: ائت الميمنة، وقال لصاحب ميسرته: ائت الميسرة، والسبئية لا تفتر إنشابًا. وعلى الرغم من تلك البداية للمعركة فإن الطرفين ما لبثا يملكان الرويّة حتى تتضح الحقيقة، فعلي ومن معه يتفقون على ألا يبدأوا بالقتال حتى يبدأوا طلبًا للحجة واستحقاقًا على الآخرين بها، وهم مع ذلك لا يقتلون مدبرًا، ولا يجهزون على جريح، ولكن السبئية لا تفتر إنشابًا، وفي الجانب الآخر ينادي طلحة وهو على دابته وقد غشيه الناس، فيقول: يا أيها الناس أتنصتون؟ فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فما زاد أن قال: أف أف فراش نار وذبان طمع، وهل يكون فراش النار وذبان الطمع غير أولئك السبئية؟ بل إن محاولات الصلح لتجري حتى آخر لحظة من لحظات المعركة.

وهنا تبدأ موقعة من أخطر مواقع تاريخنا الإسلامي، على إثر هذه المناوشات حدثت الفاجعة، ألا وهي:

معركة الجمل

و زاد السبئيون في الجيشين من جهودهم في إنشاب القتال، ومهاجمة الفريق الآخر، وإغراء كل فريق بخصمه، وتهييجه على قتاله، ونشبت المعركة عنيفة قاسية حامية شرسة، وهي معركة الجمل، وسميت بذلك لأنّ أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، كانت في المعركة في الجولة الثانية وسط جيش البصرة، تركب الجمل الذي قدمه لها يعلى بن أمية في مكة، حيث اشتراه من اليمن، وخرجت على هذا الجمل من مكة إلى البصرة، ثم ركبته أثناء المعركة، وكانت المعركة يوم الجمعة في السادس عشر من جمادى الثانية، سنة ست وثلاثين، في منطقة "الزابوقة" قرب البصرة، حزن علي لما جرى، ونادى مناديه: كفوا عن القتال أيها الناس: ولم يسمع نداءه أحد، فالكل كان مشغولاً بقتال خصمه، كانت معركة الجمل على جولتين: الجولة الأولى كان قائد جيش البصرة فيها طلحة والزبير، واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهيرة، ونادى علي في جيشه،كما نادى طلحة والزبير في جيشهما:

لا تقتلوا مدبرًا، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجًا من المعركة تاركًا لها. وقد كان الزبير، رضي الله عنه، وصى ابنه عبد الله بقضاء دينه، فقال: إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأُقتل مظلومًا، وإن أكبر همي دَيْني. وأثناء ذلك جاء رجل إلى الزبير، وعرض عليه أن يقتل عليًا، وذلك بأن يندس مع جيشه، ثم يفتك به، فأنكر عليه بشدة، وقال: لا؛ لا يفتك مؤمن بمؤمن، أو أن الإيمان قيَّد الفتك، فالزبير، رضي الله عنه ليس له غرض في قتل علي أو أي شخص آخر بريء من دم عثمان، وقد دعا أمير المؤمنين علي الزبير، فكلمه بألطف العبارة، وأجمل الحديث، وقيل ذكره بحديث سمعه من رسول الله يقول له – أي الزبير – "لتقاتلنه وأنت له ظالم" – وهذا الحديث ليس له إسناد صحيح. وبعض الروايات تُرجع السبب في انصراف الزبير – رضي الله عنه – قبيل المعركة لما علم بوجود عمار بن ياسر في الصف الآخر، وهو قد صح عن رسول الله: "تقتل عمار الفئة الباغية"، فلعله سمعه من بعض إخوانه من الصحابة لشهرته،

وبعضها يُرجع السبب في انصرافه إلى شكه في صحة موقفه، من هذه الفتنة – كما يسميها – وفي رواية تُرجع السبب في انصرافه إلى أن ابن عباس، رضي الله عنهما، ذكّره بالقرابة القوية من علي؛ إذ قال له: أين صفية بنت عبد المطلب حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب بن عبد المطلب. فخرج الزبير من المعركة، فلقيه ابن جرموز فقتله. فالزبير، رضي الله عنه، كان على وعي لهدفه – وهو الإصلاح – ولكنه لما رأى حلول السلاح مكان الإصلاح رجع، ولم يقاتل، وقول ابن عباس: تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب فيه حذف مفهومه: أم جئت للإصلاح وجمع الشمل؟ وعلى إثر هذا الحديث انصرف الزبير وترك الساحة، وربما كانت عوامل متعددة ومتداخلة أسهمت في خروج الزبير من ساحة المعركة، وأما طلحة بن عبيد الله القائد الثاني لجيش البصرة، فقد أصيب في بداية المعركة، إذ جاءه سهم غريب لا يُعرف من رماه، فأصابه إصابة مباشرة، ونزف دمه بغزارة، فقالوا له: يا أبا محمد، إنك لجريح، فاذهب وادخل البيوت لتُعالج فيها، فقال طلحة

لغلامه: احملني، وابحث لي عن مكان مناسب، فأُدخل البصرة، ووُضع في دار فيها ليعالج، ولكن جرحه ما زال ينزف حتى تُوفي في البيت، ثم دُفن في البصرة، رضي الله عنه، وأما الرواية التي تشير إلى تحريض الزبير وطلحة على القتال، وأن الزبير لما رأى الهزيمة على أهل البصرة ترك المعركة ومضى، فهذه الرواية لا تصح، وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصحابة، رضوان الله عليهم، كما أنه يخالف الروايات الصحيحة التي تنص على أن أصحاب الجمل ما خرجوا إلا للإصلاح، فكيف ينسجم هذا الفعل من الزبير، رضي الله عنه، مع الهدف الذي خرج من مكة إلى البصرة من أجله ألا وهو الإصلاح بين الناس؟! وبالفعل فإن موقف الزبير، رضي الله عنه، كان السعي في الإصلاح حتى آخر لحظة، وهذا ما أخرجه الحاكم من طريق أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي، وفيه أن الزبير، رضي الله عنه، سعى في الصلح بين الناس ولكن قامت المعركة واختلف أمر الناس ومضى الزبير وترك القتال، وكذلك طلحة؛ فقد جاء من أجل الإصلاح وليس

من أجل إراقة الدماء، وأما عن مقتل طلحة – رضي الله عنه – فقد كان عند بدء القتال كما صرح بذلك الأحنف بن قيس.

ويخرج الزبير من ميدان المعركة، ويموت طلحة، رضي الله عنهما، وبسقوط القتلى والجرحى من الجانبين تكون قد انتهت الجولة الأولى من معركة الجمل، وكانت الغلبة فيها لجيش علي، وكان علي رضي الله عنه يراقب سير المعركة ويرى القتلى والجرحى في الجانبين، فيتألم ويحزن، وأقبل علي على ابنه الحسن، وضمه إلى صدره، وصار يبكي ويقول له: يا بُني، ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا. فقال الحسن: يا أبت، لقد كنت نهيتك عن هذا، فقال علي: ما كنت أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، وما طعم الحياة بعد هذا؟ وأي خير يُرجى بعد هذا؟

علي يرى المسلمين تُسفك دماؤهم من الطرفين، وهذه الدماء التي طالما حرص هو عليها وزاد عنها بدمه، إنهم أصحابه الآن يُقتلون، يرى قائد ميسرة المسلمين الزبير وهو يُقتل، ويرى طلحة الخير يُقتل، ويرى أناسًا تتعاور القتل والفتك، فما الحياة إذا هي

غُذيت بالموت، وما البقاء إذا هو نتج من الفناء؟

الجولة الثانية: وصل الخبر إلى أم المؤمنين بما حدث من القتال، فخرجت على جملها تحيط بها القبائل الأزدية، ومعها كعب الذي دفعت إليه مصحفًا يدعو الناس إلى وقف الحرب، تقدمت أم المؤمنين وكلها أمل أن يسمع الناس كلامها لمكانتها في قلوب الناس؛ فتحجز بينهم وتُطفئ هذه الفتنة التي بدأت تشتعل، وحمل كعب بن سور المصحف، وتقدم أمام جيش البصرة، ونادى جيش علي قائلاً: يا قوم، أنا كعب بن سور، قاضي البصرة، أدعوكم إلى كتاب الله، والعمل بما فيه، والصلح على أساسه. وخشي السبئيون في مقدمة جيش علي أن تنجح محاولة كعب، فرشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد، فلقي وجه الله، ومات والمصحف في يده، وأصابت سهام السبئيين ونبالهم جمل عائشة وهودجها، فصارت تنادي، وتقول: يا بني، الله، الله، اذكروا الله ويوم الحساب، وكفوا عن القتال. والسبئيون لا يستجيبون لها، وهم مستمرون في ضرب جيش البصرة، وكان علي من الخلف يأمر بالكف عن القتال،

وعدم الهجوم على البصريين، لكن السبئيين في مقدمة جيشه لا يستجيبون له، ويأبون إلا إقدامًا وهجومًا وقتالاً، ولما رأت عائشة عدم استجابتهم لدعوتها، ومقتل كعب بن سور أمامها، قالت: أيها الناس، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم. وصارت عائشة تدعو على قتلة عثمان وتلعنهم، وضج أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان وأشياعهم، ولعنهم، وسمع علي الدعاء عاليًا في جيش البصرة، فقال: ما هذا؟ قالوا: عائشة تدعو على قتلة عثمان، والناس يدعون معها. قال علي: ادعوا معي على قتلة عثمان وأشياعهم والعنوهم. وضجّ جيش علي بلعن قتلة عثمان والدعاء عليهم، وقال علي: اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل. اشتدت الحرب واشتعلت وتشابك القوم وتشاجروا بالرماح، وبعد تقصف الرماح، استلوا السيوف فتضاربوا بها حتى تقصفت، ودنا الناس بعضهم من بعض، ووجّه السبئيون جهودهم لعقر الجمل وقتل عائشة أم المؤمنين، فسارع جيش البصرة لحماية عائشة وجملها، وقاتلوا أمام الجمل، وكان لا يأخذ

أحد بخطام الجمل إلا قُتل، حيث كانت المعركة أمام الجمل في غاية الشدة والقوة والعنف والسخونة، حتى أصبح الهودج كأنه قنفذ مما رُمي فيه من النبل، وقُتل حول الجمل كثير من المسلمين من الأزد وبنى ضبة وأبناء وفتيان قريش بعد أن أظهروا شجاعة منقطعة النظير، وقد أُصيبت عائشة بحيرة شديدة وحرج، فهي لا تريد القتال ولكنه وقع رغمًا عنها، وأصبحت في وسط المعمعة، وصارت تنادي بالكف، فلا مجيب، وكان كل من أخذ بخطام الجمل قُتل، فجاء محمد بن طلحة (السجّاد) وأخذ بخطامه وقال لأمه أم المؤمنين: يا أماه ما تأمرين؟ فقالت: كن كخيري ابني آدم - أي كف يدك - فأغمد سيفه بعد أن سله، فُقتل رحمه الله، كما قُتل عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، الذي حاول أن يقتل الأشتر حتى لو قُتل معه؛ وذلك أنه صارعه فسقطا على الأرض جميعًا، فقال ابن عتاب لمن حوله: اقتلوني ومالكًا، لحنقه عليه لما كان له من دور بارز في تحريض الناس على عثمان، رضي الله عنه، ولكن الأشتر لم يكن معروفًا بمالك، ولم يك قد حان أجله، ولو قال

الأشتر لابتدرته سيوف كثيرة، وأما عبد الله بن الزبير، فقد قاتل قتالاً منقطع النظير، ورمى بنفسه بين السيوف، فقد استُخرج من بين القتلى وبه بضع وأربعون ضربة وطعنة، كان أشدها وآخرها ضربة الأشتر؛ إذ من حنقه على ابن الزبير لم يرض أن يضربه وهو جالس على فرسه بل وقف في الركابين فضربه على رأسه ظانًا أنه قتله، واستحر القتل أيضًا في بني عدي وبني ضبة والأُزد، وقد أبدى بنو ضبة حماسة وشجاعة وفداء لأم المؤمنين.

أدرك أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه – بما أوتي من حنكة وقوة ومهارة عسكرية فذة – أن في بقاء الجمل استمرارًا للحرب، وهلاكًا للناس، وأن أصحاب الجمل لن ينهزموا أو يكفوا عن الحرب ما بقيت أم المؤمنين في الميدان، كما أن في بقائها خطرًا على حياتها؛ فالهودج الذي هي فيه أصبح كالقنفذ من السهام، فأمر علي نفرًا من جنده منهم محمد بن أبي بكر "أخو أم المؤمنين" وعبد الله بن بديل أن يعرقبا الجمل ويخرجا عائشة من هودجها إلى الساحة – أي يضربا قوائم الجمل بالسيف – فعقروا الجمل،

واحتمل أخوها محمد وعبد الله بن بديل الهودج حتى وضعاه أمام علي، فأمر به علي، فأُدخل في منزل عبد الله بن بديل، وصدق حدس علي - رضي الله عنه - العسكري، فما أن زال السبب أو الدافع الذي دفع البصريين إلى الإقبال على الموت بشغف، وأُخرجت أم المؤمنين من الميدان، حتى ولوا الأدبار منهزمين.

ولو لم يتخذ هذا الإجراء لاستمرت الحرب إلى أن يفنى جيش البصرة أصحاب الجمل، أو ينهزم جيش علي، وعندما بدأت الهزيمة نادى علي أو مناديه في جيشه أن لا يتبعوا مدبرًا ولا يُجهزوا على جريح، ولا يغنموا إلا ما حُمل إلى الميدان أو المعسكر من عتاد أو سلاح فقط، وليس لهم ما وراء ذلك من شيء، ونهاهم أن يدخلوا الدور، ليس هذا فحسب، بل قال لمن حاربه من أهل البصرة: من وجد له شيئًا من متاع عند أحد من أصحابه، فله أن يسترده، فجاء رجل إلى جماعة من جيش علي وهم يطبخون لحمًا في قدر له، فأخذ منهم القدر وكفأ ما فيها حنقًا عليهم.

وهنا يجب علينا الإشارة إلى أمر هام وقاعدة مهمة وتساؤل

يشغل الكثير من الناس وهو:

حديث أبي بكرة عن رسول الله: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". ألا يعد أصحاب الجمل ممكن يحق فيهم هذا الحديث؟

قال القرطبي: قال علماؤنا: ليس هذا الحديث - حديث أبي بكرة - في أصحاب النبي، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾[الحجرات: ٩].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. فأمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية، ولو أمسك المسلمون عن قتال أهل البغي لتعطلت فريضة من فرائض الله. وهذا يدل على أن قوله: "القاتل والمقتول في النار" ليس في أصحاب النبي، لأنهم إنما قاتلوا على التأويل. قال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين

الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف، لما أُقيم حد ولا أُبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة قد نُهينا عن القتال فيها، وأُمرنا بكف الأيدي والهرب منها. وقال النووي: وأما كون القاتل والمقتول فمحمولة على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار معناه مستحق لها وقد يجازى بذلك، وقد يعفو الله تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق.. وعلى هذا يتأول كل ما جاء من نظائره. واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة، رضي الله عنهم، ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم، وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغٍ، فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم مخطئًا معذورًا في الخطأ في

الاجتهاد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان علي رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا هو مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة، حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدتهم.

وهنا موقف أمير المؤمنين علي رضي عنه مع أم المؤمنين عائشة موقفًا في غاية النبل:

جاء أمير المؤمنين إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة، فاستأذن وسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بنى خلف يبكين على من قُتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قُتل مع عائشة، وعثمان قُتل مع علي، فلما دخل علي قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها علي شيئًا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك، إنا أُمرنا أن نكف عن

النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟
وجهز أمير المؤمنين علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وقال: تجهز يا محمد "ابن الحنفية" فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس، وودعوها وودعتهم، وقالت: يا بني، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة (تقصد إننا اختلفنا في أمر رأى كل منا الآخر على خطأ في استبطاء أخذ الثأر)، فلا يعتدين أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (تقصد حادثة الإفك)، وإن عندي علي من الأخيار.. وقال علي: يا أيها الناس، صدقت والله برت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة. وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها علي أميالاً وسرح بنيه معها يومًا. وبتلك

المعاملة الكريمة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه نراه قد اتبع ما أوصاه به نبي الأمة عندما قال له: "إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أنا؟ قال: نعم. قلت: فأنا أشقاهم يا رسول الله. قال: لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها". وقد خالف الصواب من ظن أن خروج أم المؤمنين إلى البصرة كان لشيء في نفسها من علي رضي الله عنه لموقفه منها في حديث الإفك، حين رماها المنافقون بالفاحشة فاستشاره النبي في فراقها. فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وأن تسأل الجارية تصدقك. وهذا الكلام الذي قاله علي إنما حمله عليه ترجيح جانب النبي، لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل، وكان شديد الغيرة، فرأى علي أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتها. قال النووي: رأى علي أن ذلك هو المصلحة في حق النبي، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة، لإرادة راحة خاطره (يريح خاطر النبي). وعلي رضي

الله عنه لم ينل عائشة رضي الله عنها بأدنى كلمة يُفهم منها أنه قد عرّض بأخلاقها أو تناولها بسوء، فإنه على الرغم من قوله للنبي: لم يضيق الله عليك، إلا أنه عاد فقال لرسول الله ناصحًا: وسل الجارية تصدقك. فهو قد دعاه إلى التحري أولاً قبل أن يفارقها، أي إنه قد رجع عن نصيحته الأولى بالمفارقة إلى نصيحة أخرى بسؤال الجارية، وتحري الحقيقة، وقد سأل رسول الله الجارية التي كانت أكثر التصاقًا بعائشة، فأكدت أنها ما علمت من أمر عائشة إلا خيرًا، وقد خرج رسول الله من يومه الذي سأل فيه الجارية، واستعذر من عبد الله بن أبي قائلاً: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت عن أهلي إلا خيرًا. لقد كانت نصيحة علي في صالح عائشة، فقد ازداد قناعة بما علم من خير في أهله. ولم يكن موقف علي في حادثة الإفك هو الذي جعل عائشة تغضب منه رضي الله عنه لأجله، أو تحقد الحقد الذي يجعلها تتهمه زورًا بقتل عثمان، وتخرج عليه مؤلبة الأعداد الهائلة من المسلمين، كما زعم كثير من الباحثين ممن

تورط في روايات الشيعة الرافضة التي لفقوها ووضعوها.

قال ابن تيمية: فإن عائشة لم تُقاتل، ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبلّ خمارها، وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعلي وغيرهم، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم.

وكل هذه الروايات تبين لنا نبل هؤلاء وبراءتهم من كل زور وبهتان رماهم به الشيعة الرافضة المحترقة، فليتنا تحرينا الدقة في كل رواية نرويها ونبحث عما صح فقط منها، فإن الرافضة دسوا على أحداث الفتنة الشيء الكثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ونحن الآن على أعتاب معمعة جديدة، ومعركة هي أشد من اختها، إنه يوم صفين، وإليكم ما حدث:

معركة صفين:

لما قُتل عثمان، رضي الله عنه، أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان؛ أرسلوا إلي بثياب عثمان التي قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجًا بالدم، وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها، وجاء في رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخًا بالدماء، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية، فورد النعمان على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره، وجاء شرحبيل بن السمط الكندي وقال لمعاوية، كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وألا فاعتزلنا. وآلى رجال الشام أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى

أرواحهم، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام بشعة؛ مقتل الخليفة، سيوف مسلطة من الغوغاء على رقاب الناس، بيت المال منتهك مسلوب، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون، ولا غرابة بعد هذا إطلاقًا أن نرى إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام بالإصرار على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة، وهل نتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتلين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة؟

لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتص علي - رضي الله عنه - من قتلة عثمان ثم يدخلوا البيعة، وقالوا: لا نبايع من يؤوي القتلة، وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم، وأنهم إذا قاتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قُتل مظلومًا

باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية – رضي الله عنه – يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولي دمه، والله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان وأنه قُتل مظلومًا على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات، وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله، فقام أحدهم – واسمه مرة بن كعب – فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ما تكلمت، وذكر الفتن فقربها، فمر رجل متقنع في ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم.

بعث علي رضي الله عنه كتبًا كثيرة إلى معاوية فلم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مرارًا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، ثم

بعث معاوية طُومارًا (صحيفة) مع رجل، فدخل به على علي فقال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَد (الثأر)،كلهم موتور (له ثأر) تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد.

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي، عزم الخليفة على قتال أهل الشام، كتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حُنيف بذلك، وخطب الناس فحثّهم على ذلك، وعزم على التجهز، وخرج من المدينة، واستخلف عليها قُثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج من أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسن بن علي فقال: يا أبه دَعْ هذا فإنّ فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه

ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد ابن الحنفية، وجعل ابن العباس على الميمنة، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة، وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يبقَ شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصدًا الشام، حتى جاءه ما شغله عن ذلك، وقد تم تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة إلى معركة الجمل.

وذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علي إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يُسمى البصرة أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد وعشرون يومًا، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر، ورُوي شهرين أو ثلاثة، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك، فنزل في الرحبة وصلى

بالجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هُنالك ثم يُقبلان إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية – رضي الله عنه – يدعوه إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلي: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين، فإن بيني وبينه وُدًا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه. فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمّا انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب وطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يُسلّم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن

آخرهم، فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: ألم أنْهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريرًا؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية بابًا إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت ثمّ لقتلوك بدم عثمان، فقال الأشتر: والله لو بعثتني لم يُعْيِيني جواب معاوية، ولأعجلنّه عن الفكرة، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة. فقام جرير مُغْضبًا فأقام بقرقيساء، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه، وهكذا كان الأشتر سببًا في إبعاد الصحابي جرير بن عبد الله الذي كان واليًا على قرقيسياء وعلى غيرها ورأسًا في قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين علي. وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال: ما رآني رسول الله إلا تبسم في وجهي، وقال: "يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن، على وجهه مسحةُ مَلَك".

وهذه إخواني هي طبيعة من أحاطوا بأمير المؤمنين وكانوا يريدون أن يكون في أيديهم الحل والعقد، سفهاء ضعاف الأحلام،

يتكلمون في أصحاب رسول الله وكأن أمير المؤمنين علي لسان حاله يقول متى يأتي اليوم الذي يعينني ربى على التخلص منكم.

واستعد أمير المؤمنين علي لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشًا ضخمًا اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات ضعيفة، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار في خمسين ألفًا.

وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخيلة، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك، فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق، واستعمل أمير المؤمنين علي أبا مسعود الأنصاري، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هانئ في أربعة آلاف، ثم خرج علي رضي الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفي، ووجه منها طليعة في ثلاثة آلاف إلى الموصل، وسلك رضي الله عنه طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي، حتى بلغ قرب قرقيسياء، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم علي إلى الرقة،

وعبر منها الفرات غربًا ونزل على صفين.

وكان معاوية جادًا في مطاردة قتلة عثمان، رضي الله عنه، فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزوا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم، ومنهم أبو عمرو بن بديل الخزاعي، ثم كانت له أيد في مصر وشيعة في أهل "خربتا" تطالب بدم عثمان، رضي الله عنه، كما استطاع معاوية أيضًا أن يوقع برؤوس مدبري ومخططي غزو المدينة من المصريين، مثل عبد الرحمن بن عديسي، وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة، فحبسهم في فلسطين، وذلك في الفترة التي سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم في شهر ذي الحجة عام ٣٦ هـ، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن عليًا نهد إليكم في أهل العراق..فقال ذو الكلاع الحميري: عليك أم رأي وعلينا أم فعال (يعني أنت تأمر ونحن نطيع وننفذ).

يقول الدكتور الصلابى فى كتابه "سيرة أمير المؤمنين على بن ابى طالب": "وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب

بدم عثمان، رضي الله عنه، والقتال، وقد قام عمرو بن العاص، رضي الله عنه، بتجهيز الجيش وعقد الألوية، وقام في الجيش خطيبًا يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلي قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة، ومنهم من قد قتل خليفتكم، فالله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تبطلوه، وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيدها، وهي عين الروايات التي قدرت جيش علي رضي الله عنه، فقُدّر بمائة ألف وعشرين ألفًا، وقُدّر بسبعين ألف مقاتل، وقُدّر بأكثر من ذلك بكثير، إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي: عمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور

السلمي على المقدمة. هؤلاء هم القادة الكبار، وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وُزعوا حسب القبائل، وكان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرون مما اقتضته الظروف، ولعل هذا يكون السبب في اختلاف أسماء القادة في بعض المصادر".

وبعث معاوية أبا الأعور السلمي مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقي من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر في سهل فسيح.

ووصل جيش علي رضي الله عنه إلى صفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعًا فسيحًا سهلاً يكفي الجيش، فعسكر في موضع وعر نوعًا ما؛ إذ أغلب الأرض صخور، فوجئ جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى علي رضي الله عنه يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس، فخرج في ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء، إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع

القتال في أصله، مفادها أن الأشعت بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد، هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾[الحجرات: ٩]، فقال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء. وقد كان القتال على الماء في أول يوم تواجها فيه في بداية شهر ذي الحجة فاتحة شر على الطرفين المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان علي رضي الله عنه يُخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميرًا، فتقتتلان مرة واحدة في اليوم، في الغداة أو العشي، وفي بعض الأحيان تقتتلان مرتين في اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش علي، الأشتر، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحي، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج، حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر

بن الخطاب، وأبو الأعور السلمي، وشرحبيل بن السمط، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين، تصان به الأرواح والدماء.

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة طمعًا في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهما، ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة – شهر المحرم – وردت من طرق ضعيفة، مشهورة، إلا أن ضعفها لا ينفي وجودها، كان البادئ بالمراسلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأرسل بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية، رضي الله عنه، يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول في الجماعة والمبايعة، فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل في البيعة، وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية، كما أن قراء الفريقين قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنجح تلك

المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه، وقد حاول اثنان من الصحابة، وهما أبو الدرداء وأبو أمامة، رضي الله عنهما، الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما أيضًا لنفس الأسباب السابقة، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع - أحد كبار التابعين - فوعظ، وخوف ولم يقاتل.

عادت الحرب على ما كانت عليه في شهر المحرم من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلي، إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة، وذُكر أنها تسعون، إلا أن عليًا أعلن في جيشه أن غدًا الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال، وبات جميع الجيشين في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية.

وقبل أن نبدأ في شرح تفاصيل المعركة يجب التنبيه على أمور، منها أن كلا الفريقين لا يريد قتالاً ويود أن لو تنازل أحدهما فانتهت القضية.

الأمر الثاني أن علي رضي الله عنه يرغب في التخلص من هؤلاء الشرذمة التي أحاطت به، ولكنه يعلم أن لا سبيل إلى هذا في الوقت الراهن، فهو يستعين بهم مكرهًا مرغمًا.

الأمر الثالث أن معاوية كان جادًا في طلب الثأر، لا يرى في ذلك هوادة مطلقًا، ولم يطلب الناس إلى بيعته، إنما هو يريد أن يفعل بهم ويفعل لقاء ما اقترفوا من دم عثمان.

الأمر الرابع أن الناس قد حزبتهم الفتنة وأكلتهم، فلو تفكر قليلاً علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه لكان من الممكن أن يتفق الفريقان، فريق معاوية ومن مع علي من فريقه، ولكن ليس من قتلة عثمان، لو اجتمع الفريقان على قتلة عثمان من جيش علي لكان من الممكن استئصال شوكتهم، ولتخلص منهم أمير المؤمنين ووحد الكلمة، وعادت الأمة لحمة واحدة، ولكنها الفتن هكذا تأخذ بلب الرجل الحازم فيصبح الحليم فيها حيران،

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الأمر الخامس هو أن كلاً منهما يعلم أنه غدًا سيقاتل رجلاً لطالما قاتل بجواره الكفرة وأعداء الله، وهما الآن سيتقاتلان غدًا، ولكن سبحان الله لو لم يحدث بينهما هذا لما علمنا كيف يكون قتال الفئة الباغية.

والآن نذهب إلى ذكر ما جاء من تفاصيل أيام المعركة، فلنستعن بالله ولنبدأ:

١- **اليوم الأول:** أصبح الجيشان في يوم الأربعاء قد نُظمت صفوفهما ووزعت حسب التوزيع المتبع في المعارك الكبرى: قلب وميمنة وميسرة، فكان جيش علي رضي الله عنه على النحو التالي: علي بن أبي طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية، حامل الراية، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية في كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع، وهو أمير الجيش، وعمرو بن

العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميري على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهرى على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء، وتقابلت الجيوش الإسلامية، وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن عليا خطب في جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله، وتذكر أيضًا أن عمرو بن العاص قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يُحرّض جيشه ويُحمّسه، ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر. والتحم الجيشان في قتال عنيف، استمر محتدمًا إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة، ويُصلي كل فريق في معسكره، وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش علي رضي الله عنه حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قُتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة. وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحدًا،

ولم يرَ مُوليًا (لم يفر أحد من الفريقين) حتى انتهى ذلك اليوم. وفي المساء خرج علي رضي الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لي ولهم.

٢- **اليوم الثاني:** في يوم الخميس تذكر الروايات أن عليًا رضي الله عنه قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم، وغيَّر بعض القيادات، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندي الذي تحول إلى الميسرة، وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقًا على أهل الشام، واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية، وعليها حبيب بن مسلمة، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء)، وأظهر شجاعة وحماسًا منقطع النظير، وصاحب هذا التقدم الجزئي تقدم عام لجيش العراق، حتى إن معاوية قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال واستحث كتيبته الشهباء، واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشتر، وتماسك أهل الشام

وبايع بعضهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة، وقُتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب وعبيد الله بن الخطاب، وانقلب الأمر لجيش الشام، وأظهر تقدمًا، وبدأ جيش العراق في التراجع، واستحر القتل في أهل العراق وكثرت الجراحات، ولما رأى علي جيشه في تراجع، أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديدًا، واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيه الحمية، وبايعوا أميرهم خالد بن المعتمر على الموت وكانوا أهل قتال.

وكان عمّار بن ياسر، رضي الله عنه، قد جاوز الرابعة والتسعين عامًا، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام. فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة.

ولما رأى عمار رضي الله عنه تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول رضي الله عنه: من سره أن تكتنفه الحور العين

فليقدم بين الصفين محتسبًا، فإني لأرى صفًا يضربكم ضربًا يرتاب منه المبطلون، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا ما يبلغون، لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل. ثم أخذ في التقدم، وفي يده الحربة ترعد – لكبر سنه – ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويستحثه في التقدم، ويرغبه ويُطمّعه فيما عند الله من النعيم، ويُطمّع أصحابه أيضًا، فيقول: أزفت الجنة وزُينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسبًا. وكان منظرًا مؤثرًا، فهو صحابي جليل مهاجري بدري جاوز الرابعة والتسعين، يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً مهمًا من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية، مما زادهم عنفًا وضراوة وتضحية في القتال، حتى استطاعوا أن يُحوّلوا المعركة لصالحهم، وتقدم هشام بن عتبة بن أبي وقاص، وعمار يقول: تقدم يا هشام، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت

في أطراف الأسل (الرماح)، وقد فُتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين.

وعند غروب شمس ذلك اليوم الخميس، طلب عمار شربة من لبن، ثم قال: إن رسول الله قال لي إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن، ثم تقدم واستحث معه حامل الراية هشام بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فلم يرجعا وقُتلا، رحمهما الله ورضي الله عنهما.

٣- ليلة الهرير، يوم الجمعة: عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية، حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل أمير المؤمنين علي قتالاً شديدًا، وبايع على الموت، وذُكر أن عليًا رضي الله عنه صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف، وقال الشافعي: وحُفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعانق بعضنا بعضًا، ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا

بعمد الحديد، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب وتعاضينا بالأسنان وتكادمنا بالأفواه، إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة وارتفعت الشمس، وإن كانت لا تُرى من غبار المعركة، وسقطت الألوية والرايات، وأنهك الجيش التعب، وكلت الأيدي وجفت الحلوق.

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجلان حتى يُثخنا ثم يجلسا يستريحان، وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه، ثم يقومون فيقتتلان كما كانا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك، وصلى الناس الصبح إيماء (هذه الطريقة في الصلاة شرعها الله في حال الخوف الشديد والاقتتال الشديد، وهي تقوم على تأدية أركان الصلاة ولكن بالشارة، دون تحريك البدن، ويكون ذلك خلال القتال)، وهم في القتال حتى تضاحى النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام.

انظروا إخوتي يرحمكم الله ما آلت إليه أمة المسلمين، فكل هؤلاء الأبطال كانوا في فتوح الشام وفارس يملأون الأرض عدلاً، ويُدخلون الإسلام ديار الشرك، ويهيلون إمبراطوريات لطالما حكمت العالم بالجور والكذب والظلم والخداع، وها هم الآن ينشغلون بأنفسهم ويتركون حمى الأعداء ليدقوا رقاب بعضهم البعض، ويهيلون أمجاد هذه الأمة التي طالما صنعوها هم بأنفسهم، فما من بطل في هذه المعارك إلا وله فتح كبير وغزو خلّده التاريخ، وبلد بكاملها تقع في ميزان حسناته، ولكنهم الآن يتطاحنون ويعتورون بعضم بعضًا بقتل وضرب وعض وتمزيق لبنيان هذه الأمة، ومع هذا كل منهم يظن نفسه على الحق وأنه يقاتل من أجل مبدأ غالٍ في نفسه، فما قاتل أحد هؤلاء وله هدف خبيث، إلا أتباع السبئية، والذين كانوا أداة تدمير بنيان هذه الأمة، والشرارة التي اتقدت منذ استشهاد أمير المؤمنين عمر، لتكمل خطتهم بهدم الخلافة، فنصل إلى ما وصلنا إليه في صفين، يضرب بعضنا أعناق بعض.

وهذا يا إخواني ثمن الفرقة والشقاق وتمزيق ذات البين، فهذا ما تدفعه الأمم إذا ما احتدم بينها الخلاف وعلا صوت الحرب على صوت العقل والحكمة، فإن الأمم التي يتناحر أهلها، بل ويتدابرون ويضرب بعضهم أعناق بعض لهي أمة حري بها أن تتفكك وتنتهي، لأن عوامل انفجارها تكمن في داخلها.

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة في أصحابه ليلة الهرير، فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ؛ فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليُبلغ الشاهد الغائب، إن نحن تقاتلنا غدًا إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحرب، ولكني رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غدًا، إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آلُ.

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن

نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يُبصر هذا ذوو الأحلام والنُهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرًا شيء أن تأتي أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك ويُنقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يُزعج ذلك السبئية الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركامًا من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل - كالمناداة لتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة - جريمة ومؤامرة وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين علي أقوالاً مكذوبة تُعارض ما في الصحيح، منها أن علي قال: ما رفعوها ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنًا ومكيدة. ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة (يقصدون عمرو بن العاص)، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص

- رضي الله عنه - حتى لم تعد تجد كتابًا من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص، وأنه مخادع وماكر، بسبب الروايات الموضوعة التي لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبري، وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام، ومحمد الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار في تاريخ الخلفاء الراشدين، وغيرهم كثير، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

إن رواية أبي مخنف تفترض أن عليًا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عُرفوا بالخوارج فيما بعد، وهذه الرواية تحمل سبًا من علي لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي؟! ويكفى للرواية سقوطًا أن فيها أبا مخنف الرافضي المحترق، فهي رواية لا تصمد للبحث النزيه، ولا تقف أمام روايات أخرى لا يُتهم أصحابها بهوى، مثل ما يرويه الإمام

أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أحد رجال علي بن أبي طالب، فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف؛ فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]، فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء – الذين صاروا بعد ذلك خوارج – بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ (يعنى يريدون الحرب أن تكتمل ويفنوهم عن آخرهم)، فقام سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي بين رسول الله وبين المشركين، ثم حدّثهم عن معارضة عمر، رضي الله عنه، للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله، فقال علي: أيها الناس إن هذا فتح (المقصود هنا أنه ذكرهم بأمر كان فيه

رسول الله مخير بين الحرب والتفاوض، فاختار التفاوض، وكان هذا مع مشركين كفرة، أما وقد صار الأمر بين مسلمين وبعضهم فوجب قبول التفاوض، والحوار أولى)، فقبل القضية ورجع، ورجع الناس. وأظهر سهل بن حنيف رضي الله عنه اشمئزازه ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة، وقال: أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، وبيّن لهم أنه لا خيار عن الحوار والصلح، لأن ما سواه فتنة لا تُعرف عواقبها (فقد يفنى كل العرب حتى لا يبقى منهم أحد)، وفي هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة، ومبغضي الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين؛ ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب، ليزرعوا البغضاء في النفوس ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة.

إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين، إذ

إن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهًا جماعيًا رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات.

إن أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه قَبِل وقف القتال في صفين، ورضي التحكيم وعدَّ ذلك فتحًا، ورجع إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف، وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد.

ولكن هنا يجب أن نقف عند مقتل عمار بن ياسر، وتفسير الطرفين لحديث رسول الله تقتلك الفئة الباغية.

يعد حديث رسول الله لعمار، رضي الله عنه، "تقتلك الفئة الباغية" من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبي، وقد كان لمقتل عمّار، رضي الله عنه أثر في معركة صفين، فقد كان علمًا لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت قد حضر صفين وكان كافًا سلاحه، فلما رأى مقتل عمار سل

سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله عن عمار: "تقتله الفئة الباغية". واستمر في القتال حتى قُتل، وكان لمقتل عمّار أثر في معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمن السلمي دخل في معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو وأبا الأعور السلمي، عند شريعة الماء يسقون (حوض ماء). وكانت هي شريعة الماء الوحيدة التي يستقي منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله: "تقتله الفئة الباغية". فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ما قال. فقال معاوية: اسكت، فوالله ما تزال تدحض في بولك (تضعف في عزيمتك)، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم، وجاء في رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وقد قال فيه رسول الله: "تقتله الفئة الباغية". فقام عمرو بن العاص فزعًا يرجع،

حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار. قال معاوية: فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله يقول له: "تقتلك الفئة الباغية".فقال له معاوية: دحضت في بولك، أو نحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه، وجاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال: بين سيوفنا.

وفي رواية صحيحة أيضًا: جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهما: أنا قتلته؛ فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطب به أحدكم نفسًا لصاحبه، فإني سمعت رسول الله يقول: "تقتله الفئة الباغية". فقال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله، فقال: أطع أباك ما دام حيًا ولا تعصه. فأنا معكم ولست أقاتل. من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - حريص على قول الحق والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عمارًا، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة؛ ولا شك أن مقتل عمار - رضي الله عنه - قد أثّر في أهل

الشام بسبب هذا الحديث، إلا أن معاوية – رضي الله عنه – أوّل الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح في أن الذين قتلوا عمارًا هم الذين جاءوا به إلى القتال. وقد أثّر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعًا لعمرو بن العاص للسعي لإنهاء الحرب، وقد قال رضي الله عنه: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وقد جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: كنا نحمل لبنة؛ وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبي، فينفض التراب عنه ويقول: "ويح عمّار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار".قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبي أنه قال: "تقتل عمارًا الفئة الباغية"، وهذا من إخباره بالغيب وإعلام نبوته، وهو من أصح الأحاديث، وقال الذهبي بعدما ذكر الحديث: وفي الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر.

ثم كانت قضية التحكيم الشهيرة التي نعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

وقبل أن نبدأ في عرض ما جاء في التحكيم، نقف مع عدة أمور، منها أنه بات واضحًا من الروايات الصحيحة التي ذكرناها أن عمرو بن العاص رضي الله عنه إنما يقاتل عن عقيدة وديانة، لا مكرًا وخديعة كما قال من تكلموا فيه بغير علم، فبدا واضحًا أنه لما رأى عمار استُشهد بان له أنه ليس على الحق وأنه يجب إنهاء هذا الأمر فورًا، ولذلك عرض التحكيم ليبدأ في حقن الدماء.

الأمر الثاني أن عليًا يتمنى أي شئ يحدث ليحقن به الدماء، فلما عُرض عليه تحكيم كتاب الله قبل من فوره ولم يتردد لحظة واحدة.

الأمر الثالث هو أن الحروب أبدًا لا تحسم نزاعًا، إنما المفاوضات والأخذ والرد هو ما يحسم الأمور، أما الحرب فهي فقط يُلجأ لها أحيانًا لتحريك المفاوضات، ولكن لا تُحسم بها الأمور أبدًا، فالمغلوب سيسعى ليرد ثأره، وهكذا الكرة لا تنتهي.

الأمر الرابع أن ما يحدث هذا كله ليس إلا فتنة للأمة واختبارًا يُمحّص الله به بين الناس ويختبر بعضهم ببعض، فينظر ماذا يفعل كل فريق منهم.

التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين؛ وهو أن يُحكِّم كل واحد منهما رجلاً من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص ووكل علي أبا موسى الأشعري، رضي الله عنهم جميعًا، وكُتبت بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ، وقد رأى قسم من جيش علي رضي الله عنه أن عمله هذا ذنب يُوجب الكفر، فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسُموا الخوارج، فأرسل علي رضي الله عنه إليهم ابن عباس، رضي الله عنهما، فناظرهم وجادلهم، ثم ناظرهم علي رضي الله عنه بنفسه، فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة، وهذا ما سنعرض له لاحقًا.

ويجب أن ننبه هنا على أن كل ما جاء من روايات باطلة وموضوعة

دُست على هذا الحدث إنما هي من رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب، وهي روايات باطلة ومنكرة، بل وموضوعة على أصحاب رسول الله، ويجب أن ننبه إننا دائماً نتحرى في مباحث التاريخ ما صح إسناده أو كاد، حتى نتجنب ما أُدخل على تاريخ المسلمين، ولو أن ما أُدخل عليه ليس بالهين أو القليل، ولذلك سوف أذكر لكم نص الوثيقة التي اتفق عليها الطرفان في التحكيم "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه.

١- قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

٢- إنا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحيا ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٣- وأن عليًّا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى الأشعري) ناظرًا وحاكماً، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكماً.

٤- على أن عليًا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله، أن يتخذا القرآن إمامًا ولا يعدوان به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورًا، وما لم يجدا في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يعتمدان لها خلافًا، ولا يبغيان فيها بشبهة.

٥- وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٦- وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، ما لم يَعْدُوَا الحق، رضي به راضٍ أو سخط ساخط، وأن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

٧- فإن تُوفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٨- وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية، فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

٩- وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح.

١٠- وقد وجبت القضية على ما سميناه في هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيد وكفى به شهيدًا، فإن خالفا وتعديا، فالأمة بريئة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة.

١١- والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعة، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

١٢- وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطًا عدلاً بين أهل العراق والشام.

١٣- ولا يحضرهما فيه إلا من أحبَّا عن تراضٍ منهما.

١٤- والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجلاها، وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأجل أخَّراها.

١٥- فإن هما لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهما الأول في الحرب.

١٦- وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعًا يد واحدة على ما أراد في هذا الأمر إلحادًا أو ظلمًا أو خلافًا".

وهذه الوثيقة توضح بنود الاتفاق وتضع شروطه وتُبين للجميع ما للحكمين من حقوق وأمان لهما ولأهليهما، وما عليهما من واجبات من أن يلتزما بكتاب الله وسنة نبيه، لا يجاوزاهما، وأن يكون الحكم النهائي في آخر شهر رمضان، وحددت الوثيقة كل الاحتمالات من موت أمير أحد الفريقين أو موت أحد الحكمين، وبينت ما تراضت عليه الأمة واتفقت من أمان ووضع للسلاح وأمان في الطرق والمعاش انتظارًا لحكم الحكمين.

طبعًا لا يخفى على حضراتكم تلك الرواية المعلولة التي انتشرت في كتب السير من أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري وخلع علي وأثبت معاوية، في قصة لا تستقيم على قدم ولا ساق، لا سندًا ولا متنًا، ولسنا هنا بصدد ذكر هذه القصة تفصيلاً

ونقضها، إنما نحن نتحرى ما صح من الروايات والأسانيد، لذلك لزم التنويه فقط عنها، أما ما حدث على الحقيقة فيرويه لنا البخاري، فيقول في تاريخه: "أن معاوية أرسل إلى عمرو بن العاص فقال له: إنه بلغني عنك بعض ما أكره وأريد أن أسالك عن الأمر الذي اجتمعت وأبو موسى فيه، كيف صنعتما فيه؟ قال عمرو: قد قال الناس وقالوا (أي اختلقوا قصصًا وأكاذيب)، ولا والله ما كان ما قالوا، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر (يقصد ما ترى في علي)؟ قال: أرى أنه من النفر الذين تُوفي رسول الله وهو عنهم راضٍ. قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية (وما ترى في أنا ومعاوية)؟ قال: أن يستعين بكما، ففيكما معونة، وأن يستغني عنكما، فطال ما استغنى أمر الله عنكما. وقد روى أبو موسى عن تورع عمرو ومحاسبته لنفسه، وتذكره سيرة أبي بكر وعمر، وخوفه من الأحداث بعدهما، قال أبو موسى: قال لي عمرو بن العاص: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحل لهما،

لقد غُبنا (أي خسرا) وأخطآ أو نقص رأيهما (لم يصيبا)، ووالله ما كانا مغبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي، ووالله ما جاءنا الوهم والضعف إلا من قبلنا". وهنا يظهر كيف كان هؤلاء من الطهارة والعفة ما يُخرس كل متكلم في حقهم أو موتور منهم أو منتقص لأقدارهم، وكيف أنه يدين نفسه ويذكر أبا بكر وعمر بالفضل والمكانة، وأن الحق كل الحق كان معهما، لكن المسألة عويصة، وكلا الحكمين لا يعرفان كيف يمكن أن ينتهي هذا الأمر، فطالب الثأر معه حق، والذي يؤجل حتى تستتب الأمور معه حق، فالحكمان في حيرة لا يمكن أبدًا أن تُفضي إلى حل.

وهنا يجب أن نوضح حقيقة غائبة عن الكثيرين، وهي أن معاوية كان يقر بفضل علي عليه، وأنه أحق بالخلافة منه، فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حياة علي، فقد أخرج يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تُنازع عليًا في الخلافة، أو أنت مثله؟ قال: لا وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلومًا

وأنا ابن عمه ووليه أطالب بدمه؟ فأتوا عليًا فقولوا له: يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه فلم يدفعهم إليه. فهذا هو أصل النزاع بين علي ومعاوية، رضي الله عنهما؛ فالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها، لا لاختيار خليفة أو عزله كما يزعم الناس ويخطئون في فهم هذه القضية برمتها.

والسؤال هنا هل بايع أهل الشام معاوية خليفة على عهد علي رضي الله عنه؟

نقل ابن عساكر بسند رجاله ثقات، قال: كان علي بالعراق يُدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يُدعى الأمير، فلما مات علي دُعي معاوية بالشام أمير المؤمنين. فهذا النص يبين أن معاوية لم يُبايع بالخلافة إلا بعد وفاة علي، وإلى هذا ذهب الطبري، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين: وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء (القدس)، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبقَ له عندهم منازع، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كُفئًا

لعلي بالخلافة ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي رضي الله عنه، فإن فضل علي وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله: كانت عندهم ظاهرة ومعروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"، والنصوص في هذا المعنى كثيرة. ومن المحال أن يُطبق الصحابة على مخالفة ذلك.

اجتمع الحكمان في موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يُمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، والآخر يُمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به، وكان قرار الحكمين رد الأمر إلى

الأمة وإلى أهل الشورى، يعني لم يحصل اتفاق ولم تنجم جلسة التحكيم عن أحكام، بل لم يتفق الحكمان، وانتهى التحكيم إلى لا شيء، وهنا جهز علي جيشًا جديدًا لقتال أهل الشام، حتى كان أمر الخوارج.

ففي أثناء هذا كله بدأت تدب روح الفرقة والتشرذم بين جيش علي، فقد بدأت تخرج عن إمرته فرق جديدة، أشدها وأخطرها عليه كانت الخوارج، والتي كان منهم قتلة علي رضي الله عنه.

وبهذا يبدأ الإمام علي رضي الله عنه في حرب جديدة مع الفرق التي شذت عن التحكيم، وهما الخوارج الذين رفضوا هذا التحكيم وكفّروا عليًا ومعاوية، بل وكفّروا جمهور الصحابة، والشيعة التي تشيعت لعلي فغالت فيه وألّهته حتى أحرقهم بالنار، وهاتان هما أول فرقتين خرجتا عن فرقة الإسلام الأولى، أهل السنة والجماعة.

انفصل الخوارج في جماعة كبيرة من جيش علي رضي الله عنه أثناء عودته من صفين إلى الكوفة، قُدّر عددها في رواية ببضعة عشر

ألفًا، وحُدد في رواية باثني عشر ألفًا، وفي رواية بثمانية آلاف، وفي رواية بأنهم أربعة عشر ألفًا، كما ذُكر أنهم عشرون ألفًا.

وقد انفصل هؤلاء عن الجيش قبل أن يصلوا إلى الكوفة بمراحل، وقد أقلق هذا التفرق أصحاب علي وهالهم، وسار عليّ بمن بقي من جيشه على طاعته حتى دخل الكوفة، وانشغل أمير المؤمنين بأمر الخوارج، خصوصًا بعدما بلغه تنظيم جماعتهم من تعيين أمير للصلاة وآخر للقتال، وأن البيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يعني انفصالهم فعليًا عن جماعة المسلمين.

وكان أمير المؤمنين علي حريصًا على إرجاعهم إلى جماعة المسلمين، فأرسل ابن عباس إليهم لمناظرتهم.

وكانت المناظرة الشهيرة التي سطرها التاريخ بين عبد الله بن عباس رضي الله عنه والخوارج، وإليكم ما جاء فيها: فها هو ابن عباس نفسه يروي لنا الحادثة، فيقول: ...فخرجت إليهم ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، وترجلت، ودخلت عليهم في دار في نصف النهار، وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيرًا، فقالوا:

مرحبًا بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون عليّ؟ لقد رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من الحُلل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢]. قالوا: فما جاء بك؟، قال: قد أتيتكم من عند صحابة النبي من المهاجرين والأنصار، من عند ابن عم النبي وصهره وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون (يعنى طلب منهم أن يخرجوا له نقباء عنهم)، فانتحى لي نفر منهم، قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله وابن عمه، قالوا: ثلاثًا، قلت: ما هن؟ قالوا: أما إحداهن: فإنه حكّم الرجال في أمر الله، وقال الله: "إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ"، ما شأن الرجال والحكم؟ قلت: هذه واحدة، وأما الثانية فإنه قاتل ولم يَسب ولم يغنم، فإن كانوا كفارًا لقد حل سبيهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سبيهم ولا قتلهم، قلت: هذه اثنتان فما الثالثة؟، قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟

قالوا: حسبنا هذا، قلت لهم: أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنة نبيه ما يرد قولكم، أترجعون؟ قالوا: نعم، قلت: أما قولكم: حكّم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم من كتاب الله أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيتم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[المائدة: ٩٥]، وكان من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل، قلت: وفي المرأة وزوجها ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾[النساء: ٣٥]، فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة، تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلتم: إنا

نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج، أفخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فقال: وأما محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما تضرون، إن نبي الله يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: "اكتب يا علي ما صالح عليه محمد رسول الله"، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: "امحُ يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امحُ يا علي واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله"، والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاة من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم، فقاتلوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار.

من المناظرة السابقة يظهر أمامنا شباب أحداث الأسنان، يظنون أنفسهم على الدين والحق، وهم لا يدرون شيئًا من العلم بكتاب الله وسنة رسوله، فليس كل من حفظ القرآن عالم به، وليس كل

من قرأ السُنّة فقيه فيها، إنما مناط ما كان عليه هؤلاء أنهم جهلاء لم يتعلموا على يد أصحاب رسول الله وظنوا أنهم قد يمتلكون الحق بغير علم، وهذا والله مذلة أقدام وممحاة رجال من التاريخ، فإن العلم يؤدب صاحبه، وكلما وسع المرء علمًا كلما ازداد تقبله للآخر وتفهمه لموقفه، بل ويعذره أحيانًا في حال الخلاف، فما كان من أمر بن عباس رضي الله عنه إلا أن بين لهم جهلهم بالفهم العميق لنصوص الشرع، وأنهم ما ينقمون على علي إلا بجهل وقصر نظر وضيق أفق وغياب علم بشرع ربنا،

فهم ينقمون على علي أنه قبل بالتحكيم ونسوا أن الله حكم المؤمنين في الصلح بين الرجل وامرأته، أهذا أولى أم تحكيم الرجال في أمر قتال الأمة؟ ونقموا على علي أنه قاتل ولم يسبِ من هزمهم، فقال لهم ابن عباس إنما تريدون أن يسبي عائشة أم المؤمنين، فهي أمكم، فهل يحل لكم منها ما يحل من باقي النساء وهي أمكم؟ إن قلتم هي ليست أمنا كفرتم بنص كتاب الله، وإن قلتم أمنا ونستحل منها كفرتم أيضًا، فأنتم بين كفرين، ونقموا

على علي أنه محى أمير المؤمنين لرأب الصدع وجمع الكلمة، وكان رسول الله قد فعل مثل ذلك في صلح الحديبية، حيث طلب منه سهيل بن عمرو أن يمحوا كلمة رسول الله ويكتب محمد بن عبد الله، فقبل وطلب من علي نفسه أن يمحها، وحينها رفض علي فعل ذلك، ففعله الرسول بيده الشريفة عليه الصلاة والسلام.

معركة النهروان (٣٨ هـ):

سبب المعركة: كانت الشروط التي أخذها أمير المؤمنين علي على الخوارج ألا يسفكوا دمًا، ولا يروعوا آمنًا، ولا يقطعوا سبيلاً، وإذا ارتكبوا هذه المخالفات فقد نبذ إليهم الحرب، ونظرًا لأن الخوارج يكفِّرون من خالفهم ويستبيحون دمه وماله، فقد بدأوا بسفك الدماء المحرمة في الإسلام، وقد تعددت الروايات في ارتكابهم المحظورات، ومما صح من هذه الروايات ما حدّث به شاهد عيان كان من الخوارج ثم تركهم، حيث قال: صحبت أصحاب النهر، ثم كرهت أمرهم، فكتمته خشية أن يقتلوني، فبينما أنا مع طائفة منهم، إذ أتينا على قرية وبيننا وبين القرية

نهر، إذ خرج رجل من القرية مذعورًا يجر رداءه، فقالوا له: كأننا روعناك؟ قال: أجل، قالوا: لا روع لك (لا تخف)، فقلت: والله يعرفونه ولم أعرفه، فقالوا: أنت ابن خباب صاحب رسول الله؟ قال: نعم، قالوا: عندك حديث تحدثنا إياه عن أبيك عن النبي؟ قال: سمعته يقول: أنه سمع النبي ذكر فتنة فقال: "القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركتك فكن عبد الله المقتول"، فأخذوه وسُرِّيَّة (شابة صغيرة) له معهم، فمر بعضهم على ثمرة ساقطة من نخلة، فأخذها فألقاها في فيه، فقال بعضهم: ثمرة معاهد فبم استحللتها؟ فألقاها من فيه ثم مروا على خنزير فنفحه بعضهم بسيفه، فقال بعضهم: خنزير معاهد فبم استحللته؟، فقال عبد الله بن خباب: ألا أدلكم على ما هو أعظم عليكم حرمة من هذا؟ قالوا: نعم، قال: أنا، ولكنهم قدموه إلى النهر فضربوا عنقه، يقول الراوي: فرأيت دمه يسيل على الماء، كأنه شراك نعل اندفر بالماء حتى توارى عنهم، ثم دعوا بالسرية وهي حبلى، فبقروا عما

في بطنها، يقول الراوي: لم أصحب قومًا هم أبغض إليّ صحبة منهم، حتى وجدت خلوة فانفلت (هربت منهم).

أثار هذا العمل الرعب بين الناس، وأظهر مدى إرهابهم ببقر بطن هذه المرأة وذبحهم عبد الله كما تُذبح الشاة، ولم يكتفوا بهذا، بل صاروا يهددون الناس قتلاً، حتى إن بعضهم استنكر عليهم هذا العمل قائلين: ويلكم، ما على هذا فارقنا عليًا، إنهم يقتلون ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ويبقرون بطن المرأة بكل بشاعة وقسوة وفظة وغلظة، ويدّعون أنهم على مقربة من ربهم، وأنهم يعبدون الله، يقيمون الليل فلا ينامون، ويقرأون القرآن ولكن لا يُجاوز تراقيهم، فلا يدخل إلى قلوبهم أبدًا، يذبحون المسلمين بغير ما شفقة ولا رحمة، وهذا هو الإرهاب إخواني في كل زمان ومكان، لا يعمد أبدًا إلى من أدبه علم أو رباه دين وفهم مستقيم، إنما يعهد إلى شباب جُهّال أحداث الأسنان متحمسين، يظنون أنهم يُجاهدون في سبيل الله بصنيعهم هذا، وأين ما يفعله هؤلاء من الجهاد في سبيل الله الذي ربى عليه رسولنا أصحابه،

أن ترويع الآمنين أمر محرم شرعًا، حتى لو كان من تروعه كافر، ولكنه ليس بينك وبينه قتال، فإن الدماء محفوطة في دين ربها، لزوال الدنيا وما عليها أهون عند الله من سفك دم حرام، ولذلك لا تجد الإرهاب يستشري في مجتمع إلا وترى الجهل هو آفة هذا المجتمع، والفقر هو قرينه، وتجد البطالة منتشرة بين ربوعه، فهي البيئة الخصبة لمثل هذا الفكر الآسن والتصرفات التي يأباها ديننا ومجتمعنا والإنسانية جميعها.

و بالرغم من فظاعة ما ارتكبه الخوارج من منكرات بشعة، لم يبادر أمير المؤمنين علي إلى قتالهم، بل أرسل إليهم أن يُسلّموا القتلة لإقامة الحد عليهم، فأجابوه بعناد واستكبار: كلنا قتلة، فسار إليهم بجيشه الذي قد أعده لقتال أهل الشام في شهر محرم من عام ٣٨ هـ، وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان، والخوارج على الضفة الشرقية، بحذاء مدينة النهروان.

وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يُدرك أن هؤلاء القوم هم الخوارج الذين عناهم رسول الله بالمروق من الدين، لذلك أخذ

يحث أصحابه أثناء مسيرهم إليهم ويحرضهم على قتالهم، وكان لأحاديث رسول الله في الخوارج أثرها لدى الصحابة وأتباع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقد كان رضي الله عنه يحث جيشه على البدء بهؤلاء الخوارج، فقال: أيها الناس إني سمعت رسول الله: "يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تُجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية". لو يعلم الجيش الذي يصيبونه ما قضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل (يقصد لو يعلم الجيش الذي سيحاربهم ما له من ثواب عند الله لتوقف عن عمل الصالحات بعدها لأنه أدرك أنه من أهل الجنة)، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعيرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام، وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن

يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله.

وقال رضي الله عنه في يوم النهروان: أُمرت بقتال المارقين.. وهؤلاء المارقون.

وعسكر الجيش في مقابلة الخوارج يفصل بينهما نهر النهروان، وأمر جيشه ألا يبدأوا بالقتال، حتى يجتاز الخوارج النهر غربًا، وأرسل علي رضي الله عنه رسله يناشدهم الله ويأمرهم أن يرجعوا، وأرسل إليهم البراء بن عازب رضي الله عنه يدعوهم ثلاثة أيام فأبوا، ولم تزل رسله تختلف إليهم حتى قتلوا رسله، واجتازوا النهر، وعندما بلغ الخوارج هذا الحد وقطعوا الأمل في كل محاولات الصلح وحفظ الدماء، ورفضوا عنادًا واستكبارًا العودة إلى الحق وأصروا على القتال، قام أمير المؤمنين بترتيب الجيش، وتهيئته للقتال، فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى الميسرة شبث بن ربعي، ومعقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل

المدينة - وكانوا سبعمائة - قيس بن سعد بن عبادة، وأمر علي أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون، وكانوا أربعة آلاف، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي، فرجعوا على عليّ وكان على ميمنتهم زيد بن حصن الطائي السنبيسي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي، فوقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه.

وزحف الخوارج إلى علي، وقدّم علي بين يديه الخيل، وقدّم منهم الرماة، وصف الرجالة وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم، وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدّمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلتهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم، وعطفت

عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخـوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقُتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سخبرة السلمي، وقال أبو أيوب: وطعنت رجلاً من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صليًا.

وقد اعتزل كثير من الخوارج القتال لكلمة سمعوها من عبد الله بن وهب الراسبي، كانت تدل عندهم على ضعف الاستبصار والوهن في اليقين، وهذه الكلمة قالها عندما ضرب علي رضي الله عنه رجلاً من الخوارج بسيفه، فقال الخارجي: حبذا الروحة إلى الجنة، فقال عبد الله بن وهب: ما أدري إلى الجنة أم إلى النار، فقال رجل من بني سعد وهو فروة بن نوفل الأشجعي: إنما حضرت اغترارًا بهذا وأراه قد شك (يعنى أنا هنا لأني أثق في هذا الرجل ودينه وأراه قد شك في أنه على الحق أصلاً؟!)، فانعزل بجماعة من أصحابه، ومال ألف إلى أبي أيوب الأنصاري، وجعل الناس يتسللون. وقد كانت

معركة حاسمة وقصيرة، أخذت وقتًا من اليوم التاسع من شهر صفر من عام ثمان وثلاثين للهجرة، وأسفرت هذه المعركة الخاطفة عن عدد كبير من القتلى في صفوف الخوارج، وكان الحال على عكس ذلك تمامًا في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقتلى أصحاب علي فيما رواه مسلم في صحيحه، وعن زيد بن وهب: رجلان فقط. ويذكر المسعودي أن عددًا يسيرًا لا يتجاوز العشرة، فروا بعد الهزيمة الساحقة.

ثم يبدأ أبو السبطين في صراع جديد مع الفرقة الأخرى، ألا وهي الشيعة، ولكن لنعلم أن أول من وضع لبنة التشيع ودعى لها وحض عليها هو عبد الله بن سبأ، ذلك الذي حاك أغلب خيوط المؤامرة التي عانت منها الأمة، بمساعدة هؤلاء الموتورين والسفهة وضعاف الاحلام، وإن لم تقم بين الشيعة وبين أمير المؤمنين معارك إلا أنه أحرق من ادعى ألوهيته رضي الله عنه وأرضاه، حتى قال المغالون لا يحرق بالنار إلا رب النار، وها هو عذبهم بالنار إذن فهو الله، ومثل هذا الخلط ليس هذا متسع

لذكره، لكننا نذهب إلى الأيام الاخيرة في حياة أبي السبطين وحبيب رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وقد كان قتال أمير المؤمنين - رضي الله عنه - لهذه الفرقة الخارجة المارقة دليلاً قويًا وحجة ظاهرة في أنه مصيب في قتاله لأهل الشام، وأنه أولى بالحق من معاوية، فقد جاء عن رسول الله أنه قال: "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق"، فالقارئ يتوقع أن الجيش سيكون أشد عزيمة في قتال أهل الشام لما تيقن لديهم هذه البراهين وغيرها مما سبق، كمقتل عمار بن ياسر - رضي الله عنه - إلا أنه بالرغم من ذلك فالذي حدث عكس ما هو متوقع منهم، فالخطة التي رسمها أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - هي الذهاب إلى الشام بعد الانتهاء من قتال الخوارج، لأن إدخال الشام تحت خلافته وإعادة وحدة الأمة هدف يجب تحقيقه وغاية يسعى إلى الوصول إليها، وما حربه للخوارج إلا تأمين للجبهة الداخلية خشية أن يقعوا بمن في العراق من الذراري أثناء غيابه - كما ذكر ذلك في

خطبته - ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ لم يستطع - رضي الله عنه - غزو الشام حتى استُشهد، فلقد كان لخروج الخوارج أثر في إضعاف جيش أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - كما أن الحروب في الجمل وصفين والنهروان، تسببت في ملل أهل العراق من الحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام في صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت أطفالاً ورملت نساءً، بدون أن يتحقق مقصودهم، ولولا الصلح أو التحكيم الذي رحب به أمير المؤمنين علي وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامي لا يُتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع علي - رضي الله عنه - إلى الشام مرة أخرى أحب إليهم وتميل إليه نفوسهم، وإن كانوا يعلمون أن عليًّا على حق، ومن المعضلات التي أوهنت جانب أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - خروج فرقة تغالي في تعظيمه وترفعه إلى مقام الألوهية، حتى بدا للبعض أن هذا رد فعل للخوارج الذين يتبرأون من

علي ويكفرونه، ولكن هؤلاء كان مقصدهم سيئًا وهو إدخال معتقدات فاسدة على المسلمين لهدم الدين وإضعاف المسلمين عامة، وليس جيش علي فقط، ولقد تصدى لهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - كما بينا - ولاشك أن مباينة الخوارج وقتلهم أضعف جانب علي كثيرًا، ثم تتابعت الانشقاقات في جيش علي من بعد، فخرج الخريت بن راشد، وقيل اسمه الحارث بن راشد، في قومه من بني ناجية، وكان من ولاة علي على الأهواز، فدعا إلى خلع علي، فأجابه خلق كثير، واحتوى على البلاد وجبى الأموال، فبعث إليه جيشًا بقيادة معقل بن قيس الرياحي فهزمه وقتله، وطمع أهل الخراج في ناحية علي في كسر الخراج، وانتقض أهل الأهواز، ولابد أن عليًا واجه من أجل ذلك بعض الصعوبات المالية والعسكرية، وقد رُوي عن الشعبي في هذا الخصوص قوله: لما قتل علي أهل النهروان، خالفه قوم كثير، وانقضت عليه أطرافه، وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن الحضرمي البصرة وانتقض أهل الأهواز، وطمع أهل الخراج في كسره، وأخرجوا سهل بن

حنيف عامل علي بن أبي طالب من فارس.

وفي الجانب الآخر كان معاوية - رضي الله عنه - يعمل بشتى الوسائل سرًا وعلانية على إضعاف جانب أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشًا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص - رضي الله عنه - سيطر عليها وضمها إليه.

هادن أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - معاوية، ويبدو أن هذه الهدنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أبي أرطأة إلى الحجاز في العام الذي استُشهد فيه علي - رضي الله عنه - ولما لم يتمكن علي - رضي الله عنه - من تجهيز الجيش بما يصبوا ويريد، ورأى خذلانهم؛ كره الحياة وتمنى الموت، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يُعجّل منيته، فمما رُوي عنه أنه خطب يومًا فقال: اللهم إني قد سئمتهم وسئموني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم (يعنى يا ليت أن أشقى هؤلاء القوم يخضب لحيتي بدمي

ويقتلني)، ووضع يده على لحيته، وقد ألح علي - رضي الله عنه - في الدعاء في أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على علي - رضي الله عنه - حتى وطئوا على رجله، فقال: إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، وفي رواية أخرى عن أبي صالح قال: شهدت عليًا وضع المصحف على رأسه حتى تقعقع الورق، فقال: اللهم إني سألتهم ما فيه فمعنوني، اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير أخلاقي، فأبدلهم بي شرًا مني، وأبدلني بهم خيرًا منهم. وفي رواية فلم يلبث إلا ثلاثًا أو نحو ذلك، حتى قُتل رحمه الله.

لقد تركت معركة النهروان في نفوس الخوارج جرحًا غائرًا لم تزده الأيام والليالي إلا إيلامًا وحسرة، فاتفق نفر منهم على أن يفتكوا بعلي - رضي الله عنه - ويثأروا لمن قُتل من إخوانهم في النهروان.

و كان من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن ملجم والبُرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التيمي اجتمعوا، فتذاكروا أمر الناس،

وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسهم فأتينا أئمة الضلالة، فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا، فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب - وكان من أهل مصر - وقال البرك بن عبد الله: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن أبي بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم، فسموها وتعاهدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي صاحبه فيه ليقتله.

ثم يروي محمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين؛ يروى قصة مقتل أبيه: قال ابن الحنفية: كنت والله إني لأصلي تلك الليلة التي ضُرب فيها علي في المسجد الأعظم في رجال كثير من أهل المصر، يصلون

قريبًا من السدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره، إذ خرج علي لصلاة الغداة، فجعل ينادي: أيها الناس الصلاة الصلاة، فما أدري أخرج من السدة، فتكلم بهذه الكلمات أم لا، فنظرت إلى بريق (لمعة سيف)، وسمعت: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك، فرأيت سيفًا، ثم رأيت ثانيًا، ثم سمعت عليًا يقول: لا يفوتنكم الرجل، وشد الناس عليه من كل جانب، قال: فلم أبرح حتى أُخذ ابن ملجم وأُدخل على علي، فدخلت فيمن دخل من الناس، فسمعت عليًا يقول: النفس بالنفس، أنا إن مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، وذكر أن الناس دخلوا على الحسن فزعين لما حدث من أمر علي، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه، إذا نادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي: أي عدو الله، لا بأس على أبي، والله مخزيك، قال: فعلى من تبكين؟ والله لقد اشتريته بألف، وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد (يقصد ابن ملجم أنه اشترى سيفًا بألف درهم

ودسه في سم بألف درهم).

قال جمع الأطباء لعلي - رضي الله عنه - يوم جُرح، وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكوني، وكان صاحب كسرى، وكان طبيبًا حاذقًا، فأخذ أثير رئة شاة حارة، فتتبع عرقًا منها، فاستخرجه فأدخله في جراحة علي، ثم نفخ العرق فاستخرجه، فإذا عليه بياض الدماغ، وإذا الضربة قد وصلت إلى أم رأسه (وصلت الضربة إلى المخ وقد أصابه السم)، فقال: يا أمير المؤمنين، اعهد عهدك فإنك ميت، وذكر أن جندب بن عبد الله دخل على علي فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا نفقدك - فنبايع الحسن؟ قال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

وهنا يقع المجاهد البطل ويُطرح على فراش الموت ليُودع عالم الدنيا التي ما عرف فيها راحة قط إلى رحابة ملكوت السماء، ليدفع علي ثمن فتنة لم يكن هو سببها، وثمن أمة بدأت تتكالب عليها الأمم وتمكر بها وتكيد لها، ويدفع أيضًا ثمن جهل أبناء أمته ممن لم يتعلموا على يد رسول الله ولا أصحابه، ها هو أبو

الحسنين ملقى على فراشه يلفظ أنفاسه الأخيرة معلنًا للدنيا أنه تاركها للقاء أحبابه، للقاء محمد صلى الله عليه وسلم، وتخرج أنفاسه الأخيرة وهو ينظر كأنما ينظر إلى رسول الله، وقد أقبل إليه يزف له نبأ شهادته، ليكلل حياته التي قضاها مجاهدًا في سبيل الله رافعًا لراية الحق، محيياً للسنة قامعًا للبدعة حافظًا لأقدار أصحاب رسول الله، وها هو يذهب ليلقى سالفيه من الخلفاء الراشدين، لاحقًا بهم في الجنة إن شاء الله، وبهذا نودع نبيلنا الثالث في مصرع دامٍ من مصارع النبلاء.

الحسين في كربلاء

ابن بنت رسول الله بن علي وفاطمة، البطل المغوار، الفارس المجاهد، الأسد الذي ما عرف اللين في حياته قط، ملقى على أرض كربلاء تطؤه الخيول، حتى دكت صدره، وتُقطع رأسه وتوضع في طست، ويأخذها عبد الله بن زياد، وفي حضرة أنس بن مالك أخذ ينخر في رأسه بقضيب، ويعبث في فمه، وهو ممسك بالرأس، فإذا بأنس رضي الله عنه يقول، والله لطالما رأيت رسول الله يقبل وجهه حيث تعبث أنت في وجهه، إنه حبيب رسول الله وسبطه، يُقتل ويُمزق جسده، وتُقطع رأسه ليُبعث بها، وهل فعل هذا جند الروم أو الفرس أم أبناء عمومته وإخوانه؟ إنها الدماء الزكية تُسكب ثانية حتى تخط لهذه الأمة تاريخًا مجيدًا من النضال ورفض الاستكانة، والجهر بالحق والوقوف في وجه الظلم، حتى يكون الحسين أيقونة لكل ثائر رفض القهر والظلم وأعلاها

مدوية لله وحده، ووقف وحده أمام أمة كاملة بعدتها وعتادها، فكان مصرعه شهيدًا إن شاء الله تعالى.

وحتى نعرف ما سبب كل هذا، فلنرجع قليلاً إلى الوراء لنعرف كيف وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من فضائله

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاطمة رضي الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات رضي الله عنه قتيلاً شهيدًا، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق، فرضي الله عنه وأرضاه.

وقد وردت في مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

١ - ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلى العامري رضي الله عنه، أنه خرج مع رسول الله، يعني إلى طعام دعوا له، قال: فاستمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذه، فطفق الصبي يفر هنا مرة وها هنا مرة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يضاحكه حتى أخذه، قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، ووضع فاه وقبله، وقال: حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط.

٢ - ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عمر، قد سأله رجل من العراق عن المُحرم يقتل الذباب، فقال رضي الله عنه: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: هما ريحانتاي من الدنيا.

٣ - وروى أحمد بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

ثانيًا: الحسين رضي الله عنه في مواجهة بنى أمية

وسنطير سريعًا لنذهب إلى الحسين وقد كبر وشاهد مع أبيه كل معاركه، وقد عرضنا ذلك في الفصل السابق، ولكن بعد أن

استُشهد علي رضي الله عنه وبايع الناس الحسن بن علي أميرًا للمؤمنين؛ جهز الحسن جيشًا كبيرًا وخرج للقاء جيش معاوية، ولما اقترب الفريقان من التلاحم تنازل الحسن رضي الله عنه عن الحكم طواعية لمعاوية، وحقنًا لدماء المسلمين، ولكن الحسن اشترط على معاوية شروطًا، وقال إن أنت أجبت إليها فأنا سامع مطيع، وكان من بين شروطه عليه: أن تكون له الخلافة من بعده، وعلى ألا يسب عليًا، وأشراط أخرى لسنا في معرضها الآن، فأجابه معاوية إلى ما طلبه، فاصطلحا على ذلك، ورجع إلى المدينة فبقي بها إلى أن تُوفي، وهناك شبهات كثيرة تحوم حول وفاة الحسن، وهذا مبحث آخر نُفرد له في موضع آخر، ولكن لا ينبغي أبدًا أن نفارق هذا المقام دون أن نتعرض لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يرويه البخارى في صحيحه، حيث قال رسول الله: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»، فهذا الحديث يبين قيمة صنيع الحسن رضي الله عنه، وأنه سيد شباب أهل الجنة، وهذا بنص كلام رسول الله،

وأنه سيُصلح الله به بين فئتين من المسلمين، أي إن النبى لم ينزع عنهما صفة الإسلام، لا عمن معه الحق ولا على من على الباطل، ولكنه امتدح صنيع الحسن وكأنما كان ينبهه لمثل هذا الموقف، فرضي الله عنك يا سبط رسول الله.

ثم لما علم معاوية بموته نادى في الناس أن تُجعل ولاية العهد ليزيد ولد معاوية، وهنا يجب التنبيه على أمر هام هو أن الاتفاق بين الحسن ومعاوية لم يكن فيه قط أن الخلافة بعده للأكبر من أبناء علي، وإنما كانت الخلافة بعد معاوية للحسن، فلما كان موته دعى معاوية بولاية العهد ليزيد بن معاوية، وكان يزيد كما عُلم عنه أخرق أحمق يعشق الصيد ولا يأبه لأمور الدولة، ولم يكن أبدًا كأبيه، بل كان أرعن ولا تقوم له ولاية أبدًا على المسلمين، ولذلك كان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير، والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى وأن يتولى الأمة أصلحها، وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت

عن نفسها بشكل عملي فيما بعد، فالحسين رضي الله عنه كان معارضًا للصلح، والذي حمله على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن علي، ثم إن الحسين بن علي استمر على صلاته بأهل الكوفة، وقد كان يعدهم بالمعارضة ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة.

وهنا بدأ الحسين المعارضة لحكم يزيد أولاً بأنه رفض البيعة له، وذهب إلى مكة، وثانيًا طرح نفسه هو بديلاً ليزيد في سدة الحكم، فهو أولى منه بالأمر وأجدر، وإنما يكون ضياع شئون الناس ومصالحهم ببقاء هذا الغبي الذي اعتلى كرسيًا لم يكن له، وكان كما تحقق فيهم كلام رسول الله أنها تكون خلافة على منهاج النبوة أربعين سنة، ثم تكون ملكًا عضوضًا، يعني أن معاوية رضي الله عنه قد أصّل لمبدأ التوريث، وهو هنا مع جلالة قدره، فهو صحابى رسول الله، إلا أنه ارتكب خطأ كبيرًا دفعت الأمة ثمنه قرونًا إلى زماننا هذا، ولذلك كان لزامًا على حفيد رسول الله أن

يُعلنها مدوية في وجه هذا الظالم الغاشم الذي لا يستحق تولي أمر المسلمين، وهو يزيد، ولم يكن الحسين يأبه مطلقًا بالعدة والعتاد التي كانت معه، إنما أراد الحق ونشده، ولم يخرج على الحاكم، إنما هو قد مكث في مكة بضعة أشهر قبل خروجه إلى العراق، فقد قدم إلى مكة في الثالث من شعبان سنة ٦٠ للهجرة، وخرج إلى العراق في الثامن من ذي الحجة من نفس السنة. وفي هذه الفترة كان رضي الله عنه يُراسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر، وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به، وتمت بينهما مراسلات.

وهنا عزم على الخروج إلى الكوفة ليواجه الظلم ويعليها في الأفاق مدوية إن الحكم إلا لله.

وبعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين رضي الله عنه، والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعًا، أراد أن يطّلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستجلي له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع

الحال، فإن كان ما يقولون حقًا قدم عليهم، وخرج مسلم بن عقيل بصحبة عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي، وقيس بن مسهر الصيداوي، وعمارة بن عبيد السلولي، فلما وصل مسلم المدينة أخذ معه دليلين، وفي الطريق إلى الكوفة تاهوا في البرية ومات أحد الدليلين عطشًا، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، وذلك بسبب إحساسه النفسي لمدى الصعوبات التي تنتظره في الكوفة، ولكن الحسين رفض طلبه، وأمره بمواصلة المسير نحو الكوفة، ولما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل عند المختار بن أبي عبيد في أول قدومه، فلما جاء ابن زياد وتولى إمارة الكوفة، وأخذ يشدد على الناس، انتقل مسلم عند هانئ بن عروة (وتذكروا معى هذا الاسم جيدًا) وذلك خشية انكشاف أمره، ثم لمكانة هانئ وأهميته كأحد أعيان الكوفة، ولما بدا الشك يساور ابن زياد من هانئ بن عروة خشي مسلم بن عقيل على نفسه، وانتقل أخيرًا ولفترة قصيرة جدًا عند مسلم بن عوسجة الأسدي، أحد دعاة الشيعة، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه، فبايعه اثنا

عشر ألفًا، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع تحرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدومه إليهم؛ كتب إلى الحسين: أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تنظر في كتابي. وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل، فلا بد في هذه الحالة أن يفي لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إليّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله. فلما وصل إلى الحسين بن علي كتاب مسلم بن عقيل، والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه؛ تجهز الحسين بن علي وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته.

فالناظر في حال الحسين رضي الله عنه يعلم أنه لا يطلب الدنيا، إنما يريد أن يستقيم حال الناس على إمام هو بالأمر جدير وله

كفء، ولكنه يتوجس خيفة من أهل الكوفة، فلطالما باعوا أباه علي رضي الله عنه لما خذلوه وتقاعسوا عن نصرته وتجهيز جيشه في مواجهة معاوية رضي الله عنه، ولذلك أرسل لهم مسلم بن عقيل حتى يتثبت، هل هم جادون حقًا أم إنهم سيخذلونه، ولما استوثق مسلم بن عقيل من أن الناس بالفعل جادة في طلب الحسين؛ أرسل إليه يطلبه للقدوم.

وهنا علم جمع كبير من أصحاب رسول الله بهذا الأمر، فذهبوا إليه وطلبوا منه ألا يذهب، وأن يبايع يزيدًا درءًا للمفسدة والاقتتال، ومن بين من كلمه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، على خلاف الروايات التي تقول إنه أغراه للخروج حتى يتخلص منه، فحاشاه، وكذلك أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عباس، وغيرهم من أهل الفضل والسبق والصحبة، أو من كبار التابعين، ولكنه أصر على الخروج ليقف في وجه الظالم غير آبه بحياته، ولا معتد بموت، ولا ناظر إلى دنيا هي في نظره إلى فناء وزوال.

ولما تأكد ليزيد تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل

الكوفة، كتب لابن عباس لأنه شيخ بني هاشم في عصره، وعالم المسلمين، قائلاً: ونحسب أن رجالاً أتوه من المشرق فمنّوه الخلافة، فإنهم عندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة (أواصل القرابة) وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعي في الفرقة.

فكتب إليه ابن عباس: إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به الألفة وتطفئ بها الثائرة.

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث تتسارع، وذلك بعدما أخذ الناس يختلفون على مسلم بن عقيل ويبايعونه، وعندما أحس النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة بخطورة الوضع، قام فخطب في الناس وقال: اتقوا الله عباد الله ولا تُسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيها يهلك الرجال، وتُسفك الدماء، وتُغصب الأموال، وقال: إني لم أقتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا

الظنة والتهمة، ولكن إن أبديتم صفحتكم لي (يقصد صفحة السيف)، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل.

وكلام النعمان رضي الله عنه واضح وصريح، فهو من أصحاب رسول الله، فيعرف الحق، لذلك طلب منهم عدم المسارعة في الفتنة والفرقة وأنه لن يتعدى على أحد منهم حتى يبدأون هم بالتعدي عليه، أو بنقض البيعة وزرع الشقاق في الأمة، وناشد عقلاءهم وأهل الفضل فيهم أن يجمعوا الكلمة ويوحدوا الأمة.

وأثارت سياسة النعمان بن بشير رضي الله عنه مع أنصار الحسين حفيظة الناصحين للأمويين، وأحد الموالين لهم في الكوفة وهو عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي، حليف بني أمية، فقام إلى النعمان بن بشير وبيّن له أن طريقته هذه إنما هي طريقة المستضعفين، وأنه يجب عليه أن ينهج سياسة البطش والقوة

حيال المتربصين بأمن الكوفة، ولكن رد النعمان بن بشير رضي الله عنه كان واضحًا بأنه يراقب الله في سياسته.

ولم تُعجب يزيد سياسة النعمان، فعزله من ولاية الكوفة وعين بدله عبيد الله بن زياد، وكتب إليه: إن شيعتي من أهل الكوفة كتبوا إليّ يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه والسلام. وغادر ابن زياد البصرة بعد أن اتخذ عدة احتياطات خوفًا من حدوث اضطرابات، وأناب عنه أخوه عثمان بن زياد على البصرة، ثم خرج من البصرة ومعه وجوه أهل البصرة، أمثال مسلم بن عمرو الباهلي، وشريك بن الأعور الحارثي، وحشمه وأهل بيته. وأقبل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متلثمًا والناس قد بلغهم إقبال الحسين إليهم، فهم ينظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين بن علي، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبًا بك يا ابن رسول الله، قدمت

خير مقدم، فلما أكثروا عليه صاح فيهم مسلم بن عمرو، وقال: تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن زياد، فلما نزل في القصر نودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فخرج إليهم ثم خطبهم ووعد من أطاع منهم خيرًا وتوعد من خالف وحاول الفتنة منهم شرًا.

وقد حرص عبيد الله بن زياد على جمع المعلومات بواسطة جواسيسه على الفئات المعارضة، واستطاع أن يخترق أتباع مسلم بن عقيل، وقد كلّف أحد رجاله بهذه المهمة فأعطاه مبلغًا من المال، وكان الرجل من أهل الشام يقال له معقلاً، وكان مقدار المبلغ ثلاثة آلاف درهم، وقال: خذ هذا المال، وانطلق فالتمس مسلم بن عقيل، وكن من بين خاصته ورجاله وائتنا بخبره، فانطلق الرجل حتى دخل المسجد الأعظم، ثم نظر إلى رجل يكثر الصلاة إلى سارية من سواري المسجد، فجلس الرجل حتى إذا انفتل من صلاته (أنهى صلاته)، فدنا منه وجلس، فقال: جُعلت فداك، إني رجل من أهل الشام مولى لذي الكلاع، وقد أنعم الله عليّ بحب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحب من

أحبهم، ومعي هذه الثلاثة الآلاف درهم، أحب إيصالها إلى رجل منهم، بلغني أنه قدم هذا المصر داعية للحسين بن علي، فهل تدلني عليه لأُوصل هذا المال إليه؟ ليستعين به على بعض أموره ويضعه حيث أحب من شيعته. قال له الرجل: وكيف قصدتني بالسؤال عن ذلك دون غيري ممن هو في المسجد؟ قال: لأني رأيت عليك سيما (علامات) الخير، فرجوت أن تكون ممن يتولى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال له الرجل: ويحك قد وقعت عليّ بعينك، أنا رجل من إخوانك، واسمي مسلم بن عوسجة، وقد سُرِرت بك، فإني رجل من شيعة أهل هذا البيت، فأعطني ذمة الله وعهده أن تكتم هذا عن جميع الناس، فأعطاه من ذلك ما أراد، واستطاع الشامي في نهاية المطاف الوصول إلى مسلم بن عقيل، فكان يغدو إلى مسلم بن عقيل فلا يُحجب (يُمنع) عنه، فيكون نهاره كله عنده فيتعرّف جميع أخبارهم، فإذا أمسى وأظلم عليه الليل دخل على عبيد الله بن زياد، فأخبره بجميع قصصهم، وما قالوا وما فعلوا في ذلك، وأعلمه نزول مسلم بن عقيل في دار

هانئ بن عروة. وهكذا استطاع ابن زياد أن يعرف أخبار مسلم بن عقيل وتحركاته.

وهنا بدا لابن زياد أن يشرع في المواجهة ويستهل بمقدم الحسين وقد فقد كل أتباعه، فبدأ باعتقال هانئ بن عروة، الذي يُأوي عنده مسلم بن عقيل، وذلك على النحو التالي:

كان محمد بن الأشعث وأسماء بنت خارجة يدخلون على ابن زياد مُسَلّمين (وهم من وجهاء قوم هانئ بن عروة)، فقال لهما: ما فعل هانئ بن عروة؟ فقالا: أيها الأمير، إنه عليل (مريض) منذ أيام. فقال ابن زياد: وكيف؟ بلغني أنه يجلس على باب داره عامة نهاره، فما يمنعه من إتياننا وما يجب عليه في حق التسليم؟ قالا: سنعلمه ذلك، ونخبره باستبطائك إياه. فخرجا من عنده، وأقبلا حتى دخلا على هانئ بن عُروة، فأخبراه بما قال لهما ابن زياد، وما قالا له. ثم قالا لهانئ: أقسمنا عليك إلا قمت معنا إليه الساعة لتُسلُ سخيمة قلبه (تُذهب الحنق والغضب من صدره). فدعا ببغلته فركبها ومضى معهما، حتى إذا دنا من قصر الإمارة خبُثت نفسه (ساوره الشك)

فقال لهما: إن قلبي قد أوجس (خاف) من هذا الرجل خيفة. قالا: ولم تُحدث نفسك بالخوف وأنت بريء الساحة؟

فمضى معهما حتى دخلوا على ابن زياد، فقرأ ابن زياد أبيات شعر تدل على أنه هناك من يحيك له مؤامرة رغم إحسانه إليه.

قال هانئ: وما ذاك أيها الأمير؟

قال ابن زياد: وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل وإدخالك إياه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟ فقال هانئ: ما فعلت وما أعرف من هذا شيئًا. فدعا ابن زياد بالشامي، وقال: يا غلام، ادع لي معقلاً. فدخل عليهم. فقال ابن زياد لهانئ بن عروة: أتعرف هذا؟ فلما رآه علم أنه إنما كان عينًا عليهم وجاسوسًا. فقال هانئ: أصدُقُك والله أيها الأمير، وإني والله ما دعوت مسلم بن عقيل وما شعرت به. ثم قصّ عليه قصّته على وجهها، ثم قال: فأما الآن فأنا مخرجه من داري لينطلق حيث يشاء، وأعطيك عهدًا وثيقًا أن أرجع إليك. قال ابن زياد: لا والله لا تفارقني حتى تأتيني به. فقال هانئ: أو يجمل بي أن أُسلم

ضيفي وجاري للقتل، والله لا أفعل ذلك أبدًا. فاعترضه ابن زياد بالخيزرانة، فضرب وجهه، وهشم (كسر) أنفه، وكسر حاجبه، وأُمر به فأُدخل بيتًا. فبلغ الخبر عمرو بن الحجاج الزبيدي أن هانئًا قد قُتل، فأقبل في قبيلة مذجح، وأحاط بالقصر، ونادى بأنه لم يخلع الطاعة، وإنما أراد الاطمئنان إلى سلامة هانئ، فأمر ابن زياد القاضي شُريح بأن يدخل على هانئ، وينظر إليه ويخبرهم أنه حي. ففعل. فقال لهم سيدهم عمرو بن الحجّاج: أما إذا كان صاحبكم حيًا فما يعجلكم الفتنة؟ انصرفوا. فانصرف.

لما بلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب وجه هانئ بن عروة، أمر أن ينادى في أصحابه الذين بايعوه، واستخدم كلمة السر، وهي: يا منصور أمت؟ فتنادى أهل الكوفة، فاجتمعوا إليه، وكان عدد الذين حضروا أربعة آلاف رجل، ثم قدم نحو القصر، ولما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز وتمنّع بالقصر، وكان ابن زياد يملك قدرًا كبيرًا من الدهاء والمكر والخداع، حيث إنه بمجرد دخوله القصر جمع وجوه الكوفة واحتفظ بهم عنده، حتى يكونوا

وسيلة ضغط مهمة عنده ستثمر عن نتائج إيجابية جدًا لصالح ابن زياد. وتقدم مسلم بهذه الجموع صوب قصر الإمارة الذي يتحصن به ابن زياد، وهنا طلب ابن زياد من أشراف الناس وزعماء الكوفة الذين معه أن يعظوا الناس ويُخذّلوهم ويخوفونهم بقرب أهل الشام، وصار هؤلاء الأمراء والزعماء يُثبّطون الناس، ويُذكّرونهم بالسلامة والأمن، وأنهم إن لم ينصرفوا سيُحرمون من العطاء، وسيُساقون إلى الثغور وسينالهم العقاب الشديد، ولم يكن التثبيط مقصورًا على الأمراء فقط، بل إن النساء كان لهن دور كبير في إضعاف عزيمة المناصرين لمسلم، إضافة إلى الآباء وكبار السن، فقد كان لهم نفس الدور. وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: انصرف، الناس يكفونك. ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: غدًا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر، انصرف. وأخذت هذه الحرب النفسية التي جوبه بها المؤيدون لمسلم بن عقيل من التهويل والتخويف تعمل عملها بين صفوف الناس، فبدأوا ينصرفون عن مسلم بن عقيل، وأخذ

العدد يتضاءل سريعًا حتى إنه لما قرب المساء لم يبقَ مع مسلم بن عقيل إلا عددًا بسيطًا يتراوح بين الثلاثمائة والخمسمائة رجل، ثم أخذ هذا العدد يتضاءل حتى وصل إلى ستين رجلاً، ثم حدثت معركة بين مسلم وأتباعه وبين ابن الأشعث، والقعقاع بن شور، وثبت بن ربعي عند الرحبة، ويبدو أن هذه المعركة لم تدم طويلاً عندما تنبه القعقاع بن شور إلى أن المقاتلين إنما يقاتلون لأجل النجاة، عند ذلك أمر بإفساح الطريق لهم، فهربوا نحو المسجد، ولما أمسى المساء تفرق الناس، وبقي مسلم بن عقيل وحيدًا في طرقات الكوفة.

ومن السياق الماضي يبدو لنا كيف أن الحرب الإعلامية هي الوسيلة التي استخدمها بن زياد لفض الناس عن ابن عقيل وجعله وحده، فقد استخدم الأمراء وكبار القوم والصفوة في فض الناس عن مسلم، وأيضًا استخدم النساء وكبار السن ليُفرّقوا الجموع حول مسلم بأن تأتي كل امرأة لزوجها وولدها وأخيها وتطلب منه الانصراف بعيدًا عن الفتنة وطلبًا للنجاة

بنفسه، ونجحت هذه الحرب الإعلامية نجاحًا باهرًا، فها هو ابن عقيل وحده في طرقات الكوفة وليس معه أحد.

وأصبح مسلم بن عقيل وحيدًا يتردد في طرق الكوفة، فأتى بيتًا فخرجت إليه امرأة، فقال: اسقني. فسقته، ثم دخلت، ومكثت ما شاء الله، ثم خرجت، فإذا به على الباب، فقالت: ياهذا، إن مجلسك مجلس ريبة، فقم. فقال: أنا مسلم بن عقيل، فهل عندك مأوى؟ قالت: نعم. فأدخلته، وكان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فانطلق إلى مولاه فأعلمه، فبعث عبيد الله الشُّرَط إلى مسلم، فخرج مسلم بن عقيل وسلّ سيفه، وقاتل، فأعطاه ابن الأشعث أمانًا، فسلّم نفسه، وفي الطريق نحو ابن زياد بكى مسلم، فقيل له: إن من يطلب مثل ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل الذي نزل بك. قال: إني والله ما لنفسي أبكي وما لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفًا، ولكني أبكي لأهلي المقبلين إلى الكوفة، أبكي حسينًا وآل الحسين. وأقبل مسلم على محمد بن الأشعث، فقال: يا عبد الله، إني والله أراك ستعجز عن أماني (لن تستطيع أن تنفذ ما

أرجوه منك)، فهل عندك خير تستطيع أن تبعث رجلاً على لساني يبلغ حسينًا عني رسالة؟ فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غدًا هو وأهل بيته، وإن ما تراه من جزعي لذلك، فتقول: إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير لا يدري أيصبح أم يمسي حتى يُقتل، وهو يقول لك: ارجع بأهلك ولا يغرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي. فقال محمد بن الأشعث: والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد أني قد أمنتك. ودعا ابن الأشعث إياس بن العباس الطائي، وقال له: اذهب فالقَ حسينًا فأبلغه هذا الكتاب، ثم أعطاه راحلة وتكفل له بالقيام بأهله وداره، وأدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال ابن زياد: ما بعثناك لتؤمنه ولم يُقبل أمانه، واستسقى (طلب الماء) مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمار بن عقبة بماء بارد، ولكنه لم يستطع أن يشرب لما كان يختلط به من دمه، فتركه ودخل على ابن زياد فقال

له: إني قاتلك. قال مسلم: كذلك؟ قال: نعم. قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي. قال: أوصِ. فنظر مسلم في جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فقال: عمر، إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وهي سر، فقم معي إلى ناحية القصر حتى أقولها لك. فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريبًا من ابن زياد، فقال له مسلم: إن علي دينًا في الكوفة سبعمائة درهم، فاقضها عني، واستوهب جثتي من ابن زياد فوارها (اطلب جثتى من ابن زياد وادفنها)، وابعث إلى الحسين، فإني كنت قد كتبت إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً. فقام عمر، فعرض على ابن زياد ما قال له: فأجاز ذلك كله، وقال: أما حسين فإنه لم يردنا ولا نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه. ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل، فأُصعد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله، ويقول: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع رأسه بجسده.

ومات مسلم بن عقيل ابن ابن عم رسول الله وهو يحاول بكل جهده أن يوصل الرسالة للحسين ليمنعه من القدوم، فإن أهل الكوفة قد غدروا به وخذلوه كما فعلوا بأبيه علي رضي الله عنهما.

ثالثًا: خروج الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة

وخرج الحسين رضي الله عنه من مكة يوم التروية الموافق لثمانٍ من ذي الحجة سنة ستين، أدرك والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص خطورة الموقف، فأرسل وفدًا إلى الحسين وعلى رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص، فحاولوا أن يثنوه عن عزمه ولكنه رفض، فنادوه: يا حسين، ألا تتقي الله، تخرج عن جماعة المسلمين وتُفرّق بين هذه الأمة، فردَّ الحسين قول الله تعالى: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. فخرج الحسين متوجهًا إلى العراق في أهل بيته وستين شيخًا من أهل الكوفة. وكتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد: أما بعد، فإن الحسين بن علي قد توجه إليك، وهو الحسين بن فاطمة، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتالله ما أحد يُسلّمه

الله أحب إلينا من الحسين (ما نرجو أن يُسلّم الله أحدًا كما نتمنى أن يُسلّم الله الحسين)، وإياك أن تُهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا ينساه العامة، ولا يدع ذكره، والسلام عليك. وكتب إليه عمر بن سعيد بن العاص ينهاه عن التعرض للحسين ويأمره بأن يكون حذرًا في تعامله مع الحسين، قائلاً له: أما بعد فقد توجه إليك الحسين وفي مثلها تُعتق أو تعود عبدًا تُسترق كما يُسترق العبيد. وفي الطريق إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر المشهور بذات عرق (مكان قريب من مكة). فسأله الحسين بن علي عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطي الفرزدق إيضاحًا أكثر، وقال: هذه كتبهم معي. فرد عليه الفرزدق: يخذلونك، فلا تذهب فإنك تأتي قومًا قلوبهم معك وأيديهم عليك. وعندما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين من مكة واتجاهه للكوفة، كتب إلى ابن زياد يحذره ويقول: بلغني أن حسينًا قد سار إلى الكوفة وقد ابتُلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلاد، وابتُليت به من بين العمال، وعندها تُعتق

أو تعود عبدًا كما تُعتبد العبيد.

يعني يقصد بهذا الكلام أنها طامة كبرى عليك، وهو يريد أن يحل نفسه من دم الحسين، ولكن كيف وأنت الظالم الباغي المتكبر الذي أخذت ملكًا لست أهلاً له ونازعت أصحاب الحق فيه؟ كيف ومن ينازعك على الأمر هو الحسين بن علي وفاطمة وحفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

لما بلغ الحسين مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه، أعلم الحسين من معه بذلك، وقال من أحب أن ينصرف فلينصرف، فتفرق الناس عنه يمينًا وشمالاً، وقال له بعض من ثبتوا معه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل إخوة مسلم وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم.

كانت طلائع خيل ابن زياد عليها الحر بن يزيد، وكان عددها ألف فارس، وقد أدرك الحر بن يزيد الحسين ومن معه قريبًا من شراف.

ولما طلب منه الحسين الرجوع منعه، وذكر له أنه مأمور بملازمته حتى الكوفة، وقام الحسين وأخرج خرجين مملوءة بالكتب التي تطلب منه القدوم إلى الكوفة، فأنكر الحر والذين معه أي علاقة لهم بهذه الكتب، وهنا رفض الحسين الذهاب مع الحر إلى الكوفة وأصر على ذلك، فاقترح عليه الحر أن يسلك طريقًا يجنبه الكوفة ولا يُرجعه إلى المدينة، وذلك من أجل أن يكتب الحر إلى ابن زياد بأمره، وأن يكتب الحسين إلى يزيد بأمره. وبالفعل تياسر الحسين عن طريق العذيب والقادسية (سار يسارًا من طريق القادسية) واتجه شمالاً على طريق الشام. وأخذ الحر يساير الحسين وينصحه بعدم المقاتلة ويذكّره بالله، وبيّن له أنه إذا قاتل فسوف يُقتل، وكان الحسين يصلي بالفريقين إذا حضرت الصلاة.

رابعًا: الحسين في كربلاء

ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد بن أبي وقاص، ومعه شمر بن ذي الجوشن، والحصين بن تميم، وكان هذا الجيش الذي يقوده عمر بن سعد مكونًا من أربعة آلاف مقاتل،

وكانت وجهة هذا الجيش في الأصل إلى الري لجهاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر بن سعد في البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدده إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضي بالموافقة.

ولما وصل الحسين كربلاء أحاطت به الخيل، وبدأ الحسين بن علي بالتفاوض مع عمر بن سعد، وبيّن الحسين أنه لم يأتِ إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها. وأبرز لعمر بن سعد الدليل على ذلك، وأشار إلى حقيبتين كبيرتين تضمن أسماء المبايعين والداعين للحسين، وكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب، فقال: كتب إليّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم، فأنا منصرف عنهم.

ثم كتب ابن زياد لعمر بن سعد: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد

فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام.

ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت وصلف، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة. رفض الحسين هذا العرض، ثم لما رأى جهامة الموقف وخطورته طلب من عمر بن سعد مقابلته، وعرض عليه عرضًا آخر يتمثل في إجابته واحدة من ثلاث نقاط:

أ -أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب -وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن معاوية.

جـ -وإما أن يسيّروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحدًا منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

وقد أكد الحسين رضي الله عنه موافقته للذهاب إلى يزيد. وكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة. وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا

تدخل شمر بن ذي الجوشن الذي كان جالسًا في المجلس حين وصول الرسالة، فقد اعترض على رأي ابن زياد في أن يرسله إلى يزيد، وبيّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه أي ابن زياد حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه. فلما وصل الخبر إلى الحسين رضي الله عنه رفض الطلب وقال: لا والله لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبدًا، وقال لأصحابه الذين معه أنتم في حلّ من طاعتي، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة، واتخذ ابن زياد إجراءً احترازيًا حين خرج إلى النخيلة، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث، وضبط الجسر، ولم يترك أحدًا يجوزه، وخاصة أنه علم أن بعض الأشخاص من الكوفة بدأوا يتسللون من الكوفة إلى الحسين.

خامسًا: الحسين شهيدًا

في صباح يوم الجمعة عام ٦١ هـ نظم الحسين رضي الله عنه أصحابه وعزم على القتال، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا،

وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنته وحبيب بن مظاهر في الميسرة، وأعطى رايته العباس بن علي، وجعل البيوت وراء ظهورهم، وأمر الحسين بحطب وقصب فجعله من وراء البيوت، وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوهم من خلفهم. وأما عمر بن سعد فقد نظم جيشه، وجعل على الميمنة عمرو بن الحجاج الزبيدي بدلاً من الحر بن يزيد الذي انضم إلى الحسين - وجعل على الميسرة شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجال شبت بن ربعي الرياحي، وأعطى الراية ذويدًا مولاه. وبدأت المعركة سريعة، وكانت مبارزة في بداية الأمر، وجوبه جيش عمر بن سعد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية، فلم يعد لهم أمل في الحياة، وكان الحسين رضي الله عنه في البداية لم يشترك في القتال، وكان أصحابه يدافعون عنه، ولما قُتل أصحابه لم يجرؤ أحد على قتله، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فرد أن يبوء بقتله وتمنوا أن يستسلم، ولكن الحسين رضي الله عنه

لم يبدِ شيئًا من الليونة، بل كان رضي الله عنه يقاتلهم بشجاعة نادرة، عندئذ خشى شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور، فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فحملوا عليه، وضربه زرعة بن شريك التميمي، ثم طعنه سنان بن أنس النخعي واحتز رأسه، ويقال إن الذي قتله عمرو بن بطار التغلبي، وزيد بن رقادة الحيني، ويقال إن المتولي الإجهاز عليه شمر بن ذي الجوشن الضبي، وحُمل رأسه إلى ابن زياد خولي بن يزيد الأصبحي، وكان قتله رضي الله عنه في محرم في العاشر منه سنة إحدى وستين. وقُتل مع الحسين رضي الله عنه اثنان وسبعون رجلاً، وقُتل من أصحاب عمر ثمانٍ وثمانون رجلاً، وبعد انتهاء المعركة أمر عمر بن سعد بألا يدخل أحد على نساء الحسين وصبيانه، وألا يتعرض لهم أحد بسوء، وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونسائه ومن كان معه الصبيان إلى ابن زياد.

هنا نلمح أن الجميع يهاب أن يُقبل على الحسين أو أن يمسه إلى أن جاء ذلك الشيطان ابن الجوشن، وأقبل عليه فطعنه واحتز

رأسه بمعاونة من حوله، وأخذوا رأس الحسين، وكأني أنظر إليها وإلى رأس نبى الله يحيى عليه السلام، فقد احتزها يهودي لأجل عاهرة بني إسرائيل سالومي، وكأن النبلاء عبر الأزمان يلقون مصارعهم على أيدي أخس بني أمتهم وأحطهم، ولكن الله ينتقم لهم، فإن الجبار يُمهل ولا يُهمل.

ومع كل ذلك فإن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لنساء الحسين بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهن رزقًا، وأمر لهن بنفقة وكسوة، ويقول ابن تيمية في رده على بعض كذابي الشيعة: وأما ما ذكره من سبي نسائه والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل، وما سبي المسلمون ولله الحمد هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هاشمية قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرًا. بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس فداحة خطئه، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد

أسرته القريبين منه، فقد كانت أمه تقول له: ويلك ماذا صنعت، أو ماذا ركبت.

وهنا يقف التاريخ عاجزًا عن فهم كل هذا الذي يحدث لأمة محمد، وبين أقوام هم ليسوا بالبعيدين عن حياته وسيرته، ولكنها الفتن لما تضرب أعطانها وترمي الأمم بكل شرر كالقصر، كأنه جمالات صفر، إنها الفتنة إخوتي التي حيكت ضد هذه الأمة ورسم رسمها أناس بل وجماعات وأمم امتلأت حقدًا على هذه الدولة الفتية الناشئة، فعلموا أن لا قبل لهم بها إذا واجهوها بالسيوف كالرجال، وإنما علموا أن الأمر كل الأمر في الخدعة والمكيدة وبث الدسائس والمؤامرات وتفرقة ذات البين، واستغلوا في ذلك سعة رقعة الأمة ودخول فيها من ليسوا منها حسبًا ولا نسبًا ولا علمًا، وكان هذا كله بلاء الله جل وعلا لهذه الأمة، فمختبرها وممحصها، ويصطفي الله منها شهداء ليخلدوا في التاريخ ويكونوا قامات شماء وألوية للعزة والكرامة والفداء،

فلله درك يا سبط رسول الله، لله درك يا ريحانة محمد، لله درك يا من قبّله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانعم بلقاء حبيبك وصحبته، ولترقد خالدًا مع عظماء قلّ الزمان أن يجود بمثلهم أو عقم، وبهذا نسدل الستار على حياة بطل مغوار وعظيم من العظماء ونبيل من النبلاء في مصارع النبلاء.

ابن ذات النطاقين

وتقف ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر أمام جثمان ولدها، وقد قُتل وصُلب على جذع نخلة، وأشعلوا الحصير تحته، وهي تقول للحجاج الطاغية الجبار: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

إنه عبد الله بن الزبير بن العوام، هو ابن حواري رسول الله وابن ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عن الجميع، وقد آل لما آل إليه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولنبدأ الأمر معًا من أوله حتى نعرف ما سبب كل هذا، وتأمل معي عزيزي القارئ، فنحن من أول مقتل عمر رضي الله عنه وأرضاه نتتبع طرف الفتنة ونتناولها تفصيلاً، حتى وصلنا إلى يوم من أصعب أيام هذه الأمة المجيدة، إنه يوم استشهاد عبد الله بن الزبير، فهيا نعرف من هو عبد الله بن الزبير.

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة، أمير المؤمنين، أبو بكر، وأبو خبيب، القرشي الأسدي المكي، ثم المدني، أحد الأعلام، ولد حواري رسول الله وابن عمته.

ثانيًا: مولده ومبايعته لرسول الله

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة، قالت: فخرجت وأنا مُتمّ فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرّك عليه، وكان أول مولود وُلد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم. وسماه عبد الله. ثم جاء بعد، وهو ابن سبع، أو ابن ثماني سنين، يبايع النبي، أمره الزبير بذلك، فتبسم النبي حين رآه مقبلاً، وبايعه. وكان

أول من وُلد في الإسلام في المدينة بعد مقدم رسول الله، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكبّر أصحاب رسول الله حين وُلد عبد الله، وقد طاف به الصديق بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود، وكان ابن الزبير ملازمًا للدخول على رسول الله لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة زوج النبي.

ثالثًا: شجاعته وجرأته

كان عبد الله بن الزبير فارس قريش في زمانه، وكان يشتد بالسيف وقد ناهز السبعين كأنه فتى في ربيع العمر، قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا يُنازع في ثلاثة: لا شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة، وعن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله بن الزبير وهو صغير: السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام.

وقد كان بطلاً مغوارًا، شارك في اليرموك وفي موقعة الجمل كما

ذكرنا آنفًا، وشارك في فتح إفريقية، وكان لا يشق عنه غبار، يجهر بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم.

رابعـًا: معارضته لخلافة يزيد بن معاوية

سبق وأن ذكرنا أن الذين عارضوا خلافة يزيد هم الحسين بن علي رضي الله عنه، وهذا تناولنا قصته في الفصل السابق، والآن نحن مع المعارض الثاني لخلافة يزيد، ألا وهو عبد الله بن الزبير، فيما عُرف في التاريخ بخلافة عبد الله بن الزبير بن العوام.

كان ابن الزبير قد عقد العزم على عدم البيعة ليزيد، واختار الذهاب والاستقرار بمكة.

يقول الصلابى فى كتابه " الدولة الأموية عوامل الأزدهار وتداعيات الانهيار": " كان مقصد ابن الزبير ومن معه - ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين كالمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من فضلاء عصرهم - هو تغيير الواقع بالسيف لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة وملك، ولما أُشيع حول يزيد من شائعات أعطت صورة

سيئة للخليفة الأموي في دمشق، والذي ينبغي أن يُفهم أن ابن الزبير قام لله، وليس كما يقول البعض، مثل محمد ماهر حمادة، عندما قال: وعلى الرغم من أن حركة ابن الزبير لم تكن سوى مزيج عجيب من عدد من العناصر، يحركها طموح شخصي، وصراع قبلي، التقتا في نفس ابن الزبير وشخصيته".

لقد كان يهدف من وراء المعارضة أن تعود الأمة إلى حياة الشورى، ويتولى الأمة حينئذ أفضلها، وكان يخشى من تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حدًّا لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة، ولهذا لم يدعُ لنفسه حتى تُوفي يزيد بن معاوية. وكان ابن الزبير يخطب ويقول: والله لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا ألتمس جمع مال ولا ادخاره. وكان يقول: اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي، وجاهدت فيك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين. وقال عبد الله بن صفوان بن أمية لابن الزبير: إني - والله - ما قاتلت معك إلا عن ديني. والروايات في هذا

المجال كثيرة جدًا، وهي تدل على النظرة الحقيقية لمعارضة ابن الزبير - وكذلك أهل المدينة - حيث اعتبروها جهادًا في سبيل الله، إن الحسين بن علي وابن الزبير وأهل الحرَّة كان خروجهم من أجل الشورى.

وهنا يجب أن نؤكد على أن سلوك عبد الله بن الزبير جوبه بالرفض من كثير من أصحاب رسول الله، كعبد الله بن عمر وبن عباس ومحمد بن الحنفية وغيرهم ممن رأوا لم الأمة ورأب الصدع وحقن الدماء أولى، وهذا سيأتي تفصيله.

ولما كان ما كان من أمر استشهاد الحسين رضى الله عنه، وعندما سمع ابن الزبير بمقتل الحسين قام خطيبًا في مكة، وترحم على الحسين وذم قاتليه، وقال: أما والله لقد قتلوا طويلاً قيامه، وكثيرًا في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء، ولا البكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلب الصيد - يعرّض بيزيد

بن معاوية ويذكر مساوئه - فسوف يلقون غيًا. ونظرًا للمشاعر العاطفية التي أثّرت على أهل الحجاز عمومًا بسبب قتل الحسين، فقد أبدى البعض استعداده لبيعة ابن الزبير، ولاحظ ابن الزبير مشاعر السخط التي عمّت أهل الحجاز بسبب قتل الحسين، فأخذ يدعو إلى الشورى وينال من يزيد ويشتمه، ويذكر شربه للخمر، ويُثبّط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقوم فيهم، فيذكر مساوئ بني أمية ويطنب في ذلك.

و لم يحاول يزيد في بداية الأمر أن يعمل عملاً من شأنه أن يعقّد النزاع مع ابن الزبير، ولهذا فلقد أرسل إليه رسالة يذكّره فيها بفضائله ومآثره في الإسلام، ويحذره من الفتنة والسعي فيها، وكان مما قال له: أذكرك الله في نفسك فإنك ذو سن من قريش، وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعبادة، فاربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن، وادخل فيما دخل فيه الناس، ولا تردهم في فتنة، ولا تحل ما حرم الله. فأبى عبد الله بن الزبير أن يبايع.

وأقسم يزيد على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتي إليه مغلولاً، ولقد حاول معاوية بن يزيد أن يثني والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو في الغل، وكان معاوية ابن يزيد صالحًا تقيًا ورعًا، يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية في رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، فقد بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وبعث يزيد له بسلسلة من فضة وقيد من ذهب، وجامعة من فضة. وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلموا وحاولوا إقناعه أن يدخل على يزيد ويبايعه ولا يكون مغولاً، إنما يلبس برنسًا من الخز ويدخل على الخليفة فيكون قد أبرّ بقسمه.

فاستشار عبد الله بن الزبير أمه، فقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: يا بني، عش كريماً ومت كريماً، ولا تمكن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا.

فرد ابن الزبير على الوفد بالرفض لما جاءوا من أجله.

وهنا غضب الوفد المرسل من قبل يزيد وهددوا ابن الزبير تهديدًا واضحًا، فقالوا نقسم بالله لتبايعن طائعًا أو مكرهًا أو لتعرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك، أو كما قال. فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم البيت؟ قال: إنما يحله من ألحد فيه. ثم قال ابن الزبير: إنه ليست في عنقي بيعة ليزيد.

رأى يزيد أنه لابد من القيام بعمل عسكري، يكون الهدف منه القبض أو القضاء على ابن الزبير أو حمله على الامتثال لقسم يزيد ووضع الأغلال في عنقه، ولما حج عمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة في تلك السنة - والمرجح سنة إحدى وستين - حج ابن الزبير معه، فلم يصلِ بصلاة عمرو، ولا أفاض بإفاضته، وهذا العمل من ابن الزبير يعني المفارقة الواضحة لسلطة الدولة، وعدم الاعتراف بها، خصوصًا أن إقامة الحج تمثل الدليل الأقوى على شرعية الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامته الجهاد في سبيل الله، ثم منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومي من

أن يصلي بأهل مكة، وكان الحارث بن خالد المخزومي نائبًا لعمرو بن سعيد على أهل مكة، وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمرًا دون المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجبير بن شيبة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فيما بينهم، وكان يلي بهم الصلوات والجمع، ويحج بهم، فكتب يزيد إلى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على المدينة أن يوجه له جُندًا، فعين عمرو بن سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة عمرو بن الزبير بن العوام أخا عبد الله ابن الزبير، وكان عمرو بن الزبير قد ولي شرطة المدينة لعمرو بن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله، وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع عبد الله بن الزبير، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، وخبيب بن عبد الله بن الزبير، وفر منه عبد الرحمن بن عثمان، وعبد الرحمن بن عمرو بن سهيل وغيرهما إلى مكة

فالتجأوا إلى ابن الزبير، وكان تعيين عمرو بن الزبير على قيادة الجيش المتجه لمحاربة عبد الله بن الزبير جاء بناءً على طلب من عمرو بن الزبير نفسه، واتجه جيش عمرو بن الزبير إلى مكة وكان قوامه ألف رجل، وجعل على مقدمته أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة من الجند، فسار أنيس بن عمرو الأسلمي حتى نزل بذي طوى، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح (يمينًا من البيت الحرام)، وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه (عبد الله) يطلب منه الامتثال ليمين يزيد بن معاوية، وحذره من القتال في البلد الحرام، وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيصلي بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبد الله. وكان عبد الله يسير معه ويلين له، ويقول: إني سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلي خلفك، وما عندي خلاف، فإما أن تجعل في عنقي جامعة (أي قيد)، ثم أقاد إلى الشام، فإني نظرت في ذلك، فرأيت أنه لا يحل لي أن أحله بنفسي، فراجع صاحبك واكتب إليه. ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من عدم الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء

في مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها، وكان عبد الله بن الزبير قد أرسل عبد الله بن صفوان الجمحي ومعه بعض الجند، وأخذوا أسفل مكة، وأحاطوا بأنيس بن عمرو الأسلمي، ولم يشعر بهم أنيس إلا وقد أحاطوا به، فقُتل أنيس وانهزم أصحابه.

وفي الوقت الذي قُتل فيه وانهزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمي، كان مصعب بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عوف يقود طائفة أخرى من الجند نحو عمرو بن الزبير، الذي كان معسكرًا في الأبطح، فانهزم عمرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقال له علقمة، فجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره، فأخذه إلى عبد الله، وذكر له أنه أجاره، فقال عبد الله: أما حقي فنعم، وأما حق الناس فلأقتصن منه لمن آذاه في المدينة، وأقام عبد الله عمرو بن الزبير ليقتص الناس منه، فكل من ادّعى على عمرو بأنه فعل به كذا وكذا وكذا، قال له عبد الله بن الزبير: افعل به مثلما فعل بك. وتذكر المصادر أن عمرو بن الزبير تعرض لتعذيب شديد من جراء ذلك ومات تحت الضرب.

وهنا نرى أن عبد الله بن الزبير لا يبالي في الحق شيئًا، كما علمه

أبوه وكما علمته أمه، فأمه وهي تشهد على ذلك فهي تعلم أيضًا الجور والظلم الذي فعله عمرو بن الزبير، ولكنها لم تمنعه من أن يقتص للناس من هذا الذي ظلمهم وألهب ظهروهم بالسياط، وكان باغيًا شديد البغي وظالمًا فتاكًا،

وهلك مسلم بن عقبة النميري في طريقه لابن الزبير، وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكوني، ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر المحرم بأربع ليالٍ. وعسكر الحصين بن نمير بالحجون (الجبل المشرف، بينه وبين الحرم ميل ونصف) إلى بئر ميمون، وبذلك فقد عمل الحصين بن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة؛ والذي دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التي ستدور في مكة، وقام ابن الزبير بحث الناس على قتال جيش أهل الشام، وقدم على ابن الزبير أيضًا نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام، وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير قليل، ولم تكن القوات متكافئة، وتحول الوضع لصالح الحصين بن نمير، بعد أن مُني ابن الزبير

بفقد خيرة أصحابه، مثل أخويه المنذر وأبي بكر ابني الزبير، ومصعب بن عبد الرحمن، وحذافة بن عبد الرحمن بن العوام، وعمرو بن عروة بن الزبير، وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبي قبيس (أحد جبال مكة ويطل على الصفا)، وجبل قعيقعان (جبل بمكة) وفقد ابن الزبير أهم مستشاريه ومناصريه، وهو المسور بن مخرمة بعد أن أصابه بعض أحجار المنجنيق، وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبقَ مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق سوى الحجر، وحوصر ابن الزبير حصارًا شديدًا ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط، بعد أن فقد مواقعه المتقدمة في الأبطح، وفي أثناء احتدام المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة، وهذه مصيبة أُضيفت إلى مصائب المسلمين التي نتجت عن استحلال القتال في البلد الحرام الذي حرّم الله ورسوله القتال فيه، وكان يزيد بن معاوية قد مات في منتصف شهر ربيع الأول، ولم يعلم أحد بموته نظرًا

لبعد المسافة بين مكة ودمشق، وقد جاء الخبر بموت يزيد إلى مكة لهلال شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين.

يقول الصلابى فى كتابه « الدولة الأموية عوامل الأزدهار وتداعيات الانهيار»:»ولم تكن الكعبة مقصودة في ذاتها بالإحراق، والدليل على ذلك ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله في كلتا الطائفتين: جيش الحصين بن نمير، وجيش ابن الزبير، فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: هلك الفريقان والذي نفس محمد بيده، وأما أصحاب ابن الزبير فقد خرجوا كلهم في جنازة امرأة ماتت في صبيحة ليلة الحريق خوفًا من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجدًا ويقول: اللهم إني لم أتعمد ما جرى فلا تُهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك. وأهل الشام بالرغم من جهل بعضهم بابن الزبير ومكانته، إلا أنه من المستحيل أن يجهل أحد منهم مكانة الكعبة وأهميتها، كيف وهم يتجهون إليها في صلاتهم عندما كانوا يحاصرون ابن الزبير، فمن المستحيل أن يعمد

أحدهم إلى حرق الكعبة، أو كان ذلك يدور في تفكير الحصين بن نمير، وقد وردت تصريحات لبعض أقارب ابن الزبير وبعض السلف والعلماء المحققين بأنهم لم ينسبوا إلى أحد من الطائفتين قصد حريق الكعبة، فهذا هشام بن عروة يقول:.. فقاتلوا ابن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار، وقال ابن عبد البر: وفي هذا الحصار احترقت الكعبة، وقال ابن حجر: ثم سارت الجيوش إلى مكة لقتال ابن الزبير، فحاصروه بمكة وأُحرقت الكعبة. ولا شك أن أحدًا من أهل الشام لم يقصد إهانة الكعبة، بل كل المسلمين معظمون لها، وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان لابن الزبير لا للكعبة، ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها لا هو ولا نوابه باتفاق المسلمين. وهكذا كانت إحدى نتائج تلك الحرب التي دارت بين ابن الزبير والحصين بن نمير إحراق البيت الحرام».

وفي هذه الأثناء يموت يزيد بن معاوية، ولما وصل الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير، فقال: موعد ما بيننا الليلة

الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به ويفاوضه في الخلافة، فالتقيا وتحادثا طويلاً واشتد بينهما الجدل، وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة. فقال عبد الله: أنا أُهدر تلك الدماء؟ أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم. وكان الحصين يكلمه سرًا، وهو يجهر جهرًا ويقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهيًا قط أو أريبًا (قبح الله من يرى أنك داهية تفهم في أمور السياسة والملك)، قد كنت أظن لك رأيًا، إلا أراني أكلمك سرًا وتكلمني جهرًا، وأدعوك للخلافة وتعدني للقتل والهلكة. وبعد أن افترقا، أدرك عبد الله خطأه في موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة ومرافقته إلى بلاد الشام، وأراد أن يصحح

هذا الموقف، وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق، فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فليس فاعلاً وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمنكم وعادل فيكم. فرد الحصين بقوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناسًا كثيرًا من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس، فما أنا صانع؟

وهنا ضاعت على ابن الزبير فرصة كبيرة لم يكن من السهل أن تُعوض بعد ذلك، وربما كان لابن الزبير أسبابه في ذلك الوقت التي تكلم فيها المؤرخون، لكن على سبيل التكهن فلم يكن أحد ليشق عن صدره ويعرف ما سبب رفضه هذا العرض، ولكنه بلا شك لم يكن على صواب إذ رفض هذا الأمر الذي كان الحصين فيه جادًا وصادقًا.

تولى الحكم بعد يزيد ابنه معاوية بن يزيد، ويختلف العلماء في مدة حكمه، فمنهم من قال أربعين يومًا، وأكثر من قال إنها لا تتجاوز ثلاثة أشهر.

ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى في الناس: الصلاة جامعة، وخطب فيهم، وكان مما قال: أيها الناس، إني قد وُليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم.

فإذا كان معاوية بن أبي سفيان - أول الخلفاء الأمويين - قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية الثاني، ثالث خلفاء الأمويين أيضًا، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وهذا يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط.

كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة خطيرة، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبيًا صغيرًا. وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام - على

رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق- أن يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبير بني أمية فكر في الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية - الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أخوال يزيد - رفضوا أن يخرج الأمر عن بني أمية وأن يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلاف شديد، ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام، وأخيرًا اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمرًا للشورى، يبحثون فيه عمن يصلح للخلافة ويصلون في ذلك إلى قرار. ويعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان آخر خلفاء الفرع السفياني، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثاني من بنى أمية "المروانيين"، وأولهم مروان بن الحكم، ولا يُعد عند كثير من المحققين والمؤرخين خليفة، حيث يعتبرونه باغيًا خرج على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وكذلك ولده عبد الملك لا يُعد خليفة إلا بعد موت ابن الزبير، واجتماع المسلمين عليه، وبوفاة معاوية بن يزيد انتهت الدولة السفيانية وظهرت الدولة

الزبيرية، ولكنها لم تستمر، فقد استطاع بنو مروان القضاء عليها، وسيأتي التفصيل في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

خامسًا: مبايعة عبد الله بن الزبير خليفة للمسلمين

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفي للبيعة، إذ لا بيعة دون شورى، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب. وهذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً، وترك الأمر شورى، ولم يستخلف أحدًا، ولم يوصِ إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضًا إلا بعض جهات منها، ففي دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير، وفي حمص بايع النعمان بن بشير، وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، وفي فلسطين بايع ناتل بن قيس، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، ولم يكن رافضًا

بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وهكذا تمت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام، وأصبح الخليفة الشرعي، وعين نوابه على الأقاليم، وتكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعة ابن الزبير خليفة للمسلمين، ولذلك صرّح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعة ابن الزبير بيعة شرعية، وأنه أولى بها من مروان ابن الحكم، فيروي ابن عبد البر عن مالك أنه قال: أن ابن الزبير كان أفضل من مروان وكان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عبد الملك. ويقول ابن كثير: ثم هو - أي ابن الزبير - الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر، ويؤكد كل من ابن حزم والسيوطي شرعية ابن الزبير، ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغيين عليه خارجين على خلافته، كما يؤكد الذهبي شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين.

وكان من الطبيعي أن تكون الحجاز أولى المناطق خضوعًا وولاءً لبيعة ابن الزبير؛ لكونها مركز المعارضة ضد بني أمية، وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروي ابن سعد أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي، وعبد الله بن رضوان ابن أمية الجمحي، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبيد بن عمير، وعبيد الله بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر، وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيات لها مكانتها وتأثيرها لاسيما في الحجاز، وهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وتكاد تجمع المصادر أن أيًّا من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته.

وهنا نحن أمام خليفة شرعي استتبت له البيعة وثبتت كما ذكرنا آنفًا، ثم كان ما سنتلوه عليكم من صنيع مروان بن الحكم وولده عبد الملك بن مروان.

ولم يبايع مروان بن الحكم لعبد الله بن الزبير، والتف زعماء

القبائل وبنو أمية الموجودون بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحاته للزعامة، وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هي الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده - عبد الملك وعبد العزيز - بولاية العهد، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وأثنوه عن عزمه وأقنعوه أن يدعو لنفسه، وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر في ذلك الأمر لا سيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير في معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بني أمية في بلاد الشام وضعف موقفهم، فإننا لا نعتبر ذلك مناقضًا لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما في الموقف الذي اتخذه، وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته والخروج عليه.

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية - بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان

بمواجهة ابن الزبير في الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة، وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، وهو من أهم الأحداث التاريخية في تاريخنا الإسلامي قاطبة، وهاكم تفاصيل ما دار فيه:

سادسًا: مؤتمر الجابية

ظلت الأردن - موطن الكلبيين - على ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصًا على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذي عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزًا للخلافة لم يكن أمرًا عاطفيًا غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، أثبتت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخي، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني، والوجود الأموي بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات

عنيفة، وتشقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة - آنذاك - صراعًا عنيفًا بين القبائل القيسية واليمانية، ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بين قيس الفهري إليهم، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد، والذي كان يُشرف - آنذاك - على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني، بينما تشبث الكلبيون - رغم الضعف الظاهري لمواقفهم في ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين - بالمصاهرة بينهم وبين الأمويين، منذ تزوج معاوية منهم وتربى فيهم يزيد.

ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون، فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام، في الوقت الذي يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير، ويفضل هذا الفريق البيعة لمروان

بن الحكم، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية؛ اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية (بلدة من أعمال دمشق قرب الجولان)، للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك. وفي الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمرًا تاريخيًا يمكن أن يوصف بلغة السياسة بأنه كان مؤتمرًا دستوريًا، وقد حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأي من أهل الشام، وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة في القرار المصيري، ونستطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشورية النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة - غير بني أمية - قد عُرضت للبحث، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل، كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامي أحد زعماء الشام، حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف، وأمام ما يذكر

الناس من عبد الله بن الزبير، ويدعون إليه من أمره فهو - والله - كما يذكرون، إنه لابن الزبير، حواري رسول الله وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق، ذات النطاقين، وهو - بعد - كما تذكرون قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام من صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبوا الصغير - يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات، وقد دارت نقاشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا،

ومنهم الشخصيات المؤثرة والمعارضة لابن الزبير، وقد قُلّبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك.

أهم قرارات مؤتمر الجابية:

كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة، وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، ومبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، وأن يتولى الخلافة مروان على أن يكون بعده خالد بن معاوية بن يزيد، وعلى أن يستعد لمجابهة وقتال المخالفين أتباع ابن الزبير في الشام أولاً.

وهنا صار للأمة خليفتان؛ عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، ومروان بن الحكم الزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة في عاصمة الخلافة، ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية، فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزمة لبقية الأقطار والأمصار كلها، وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا ينتشر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء، وقد نسب ابن حزم هذا الرأي لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك، واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام.

وهنا تحدث معركة كبرى بين المسلمين تُحسم على أثرها أمور كثيرة، وهي معركة مرج راهط، وإليكم ما جاء فيها..

سابعـًا: معركة مرج راهط

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني، وانعقدت البيعة لمروان، وحل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بني أمية، وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً؛ فما زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير، قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص، وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحًا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين، فكان على مروان أن يُثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها، وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، وكان أول فتح على بني أمية - على حد تعبير ابن الأثير- ولم يضيع مروان وقتًا، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه

إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان، حيث هزم القيسيون أنصار ابن الزبير، وقُتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام. واستمرت المعركة حوالي عشرين يومًا، وكانت في نهاية سنة ٦٤ هـ، وقيل: في المحرم سنة ٦٥ هـ.

ومكّن انتصار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطوته التالية هي المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة، واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبًا، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سرًا، وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر، فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد بن معاوية، وحسان بن مالك، ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز،

ودارت بين مروان وابن جحدم (عامل الزبير على مصر في ذلك الوقت) عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالبًا العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه.

وكان نجاح مروان في استرداد مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليًا عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر، فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له:

يا بني، عُمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينًا على غيره، ويَنْقَد قومه إليك، وقد جعلت معك أخاك بشرًا مؤنسًا، وجعلت موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وما عليك يا بني أن تكون أميرًا بأقصى الأرض،

أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟

هذا الكلام ينم عن رجل مجرب، رجل عرك الحياة وخبر السياسة، ومثل هذا وولده يُنهي أي انقسامات أو خلافات قد تنجم في دولته، فهو يُعلّم ولده كيف يبسط العطايا للناس ليحبوه وكيف يقرب كل واحد من خاصته على حدة حتى يكون عينًا على غيره، وكيف أنه يجب عليه أن يبسط وجهه للناس لتصفو له مودتهم، وكلها حكم تنم على سياسة عبقرية ومقدرة فذة على إدارة الناس.

وبعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير، في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد، وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير، ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئًا من أهدافها في عهد مروان؛ إذ سارع إليه الأجل وتُوفي وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث

في قرقيسيا، وعند مجيء عبد الملك أقر هذه الحملة - التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد - أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشًا من فلسطين يُقدّر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، واتجه هذا الجيش نحو الحجاز، ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان.

وهنا ظهر اسمان كبيران في تاريخ الأمة الاسلامية ومحوران كبيران من محاورها، ألا وهما عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي.

ثامنـًا: عبد الملك بن مروان

تُوفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٦٥ هـ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا، ودُفن بين باب الجابية وباب الصغير، وكان آخر ما تكلم به مروان:

وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقش خاتمه: العزة لله، وفي رواية: آمنت بالله العزيز الرحيم، وقد اختُلف في سبب وفاته؛ إذ وردت ثلاث روايات فيها: الأولى ترى أنه تُوفي بالطاعون، وتذهب الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقته سماً فمات، أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات، وثالثة ترى أنه تُوفي وفاة طبيعية. إن تناقض الروايات يدل على أن الحقيقة غير معروفة، وأما الرواية التي تتهم زوجته بالقتل فتبدو كأنها أسطورة مختلقة رددتها الألسن، إما حبًا في الثرثرة، وإما طعنًا في الأسرة الأموية.

ونحن لن نبسط النفس في الحديث عن عبد الملك بن مروان مكانة وفضلاً، إذ ليس هذا ما نصبو إليه من هذا الكتاب، وإنما سأتحدث عنه بعد توليه الخلافة، فهو جزء محوري في هذا الصراع والنزاع، وعلى يديه سيكون مصرع ابن الزبير، لذلك سوف أعرض على حضراتكم الجزء من حياته الذي يمثل ركنًا ركينًا في قصتنا.

ومن العجيب أن عبد الملك كان له من ابن الزبير موقفان متناقضان: أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة، يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشًا ليقتل ابن الزبير ومن معه، وكان يرى في ذلك إثمًا كبيرًا، قال يحيى الغساني: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لي عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم، قال: ثكلتك أمك!! أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود وُلد في الإسلام (بعد الهجرة) وإلى ابن حواري رسول الله، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنَّكه رسول الله، أما والله لو جئته نهارًا لوجدته صائمًا، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائمًا، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعًا في النار. وأما موقفه الثاني فكان بعد الخلافة، ويأتي عكس الأول تمامًا، عندما جهز عبد الملك جيشًا يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصرًا مكة حتى قُتل عبد الله بن الزبير.

ولكن هذه هي طبيعة الملك والكرسي، تُنسي الناس مبادئهم وتحيل حرامهم حلالاً ومنكرهم معروفًا، ولذلك وجد له ألف مسوغ أن يغير ما يعتقد ويُبدّل ما يرى ويزيف ما كان بين جنبيه، فقط بغية الحفاظ على كرسي زائف وملك هو إلى زوال.

ثم حدثت اضطرابات كثيرة على عهد عبد الملك بن مروان، ولعل المقام لا يتسع هنا لذكرها، ولكن سوف أذهب إلى مواجهته مع ابن الزبير، وذلك بعد أن بسط ابن الزبير نفوذه على العراق بعد قضاء مصعب ابن الزبير على حركة المختار، ذلك الثقفي الذي ادّعى النبوة وادّعى الوحي، وأنه ابتُعث ليقتل كل من قتل الحسين، ولكن استطاع مصعب أن يُخمد ثورته ويرد العراق بكاملها تحت نفوذ ابن الزبير.

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق؛ أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يُقيم في الشام، ويرسل واحدًا من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار

عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو إلى هذا الرأي. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني بصير بالحرب، شجاع بالسيف، إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة، ولكنه لا علم له بالحرب.. ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي.

تاسعًا: القضاء على مصعب بن الزبير

عزم عبد الملك – إذن – على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير، وكان ذلك في سنة ٧١ هـ، أي بعد أربع سنين من القضاء على المختار، ولعله أخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدًا، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصمًا في قرقيسيا، مهددًا بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسيا التي استمرت حوالي سبع سنين كالشوكة في

جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق، ولما أراد الخروج للعراق ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكت جواريها لبكائها، وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه، وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان، ونزل بمسكن، وكان مصعب قد علم بمسيره، فجعل على مقدمته إبراهيم بن الأشتر، ونزل باجميرا، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفي قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، وكتب إليه عبد الملك أيضًا، فأخذ الكتاب مختومًا ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه؟ فقال له: ما قرأته، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه – والله – ما كان من أحد آيس منه مني، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إليّ، فأطعني فيهم فاضرب أعناقهم، قال: إذن لا تنصحنا عشائرهم (تنقلب علينا عشائرهم)، قال: فأوقرهم

حديدًا (قيدهم)، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك (قصر كسرى)، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان، إني لفي شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه. وهذا ليس غريبًا على أهل العراق، فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل لقد صرح عبد الملك بأن كُتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم. ولم يكن هذا خافيًا في معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة - وكان من رجاله في ذلك الوقت - يستشيره، قال له: اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدني عنك. فقال مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إليّ ألا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر. في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب، والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه؛ كان حريصًا على ألا

يقاتل مصعبًا، للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما، فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائي إلى نفسي، ويجعل الأمر شورى، فقال له مصعب: قل له: السيف بيننا.

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى؛ فأرسل إليه أخاه محمدًا ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر، فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتَّاب بن ورقاء (يعنى أرسله له مددًا في القتال)، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك (يعني خائن لمصعب)، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس. فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقُتل، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه - فوق شجاعته - كان مخلصًا له غاية الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على

مصعب وتحرج موقفه، صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبقَ معه سوى سبعة رجال. ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيرًا قتله زياد بن ظبيان.

وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة في جمادى الآخرة سنة ٧٢ هـ. فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه، فقد – والله – كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم، وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعاد العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. وعين عبد الملك أخاه بشرًا واليًا عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشًا للقضاء على ابن الزبير بمكة.

لما وُضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم. لقد نسي عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب، ولم يذكر إلا الكرسي وسلطة الحكم.

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذانًا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير؛ فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فتت في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلقِ رايته، وظل يقاوم حتى النهاية.. ولم يضيع عبد الملك بن مروان وقتًا بعد انتصاره على مصعب.

عاشرًا: الحجاج بن يوسف وحصار مكة

وقرر عبد الملك أن يقضي نهائيًا على دولة ابن الزبير، ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج بن يوسف، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف، وبدأ يُرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يُرسل إليه بمثلها، فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو - الذي كان مرابطًا بوادي القرى - أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل.

وفي محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يُسهم في فرض هذا الحصار؛ فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة مهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة (قطع الطعام والشراب، فإن مكة يأتيها طعامها من خارجها)، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير، وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه، وفي الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك، السويق، والكعك والدقيق، وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير.

وهنا أراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن يُنهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته، فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى. وهذه الإجابة تحمل في مضمونها

الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير، وتوجه الحجاج ابن يوسف بجميع جيشه إلى مكة، ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضربًا متواصلاً، وفي الوقت نفسه كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير، وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق، فأجابهم: والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت؟ وكانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية، وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج، فقد تدخل في الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج، وقال لهم: والله إني لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجأ

إلى البيت، وأيًّا ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف.

وبعدما انتهى موسم الحج نادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيُستأنف ضد ابن الزبير.

ويروي البلاذري أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال، وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير في مواجهة كتائب الحجاج، ولم يمنعه كبر سنه وخذلان من حوله، من الثبات على مبدئه الذي قاتل من أجله.

بعد انتهاء موسم الحج نادى الحجاج في الناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى ضرب البيت بالحجارة، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما. فلما رأى البطل ذلك الموقف دخل

على أمه فقال لها: يا أمه، خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي، فلم يبقَ معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت - والله - يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تُمكّن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا - والله - رأيي، والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حُرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكرًا، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجرِ في حكم الله،

ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني (أي سبقتني إلى الموت)، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر (الحر الشديد) المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين، فتناول يديها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعًا لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا، قالت: امضِ على بصيرتك وادن مني حتى أودّعك. فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها على الدرع،

فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبسته إلا لأشد منك (أي لكي لا تخافي عليّ). قالت: فإنه لا يشد مني، فنزعها، وأمه تقول: البس ثيابك مشمرة.

الحادي عشر: استشهاد عبد اللّه بن الزبير

ففي آخر يوم من حياته صلى ركعتي الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن، فصلى بأصحابه فقرأ: «ن وَالْقَلَمِ» حرفًا حرفًا، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها:.. فلا يرعكم وقع السيوف (لا تخافوا من السيوف) فإني لم أحضر موطنًا قط إلا ارتثثت فيه من القتل (أصاب جسدي الكثير من الطعنات)، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأ كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ إلا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

يقول لهم ابن الزبير في خطبته الاخيرة أنه قد جرب الحروب والطعان وما كان يجده من وجع علاجها أشد عليه منها حينما أصابته، وأوصاهم بسيوفهم فلا يضيعوها ولا تُكسر منهم، وليشغل كل امرئ بنفسه ولا تسألوا أين ابن الزبير، فإن افتقدتموني فأنا مع أصحاب الرعيل الأول، مع أصحاب رسول الله، يقصد روحه معهم قد فارقت الدنيا.

ثم قال احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون (جبل بمكة)، فرُمي بآجرة (حجر أُلقي عله من المنجنيق) فأصابته في وجهه فأرعش لها، ودمي وجهه، وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن

ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوب طارقًا، ولما صُلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك، وقد ذُكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال: ما أُراني اليوم إلا مقتولاً، لقد رأيت في ليلتي كأن السماء فُرجت لي، فدخلتها، فقد - والله - مللت الحياة وما فيها.

وهنا سقط البطل صريعًا على أرض اللئام ومناط الآثام، تلك الدنيا التي ما أبقت له حبيبًا ولا قريبًا، وهو يدافع عن الحق وينافح عنه، ثابتًا على رأيه مرابطًا لجأشه، بعزم لا يلين وثبات لا يهتز ومضاء إرادة جبارة تهيل الجبال، يقف وحده أمام جيش بكامله لا يأبه للموت، وها هي أمه الصابرة المحتسبة تُقدم ولدها للموت على أن يثبت على الحق ويكون كسالفيه، ولا يركن إلى الدنيا ولا إلى الدهر، وإن لان وإن سر فيلفي كمن اغتر بأفعى تنفث السم، وهو الآن يخرج منه ريح المسك، ذلك المناضل البطل الثائر، وهذا النبيل المجيد، الذي كان آخر مصرع معنا هنا في مصارع النبلاء.

الخاتمة

وفي خاتمة كتابنا هذا، الذي أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وليس لأحد من خلقه فيه نصيب، أكون قد عرضت على القارئ الكريم إلمامة سريعة، وسردت لك أحداث الفتن التي عصفت بهذه الأمة، بدءًا من استشهاد الفاروق، وبداية كسر باب الفتن على أمة الإسلام، وما حاكه لنا أهل الإمبراطوريات التي أهالها المسلمون، فعمدوا إلى الفتن يُزكّون نارها بين أهل هذه الأمة المجيدة، وصارت تشتعل تلك الفتن حتى أكلت في طريقها رجالاً عجز الزمان أن يجود بأمثالهم، وما رصدت حركة التاريخ لهم مثيلاً، فما كان من الممكن أبدًا أن يهزمهم عدوهم، فلا يقدر عليهم إلا أنفسهم، وقد رصدنا في هذا الكتاب أحداث الفتنة منذ مقتل الفاروق مرورًا بتفاقم الفتنة واستعارها على عهد ذي النورين، حتى أودت بحياته، والدور الذي لعبته

السبئية كجماعة سرية بذلت الغالي والنفيس من أجل النيل من هذه الأمة، ثم مررنا بالفتنة على عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وهي هنا لم تُطلّ برأسها فحسب، بل خرجت بجسدها كاملاً إلى رحابة ديار الإسلام لتُهلك في حروب طاحنة خيرة رجال هذه الأمة، ويقف فيها سيفان لطالما قاتلوا معًا لرفعة هذا الدين، فإذا بالسيفين يتقاتلان وكل منهما يرى نفسه على الحق، فكان من جرائها أن استُشهد علي رضي الله عنه، ثم ما كان من أمر ولاية الحسن بن علي، ثم استشهاد الحسين رضي الله عنهما، وتلك المأساة التي سطرها التاريخ بدموع كالدماء قاتمة وجراح غائرة على ظهر هذا الزمان، ثم ينتهي بنا المطاف في هذا الكتاب إلى ذكر أمر ابن الزبير رضي الله عنه، وكيف كانت خلافته، ثم كيف قضت عليه الفتنة التي ما هدأت ولا خبأت نيرانها منذ أُشعلت، وستظل فينا إلى قيام الساعة، وجعلت المحور الرئيسي الذي أرصد منه هذه الفتنة هو مصارع أبطالها ونبلائها، فجعلت الكتاب مصارع النبلاء لأرصد فيه مصرع كل نبيل من هؤلاء

النبلاء، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بخالص الشكر والعرفان والامتنان إلى فضيلة الشيخ الوالد والمعلم فضيلة الدكتور علي محمد محمد الصلابي، الذي كانت مراجعه ومؤلفاته هي العمود الفقري الذي ارتكزت عليه في دراستي هذه، فالله أسأل له الصحة والعافية وسعة العلم وطول العمر في طاعته، وأسأل الله أن يجمع بيننا في الدنيا، إذ لم أنعم بمطالعة وجهه الكريم كفاحًا، وأن يجمع بيننا في الآخرة مع سيد النبيين في دار مقامته في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا، وجمعنا الله وكل من طالع هذا الكتاب واستفاد منه في الجنة جميعًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو على كل شئ قدير.

الفقير إلى مغفرة ربه وعفوه

محمد سمير محمد صابر

الثاني من ربيع الثاني لعام ١٤٣٥

الموافق الثاني من فبراير لعام ٢٠١٤

الفهرس

إهداء 3

إهداء خاص 5

المقدمة 7

الفاروق طعينًا 13

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه 14

ثانيـًا: مولده وصفته الخَـلْقية 14

ثالثًا: حياته في الجاهلية 15

رابعـًا: إسلامه وهجرته 19

خامسـًا: الفاروق مهاجرًا 28

سادسـًا: عمر في ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم 31

سابعـًا: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب 39

ثامنـًا: العدل العمري 45

تاسعـًا: الفاروق فاتحًا 59

عاشرًا: المؤامرة الكبرى 67

ذو النورين شهيـدًا 90

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه 92

ثانيـًا: ولادته 93

ثالـثًا: صفته الخـَلْقيـَّة 93

رابعـًا: مكانته في الجاهلية 94

خامسـًا: إسلامه 94

سادسـًا: زواجه من رقية بنت رسول الله 95

سابعـًا: هجرته إلى الحبشة 96

ثامنـًا: هجرته إلى المدينة 97

تاسعـًا: عثمان بن عفان في ميزان رسـول الله

صلى الله عليه وسلم 102

عاشرًا: أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه 106

الحادي عشر: الفتنة الكبرى 112

الإمام علي أبو السبطين 190

أولاً: اسمه وكنيته ولقبه 191

ثانيـًا: مولده 192

ثالثًا: إسلامه 192

رابعـًا هجرته 194

خامسـًا: حيدرة الإسلام مقاتلاً في سبيل الله 195

سادسـًا: علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عمر 202

سابعـًا: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: 205
معركة الجمل 245
معركة صفين 262
التحكيم 295
الحسين في كربلاء 328
أولاً: اسمه ونسبه وشيء من فضائله 329
ثانيـًا: الحسين رضي الله عنه في مواجهة بني أمية 330
رابعـًا: الحسين في كربلاء 354
خامسـًا: الحسين شهيدًا 357
ابن ذات النطاقين 363
أولاً: اسمه ونسبه وكنيته 364
ثانيـًا: مولده ومبايعته لرسول الله 364
ثالثًا: شجاعته وجرأته 365

رابعـًا: معارضته لخلافة يزيد بن معاوية 366

سادسـًا: مؤتمر الجابية 387

أهم قرارات مؤتمر الجابية 391

سابعـًا: معركة مرج راهط 393

ثامنـًا: عبد الملك بن مروان 397

تاسعـًا: القضاء على مصعب بن الزبير 401

عاشرًا: الحجاج بن يوسف وحصار مكة 406

الحادي عشر: استشهاد عبد الله بن الزبير 412

الخاتمة 415

الفهرس 419